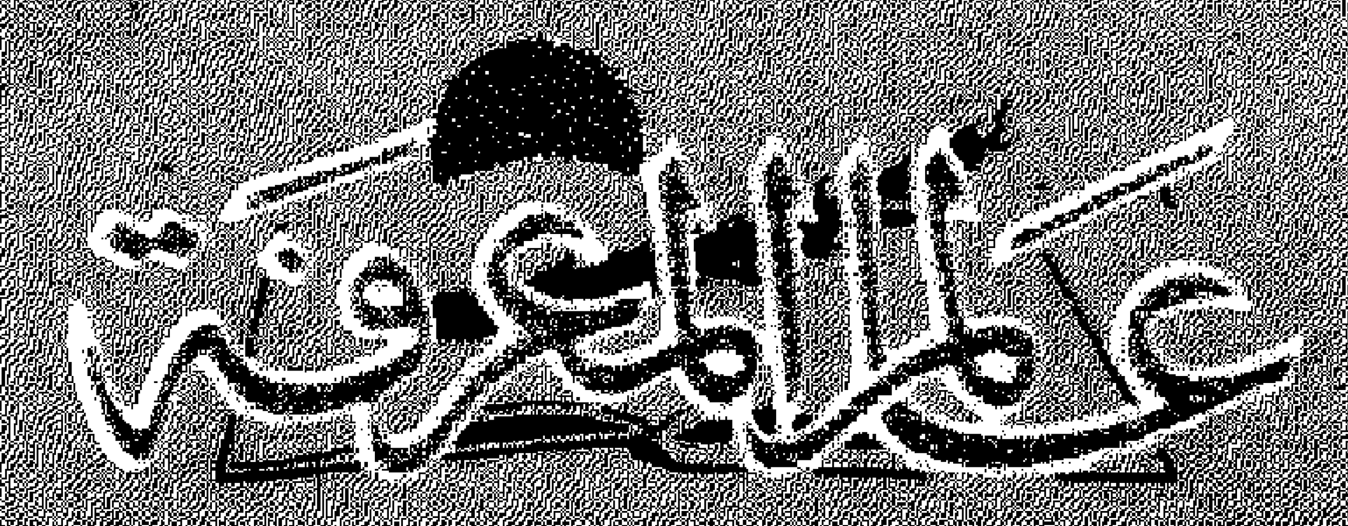
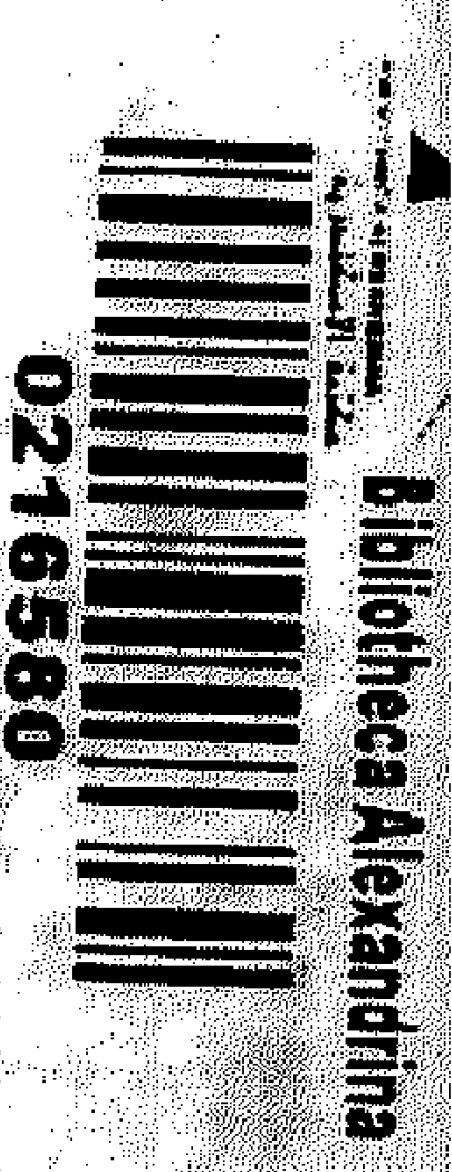


معالم على طريق
تحديث الفكر العربي

تأليف : د. معن زيادة



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

اهداءات ٢٠٠١

ا.صلاح راتب

القاهرة



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

معالم على طريق
تحديث الفكر العربي

تأليف : د. معن زيادة

١١٥ - ذو القعدة ١٤٠٧ هـ - يوليو / تموز ١٩٨٧ م

المراسلات:

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة / الكويت - 13100

معالم على طريق

تحديث الفكر العربي



تقديم

بعض هذا الكتاب كتب على ضوء مصباح الزيت والشموع، فالخدمات والمرافق العامة في لبنان، ومنها الإنارة بالكهرباء، لم تعد منتظمة كما كانت، فلقد فعلت الحروب الصغيرة والكبيرة المتتالية فعلها فوق أرض الوطن الصغير. ونحن لانقول هذا لنبرر بعض الهنات والثغرات التي نجدها في الكتاب، وهي مما يوجد عادة في أكثر الكتب، وإنما نقوله لنؤكد أن كل ما حصلنا عليه من مكتسبات وكل ما حققناه من انجازات في ميدان التحديث مهدد بالخطر. واذا كانت هذه الحقيقة تبدو ظاهرة واضحة في لبنان، فإننا نستطيع أن نراها، ولو بدرجات أقل، في أكثر من مكان في الوطن العربي الكبير.

والواقع أن معركة العرب مع التخلف من أجل التقدم، لم تزل على أشدها، وقد خسرها لبنان، مؤقتاً على الأقل، ولم يعد فيه من صفات الحداثة والتقدم إلا بعض المظاهر الكاذبة، إضافة إلى حداثة الأسلحة وتقدمها، وهي أسلحة لاتستخدم لحماية الوطن وتقدمه، ولهذا فهي ترتد عليه وعلى قضبته.

لم تزل قضية التقدم والتحديث قضية العرب الأولى، وستبقى كذلك لفترة طويلة من الزمن، وهي قضية متداخلة مع عدة قضايا أخرى، مثل قضية الاستقلال والتحرر والعدالة والوحدة. إلا أن الضغط لإجهاض جهود العرب التحديثية مازال مستمراً، بل إنه يتزايد يوماً بعد يوم. ونحن نشهد على الساحة العربية اليوم أكثر من حرب واحدة تستنزف طاقات العرب وتربك جهودهم وتعرقل مسيرتهم. وكل هذا ضد جميع القضايا العربية ولاسيما قضية التقدم والتحديث، لأنها القضية التي تلخص مجمل قضاياهم ـ لأن التحديث والتقدم

لايكونان دون الاستقلال الحقيقي والتحرر الفعلي ـ ولأن التحديث لايكون إلا مع العدالة بأوسع صورهـا وأعمق معانيهـا ـ ولأن التحديث لايكـون إلا عبر مشروع عربي وحدوي ونهضوي شامل، وكل ماعدا ذلك جهود محدودة الأفق والنتائج .

مرّ الفكر العربي الحديث بثلاث مراحل رئيسة: مرحلة التأسيس والتأصيل وهي مرحلة امتدت على مدى القرن التاسع عشر كله تقريباً، ورغم فشل المشروع النهضوي في هذه المرحلة، لأسباب خارجية أولا تمثلت بتدخل الاستعمار المباشر، ولثغرات داخلية تمثلت باهمال القوى الشعبية، فإن مارافقه من انجازات ومكاسب كان له الدور الأول في إرساء الفكر العربي الحديث على قواعد ثابتة، وأهم مافي هذه المرحلة أنها كانت ممهدة للمرحلة الثانية من مراحل هذا الفكر العربي: مرحلة ظهور الفكر القومي .

في هذه المرحلة الثانية، التي بدأت متداخلة مع المرحلة الأولى في الربع الأخير من القرن الماضي، وشغلت النصف الأول من القرن العشرين، وجاوزته إلى نهاية الستينات وبداية السبعينات، انطلق الفكر العربي وصاغ مشروعاً توفرت فيه كل مقومات المشروع النهضوي الحديث، كما توفرت له فرص وقوى وامكانات عديدة، فتوضحت معالم الطريق، ولاحت في الأفق بوادر الأمل. . . . إلا أن المشروع انتهى إلى الفشل أيضا بسبب الضغوط الخارجية والثغرات التنظيمية والسياسية . . . . وقد تلاها مرحلة ثالثة وهي المرحلة الراهنة التي يمكن وصفها بأنها مرحلة انحسار، يسودها التخبط بين مشاريع تحديثية وطنية ـ قطرية محدودة الأفق والنتائج كما ذكرنا، وهيمنة ايديولوجيات معادية للتحديث عموماً وغير قادرة على استيعاب أهميته وضرورته .

في هذا الكتاب نعرض لقضية التحديث والفكر والثقافة المحدثين، ونتناول المرحلة الأولى من مراحل الفكر العربي الحديث، والشروط التي أنتجتها، ونقف عند هذه المرحلة لأن المرحلة الثانية تتسع حتى أنها تحتاج إلى كتاب مستقل على الأقل، نأمل أن ننصرف له في المستقبل القريب.

الفصل الأول

المجتمع الحديث والعقل الحديث

أولا : تمهيد

التطور البشري والتقدم الإنساني هما عبارة عن سلسلة طويلة متصلة الحلقات، كان آخرها مانسميه بالعصرنة أو المعاصرة، وهي حلقة مترتبة على حلقة سابقة تسمى عادة بالحداثة، وهي تعني دخول المجتمع في نمط جديد من الحياة يستلزمه ماجرى في العالم من تطورات علمية وصناعية واقتصادية وسياسية واجتماعية وغير ذلك. والحداثة والمعاصرة خطوتان في مرحلة واحدة من مراحل الإنسانية، هي المرحلة التي بدأت مع العصور الحديثة ومازالت، ولانعرف ماهي الخطوة الثالثة في هذه المرحلة، وما ستؤول إليه، وكيف ستنتهي هذه المرحلة، وما سيأتي بعدها. ففي توجه الحضارة الإنسانية اليوم ايجابيات وسلبيات تجعل بعض الباحثين الاجتماعيين يميلون إلى التفاؤل في حين تشوب رؤية آخرين درجات مختلفة من التشاؤم. ولكن الكل مجمع على أن المرحلة الراهنة هي واحدة من المراحل المهمة في تاريخ الإنسانية، والبعض يرى أنها ثالثة مرحلتين سابقتين مهمتين.

١ ـ مرحلة انبثاق الحياة الإنسانية على سطح الأرض وقيام المجتمعات البدائية منذ آلاف السنين.

٢ ـ ومرحلة ظهور الثقافات أو التجليات الحضارية المتقدمة، وهي مايطلق عليه البعض اسم الحضارات، كالصينية والفرعونية والبابلية والإغريقية والعربية وغيرها.

وقد صبت هذه التجليات جميعها في مجرى واحد تمهيدا لبدء المرحلة الراهنة مرحلة حضارة العلم والتكنولوجيا.

ولّما كان التطور البشري والتقدم الإنساني سلسلة واحدة، فإن المرحلة الأخيرة أو الراهنة لم تكن لتقوم لولا قيام المراحل السابقة، وما تضمنته كل مرحلة من حلقات وخطوات. وقد يتبادر إلى الذهن أن السلسلة المشار إليها هي أشبه ماتكون بالطريق الصاعد ليس فيه تعرجات او التواءات، أو هي أشبه بالبناء المتصاعد كل طبقة فيه تقوم على ماقبلها، وأن مابعدها قائم عليها، وليس الأمر كذلك، ففي ظل عصر العلم والتكنولوجيا الراهن، وفي ظل العصور الحديثة التي بدأت منذ عدة قرون من الزمان، نجد مجتمعات غير عصرية بل وغير حديثة، كما نجد تجمعات بشرية بدائية، ورغم هذا فإن وصف التقدم البشري بأنه سلسلة متصلة الحلقات يظل صحيحاً. صحيح أن بعض حلقات السلسلة تتداخل فتتقدم هنا وتتأخر هناك، وصحيح أن السلسلة قد تتقطع وتتوقف المسيرة بالنسبة لهذا الشعب أو ذاك، إلا أننا إذا نظرنا إلى تراث الإنسانية نظرة كلية وشاملة فإننا نجد أن المسيرة واحدة، وأن السلسلة متصلة، رغم مايشوبها من تقطع وتوقف تارة، ومن انتكاس وتراجع تارة اخرى.

ومهما يكن من أمر، فبدءاً من القرن الخامس عشر ظهرت بعض التحولات في أوروبا الغربية أدت إلى قيام حركة ضخمة من الثورات الفكرية والاجتماعية انعكست نتائجها على كل أوروبا بل وعلى العالم بأسره، وقد أطلق على مجمل هذه الحركة بكل مارافقها من أحداث ـ كالإصلاح الديني، والثورة الصناعية، وانتزاع زعامة العالم القديم من العرب، والثورتين الأمريكية والفرنسية، وقيام الدول القومية وغير ذلك كثير ـ اسم «النهضة الأوروبية». وقد كانت حركة النهضة الأوروبية هذه خطوة ضرورية لخطوة لاحقة من خطوات المرحلة الراهنة وهي مايطلق عليه اسم «الثورة العلمية والتكنولوجية». فقد أفادت أوروبا والعالم الغربي عموما من علوم السابقين، ولاسيما العرب الذين كانوا سدنة العلم والثقافة والحضارة في العصور الوسطى. وكان هؤلاء بدورهم قد أفادوامن علوم

غيرهم ولاسيما الإغريق. . . . وكان الإغريق قد أفادوا من غيرهم. وهكذا. . . . وقد توفرت لأوروبا ظروف خاصة إضافة إلى وراثتها علوم السابقين ومنجزاتهم الثقافية والحضارية، كما كانت قد توفرت للعرب ظروف خاصة قبل ذلك وللإغريق قبل العرب. ويبدو أن التراكمات الحضارية كانت قد بلغت درجة عالية، فعندما وجدت الظروف الملائمة تحولت إلى حركة هائلة كانت بداية مرحلة جديدة لها خصائصها المميزة.

وإذا كان يحلو للأوروبيين، والغربيين عموماً، أن يقللوامن دور الثقافات الأخرى والشعوب المتعددة التي اضطلعت بأدوار أساسية في مسيرة العالم الحضارية، فإن هذا لايعني أن ما أطلق عليه اسم «الحضارة الغربية» هو إرث أوروبي أو غربي يقتصر على القارة الأوروبية وعلى مايسمى بالعالم الغربي، لا من حيث مصدره والعوامل التكوينية التي ساهمت فيه، ولا من حيث نتائجه التي تتعدى أوروبا والعالم الغربي لتشمل العالم بأسره. وعلى كل حال فإن مسيرة التحديث التي سميت بالأوروبية وبالغربية، لأنها بدأت في أوروبا والغرب وانطلقت منها، لم تعد مسيرة تعني الغربنة «والأوربة»، ولم تعن اقتباس النموذج الأوروبي، أو زرع هذا النموذج في أماكن مختلفة من العالم، كما أنها لم تعد تعني الأخذ بنمط واحد من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية عموما، كما ساد في فترة من الزمان، ولاسيما أثناء المدّ الاستعماري في القرن المنصرم.

لقد اسهم سعي الشعوب إلى التحديث مع رغبتها في المحافظة على شخصيتها وهويتها وقناعتها بحقها في الاستقلال ونضالها من أجل ذلك، في سقوط مفاهيم الغربنة والأوربة والأمْركة بعد ذلك، وتبلور مفهوم الحداثة ثم مفهوم المعاصرة بدلا منها. كما أسهم انشطار أوروبا إلى شرقية وغربية، وقيام الثورة البولشفية ونهجها مسيرة تحديثية مختلفة عن مسيرة أوروبا الغربية في التخلي عن فكرة النمط التحديثي الواحد. ولاشك في أن نجاح بعض الشعوب في الحصول على استقلالها وتقديم أنماط جديدة من الحياة السياسية والاقتصادية الحديثة وادخال تجارب تحديثية غير أوروبية أو غربية على العالم قد اسهم في تمييز مفهوم التحديث

عما اختلط به من مفاهيم الأوْربة والغربنة والأمركة وما شابهها

إلا أن هذا لايعني أن مسيرة التحديث في العالم قد تخلصت من جميع أنماط التشويه، فبعد زوال الاستعمار القديم الذي كان عاملا أساسيا من عوامل تشويه مفهوم التحديث في العالم غير الأوروبي، وبعد قيام الامبريالية ظهرت أنماط جديدة من تشويه عملية التحديث في العالم النامي تجلت في ضروب التبعية بأشكالها المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها. ولاشك في أن المركزية الأوروبية، ومن ثم المركزية الغربية كانتا، ومازالتا، عاملين من عوامل الضغط باتجاه تحريف عملية التحديث ومفاهيمها وتوجيهها لمصلحة الغرب.

واذا كان علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ في الغرب يدركون الصلة الوثيقة بين حركة النهضة الأوروبية وما سبقها من انجازات قدمتها الشعوب والثقافات غير الأوروبية، كالصينية والهندية والعربية بوجه خاص، فإن أكثر هؤلاء يشدد على العناصر الإغريقية والمسيحية في أصول هذه النهضة، ويقلل من أهمية العناصر الأخرى، ولايعطيها إلا دوراً ثانوياً في التمهيد لقيام الحداثة ومن ثم المعاصرة. ففي دائرة المعارف البريطانية مثلا، نقرأ أن الحضارات السابقة للنهضة الأوروبية ولاسيماالعربية والهندية والصينية قدمت اسهامات لابأس بها تمهيدا للنهضة، إلا أن النمط الثقافي الغربي كان فريدا في قدرته على خلق نموذاتي مكتف بنفسه. فالمعرفة لم تأخذ شكل العلم الاختباري الذي يدرك منطقيا إلا في الغرب. ولم تعرف التكنولوجيا العلمية ولا الاقتصاد الموجه نحو الانتاج إلا في الغرب(١) واذا كان هناك من خلاف في وجهات النظر، فإن هذا الخلاف يدور حول ما إذا كانت هذه الفرادة الأوروبية والغربية تعود لبعض القيم الخاصة في الثقافة والتراث الأوروبيين، ولاسيما نزعة الفردية، أم أن ذلك يعود لنمط الحياة الاجتماعية ولاسيما لتراث المدينة ـ الدولة الذي عرفته أوروبا منذ ماقبل الميلاد،

---

(١) قارن بدائرة المعارف البريطانية، مادة والتصنيع والتحديث الجزء الخامس في طبعة سنة ١٩٨٤. Industrialization and Modernization

وفي حين أن البعض يركز على القيم الفردية الغربية والأخلاقية والدينية الخاصة في تعليله لظهور الحداثة في الغرب، فإن البعض الآخر يركز على بعض خصائص البنى السياسية والاقتصادية التي عرفها الغرب في تعليله لظهور هذه الحداثة. وقد يجمع البعض بين القيم الأخلاقية والدينية وخصائص المدينة الأوروبية كما يفعل ماكس فيبر Max Weber الذي يذكر قيمة العمل في الأخلاق البروتستانتية إلى جانب تعداده لخصائص المدينة الأوروبية ولاسيما دور الحرفيين والتجار في المدن الأوروبية في العصور الوسطى. [١]

إلا أننا إذا تفحصنا هذه النظريات وجدنا أنها اجتهادات تحاول أن تجد تفسيرا لظهور الحداثة في المكان والزمان اللذين ظهرت فيهما. ومايمكن أن يؤخذ عليها أنها جميعا من وحي نزعة المركزية الأوروبية، أو المركزية الغربية التي تقلل من شأن العالم غير الأوروبي وغير الغربي. فمما لاشك فيه أن تراكم الانجازات الحضارية مع توفر شروط ملائمة هو الذي أدى إلى ظهور الحداثة وقيام المرحلة الحضارية الراهنة، أما الجزم بأن ذلك لم يكن ممكنا إلا في أوروبا والغرب وبتأثيرهما، ففيه تشكيك بمسيرة التطور والتقدم الإنسانيين. وعلى كل حال فلسنا هنا في معرض التفصيل في عوامل ظهور الحداثة ونهوضها والرد على النظريات المختلفة في هذا الميدان، فما يعنينا هنا ليس الرد على هذا الموقف أو ذاك في تعيين العوامل التي أدت إلى قيام النهضة الأوروبية، وبالتالي الدخول في العصور الحديثة، بقدر مانحن معنيون بتحديد دعائم المجتمع الحديث ومعالمه، وبتحديد خصائص الحداثة والمعاصرة بعد ذلك. إلا أنه لابد من رفض التفسيرات والتأويلات العنصرية والعرقية والمتحيزة التي تسهم في تشويه مفهوم الحداثة ومسيرتها في العالم غير الغربي.

ولابد لتحديد معالم المجتمعات الحديثة هنا من الاكتفاء بالمعالم العامة لهذه

---

(١) قارن بـ Max Weber : The Protestant Ethic and The spirit of Capitalism (New York : Charles Scribner' s Sons, 1958

المجتمعات. والوقوف عند ماهو عام دون الدخول في التفاصيل، وذلك لأسباب منها: أنه ليس ثمة نمط واحد من المجتمعات الحديثة، بل هناك أنماط متعددة تجمعها بعض المعالم المشتركة، وتفرقها اختلافات فكرية وأغراض استراتيجية اقتصادية وسياسية وعسكرية. ومنها أننا معنيون هنا بتحديد هذه المعالم لغرض محدد وهو البحث في تحديث فكرنا العربي ومجتمعاتنا العربية. فنحن هنا نقتصر على مايخدم هذا الغرض المحدد قبل غيره.

ثانيا: معالم المجتمع الحديث

١ ـ وأول مانعرض له في نطاق تحديد معالم المجتمع الحديث هو العلم والتكنولوجيا باعتبارهما يشكلان العامل الاساسي المحدد لهذا المجتمع. إنهما العنصر الفاعل الأول. والعلم هنا ليس أي ضرب من ضروب المعرفة بل هو تلك المعرفة القائمة على التجربة الحسية وعلى الوقائع المادية الملموسة. والعلم بهذا المعنى هو غير تلك المعرفة الحدسية أو الفلسفية، وغير المواقف الأيديولوجية والدينية التي قوامها الإيمان لا العلم بالمعنى الضيق. وهذا العلم هو في الواقع العامل الأساسي في عملية التغيير الاجتماعي المتواصلة. فمنهجية عملية التغيير قائمة على منهجية العلم، فإذا كانت منهجية العلم هي وضع فرضيات مؤقتة قابلة للتغيير وفق قواعد معينة، فإن مايترتب على هذه المنهجية العلمية من تغيير دائم ونتائج متجددة ينعكس على الحياة الاجتماعية بأسرها. يضاف إلى ذلك أن الحركة العلمية تفرض مناخا من الحرية لاتقوم للعلم قائمة بدونه. ذلك أن التدخل في مسيرة العلم وفي نتائجه يعني ضرب تلك المسيرة وتعطيلها. فإذا كان العلم والتغيير الدائم أو التطور صنوين، فإن العلم والحرية صنوان أيضا، وقد أكدت أحداث التاريخ ذلك. وقد أشرنا ادناه(١) في معرض حديثنا عن خصائص الإنسان المحدث والعصري إلى التفكير العلمي والتغيير والحرية كخصائص ملازمة لهذا الإنسان.

---

(١) قارن أدناه الفصل الثالث «في ماهية الحداثة» حيث نعرض لخصائص الإنسان العصري

والتكنولوجيا كالعلم عامل حاسم في تحديد صورة المجتمع الحديث، وإذا كان العلم يفرض نتائجه على الفرد والمجتمع حتى بات الفرد والمجتمع في صيرورة دائمة بسبب نتائج العلم المتطورة، فإن التكنولوجيا تفرض ظلها على الإنسان محددة نمط حياته ونظاميه الاجتماعي والاقتصادي، بل إن التكنولوجيا ترسم معالم ثقافة الإنسان، فإذا كانت التكنولوجيا التي يتعامل معها الإنسان بدائية مثل اعتماده على القوس والسهم في الصيد وحصوله على رزقه، فإن حدود عالم هذا الإنسان بما فيها الحدود الفكرية، تظل محصورة في دائرة ضيقة، أما إذا كانت التكنولوجيا التي يتعامل معها الإنسان متطورة ومتقدمة فإنه من الطبيعي أن تتسع آفاق عالمه. فالتكنولوجيا هي تطوير وامتدا د لأعضاء الإنسان وحواسه وقدراته، وهي بهذا المعنى تصب مباشرة في نفس الإنسان ووعيه وتجربته، وهي من جهة أخرى عامل حاسم في فرض أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وبالتالي الثقافية والفكرية(١).

وإذا كان العلم وسائر ضروب النشاط العقلي خاصين بالإنسان، فإن التكنولوجيا خاصة به أيضا. وقد عرف البعض الإنسان بأنه الحيوان التكنولوجي، باعتباره الحيوان الوحيد القادر على اصطناع الآلات واستخدامها. وقد كان للعلم والتكنولوجيا الكلمة الأولى في صياغة المجتمعات الحديثة، فقد أدى تراكم المعرفة العلمية وتراكم المنجزات التكنولوجية المرتبطة بالحركة العلمية إلى دخول الإنسانية في مرحلة جديدة من مراحل حياتها، بدأت بتلك الحركة الهائلة المعروفة بالنهضة الأوروبية ومازالت مستمرة. وقد انعكست نتائج العلم والتكنولوجيا على المجتمعات الحديثة وأسهمت في صياغة أنماط جديدة من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

٢ ـ وثاني مانعرض له من معالم المجتمعات الحديثة ظهور أنظمة اقتصادية جديدة، وأنماط انتاج مستجدة مرتبطة بهذه الأنظمة. فقد اسهم التطوران

---

(١) قارن بـ معن زيادة: «التكنولوجيا كمضمون» في مجلة الكاتب العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٣.

العلمي والتكنولوجي واختراع الآلة البخارية في ظهور النظام الاقتصادي الرأسمالي على انقاض نظم اقتصادية أخرى أهمها النظام الاقطاعي، وقد أدى هذا بدوره إلى ظهور تناقضات اجتماعية وإلى فرز طبقي جديد كان من نتائجه قيام ثورات اجتماعية وظهور نظريات اقتصادية جديدة، وفلسفات سياسية مرتبطة بها، وانشطار أوروبا إلى غربية وشرقية لكل منهما نظامها الاقتصادي الخاص وفلسفتها السياسية والاجتماعية المتميزة.

ومع هذا فإن النظام الاقتصادي للكتلة الشرقية والنظام الاقتصادي للكتلة الغربية يشتركان في بعض الخصائص وهي من معالم الحداثة التي يشارك فيها المعسكران فبالإضافة إلى الدقة والإتقان في الانتاج، والتوجه نحو الاكتفاء الذاتي، وإقامة شبكة علاقات اقتصادية عالمية، فإن من معالم النظام الاقتصادي في المجتمع الحديث التوجه نحو المكننة، وخلق أنماط جديدة من الانتاج، واستيعاب مستجدات تفرضها التطورات العلمية والتكنولوجية.

يضاف إلى ذلك الاستخدام المتزايد للطاقة والإفادة من مستجدات تكنولوجية أكثر فعالية في جميع النشاطات الاقتصادية. ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى تقدم الصناعة وغلبة الطابع الصناعي على المجتمع، وتوفر المزيد من السلع وارتفاع مستوى الدخل القومي نتيجة زيادة الانتاج، والتسويق الخارجي والبحث الدائم عن أسواق جديدة ولاسيما في العالم غير المصنع وهذا بدوره يؤدي إلى انقسام العالم إلى قسمين جديدين منتج ومستهلك.

إلا أن أهم مايميز النظم الاقتصادية في المجتمعات الحديثة ـ إضافة إلى التصنيع والمكننة، والإفادة من التكنولوجيا المتطورة والمتقدمة ـ التخطيط الاقتصادي وازدياد دور الدولة، وحلول المؤسسات الكبرى كالشركات والتعاونيات ذات الإدارة الجماعية والمشتركة محل المؤسسات الحرفية الصغيرة، وانتهاء وجود المؤسسات الصغيرة والحرفية القائمة على المبادرات الفردية إلا في حدود ضيقة تخضع للتخطيط الاقتصادي الأوسع، والذي يكاد يكون شاملا لكل مرافق الحياة الاقتصادية.

ومن أخطر التطورات التي طرأت على الأنظمة الاقتصادية المزيد من تداخل النظام الاقتصادي مع التوجهات السياسية والأغراض الاستراتيجية، وحيازة التسلح على نصيب كبير من الاهتمام والعناية، ودخول الاقتصاد حلبة سباق التسلح وتوازن الرعب بين الكتلتين الكبيرتين، وانجرار الدول والمجتمعات المختلفة إلى هذه الحلبة الخطيرة.

٣ ـ وثالث ما نعرض له في تحديد معالم المجتمعات الحديثة هو طبيعة الأنظمة السياسية في هذه المجتمعات ، فقد كان من نتائج التطورات الاقتصادية التي عرفتها أوروبا مع بداية العصور الحديثة قيام البرجوازية الأوروبية، وسعي هذه البرجوازية إلى انتزاع بعض الامتيازات من الأسر الملكية من جهة ومن الكنيسة من جهة أخرى. وقد أدى هذا كله إلى قيام ثورات ضد امتيازات الملوك والكنيسة على حد سواء. وقد أدى نجاح هذه الثورات إلى تأسيس أنظمة سياسية بديلة للأنظمة السياسية التي عرفتها القرون الوسطى. وكان أهم معلم من معالم هذه الأنظمة السياسية نزع الطابع الإلهي عن سلطة الملوك، بعد فصل الدين عن الدولة. فقد كان الملوك يعتبرون أن سلطتهم من سلطة الكنيسة وبالتالي من سلطة الله، فجاءت الثورة البروتستانية ثم جاءت الثورة السياسية لتضع حدا نهائيا لإضفاء طابع القداسة على الدولة، وللتقليل من تداخل الدين بالسياسة إلى الحدود الدنيا الممكنة. ولم يعد للدين الدور السابق في السياسة، وكان الاقتصاد قد تحرر من التأثيرات والتداخلات الدينية قبل ذلك.

وقد ظهرت ثورة البرجوازية الأوروبيةالأولى وكأنها ثورة تثبيت الحقوق المدنية للمواطن، وثورة تثبيت الطابع القومي للسلطة السياسية، ومن هنا كانت أهم صفة من صفات أي نظام سياسي حديث أنه نظام سلطة الشعب، وقد يأتي التعبير عن سلطة الشعب هذه عبر الأنظمة الديموقراطية الغربية، أو عبر أنماط أخرى من التعبير عن سلطة الشعب والجماهير. فالخلاف حول طريقة المشاركة في السلطة لايخرج الأنظمة السياسية الحديثة على اختلافها عن كونها أنظمة سلطة

الشعوب وحقوقها في مقابل ما عرفته العصور الوسطى الأوروبية وغير الأوروبية من النظر إلى الدولة على أنها تعبير عن الإرادة الالهية، وبالتالي إلى خروج المحكومين من دائرة النظام السياسي بمعنى بقائهم على هامشه.

وتتصف الأنظمة لسياسية الحديثة إضافة إلى ماسبق بالوعي السياسي المتزايد للمواطنين واعتناقهم لنظريات وفلسفات سياسية مستجدة. إلا أن الصفة الأهم لهذه الأنظمة أنها أنظمة تلعب فيها الشخصية القومية والهوية القومية دورا كبيرا، ولاسيما في مراحل التحديث الأولى كما حدث في أوروبا إبان نهضتها الأولى، وكما يحدث اليوم في العالم الثالث الذي تسعى شعوبه إلى التحديث حيث أصبحت القومية العامل الأول والقوة الدافعة الأساسية باتجاه التحديث.

يبقى أن النظام السياسي الحديث يستطيع أن يستوعب التغييرات المستجدة المترتبة على طبيعة عالمنا الحديث، فكلما ازداد هذا النظام حداثة ازدادت قدرته على استيعاب هذه التغيرات دون أن يؤدي ذلك إلى قيام تناقضات وازمات تعطل مسيرة المجتمع.

٤ ـ وآخر مانعرض له من معالم المجتمعات الحديثة هو نمط العلاقات الاجتماعية في هذه المجتمعات، فمن المعروف أن روابط القربى والنسب والدم تكتسب أهمية بالغة في جميع المجتمعات البدائية والمجتمعات غير المحدثة، أما في المجتمعات الحديثة فإن هذه الروابط تكتسي أهمية أقل حيث يحل الولاء للمجتمع وللمؤسسات فيه محل الولاء للقبيلة والبطن والفخذ والأسرة. وهذا لا يعني أن هذه الروابط تموت وتندثر نهائيا، إلا أن أهميتها تقل إلى حد بعيد. ففي ظل الأفكار السياسية والولاء لهذه الأفكار، وفي ظل روابط العمل والصداقة، تخف أهمية روابط النسب إلى حد بعيد، ولايصمد من هذه الروابط إلا الأسرة بمعناها الضيق، وعلاقات القربى والنسب التي تدعمها ولاءات سياسية، أو فكرية، أو مصالح مشتركة، أو روابط عمل، أو مايشبه ذلك كالصداقة وغيرها. والمهم في هذا أن المجتمعات الحديثة تسعى أن تكون مجتمعات معلمنة ومعقلنة على كافة المستويات الاجتماعية بما فيها من قيم وعادات وأدوار ومؤسسات

وتجمعات. وإذا كانت بعض المجتمعات الحديثة قد فشلت في هذا المضمار بدرجة أو بأخرى فإن هذا لايجعل الأنظمة العشائرية والقبلية أفضل من الأنظمة الاجتماعية الحديثة. وعلى كل حال فإن الأنظمة الاجتماعية والروابط التقليدية لاتستطيع الاستمرار في الازدهار فى ظل الحياة العصرية والحديثة.

يحتاج المجتمع الحديث إلى علاقات اجتماعية ، وإلى تراكيب اجتماعية تستطيع أن تستوعب التغيير الدائم والمستجدات المتواصلة، وتواجهها دون صعوبات تذكر ودون تعرض المجتمع ومؤسساته للاضطراب والتزعزع. وهذا بدوره يستلزم ظهور نمط من المواطن يتمتع بشخصية مستقلة يسيرها العقل قبل العاطفة، وقد أشرنا قبلا إلى الكثير من معالم هذه الشخصية عند حديثنا عن خصائص الإنسان العصري، ولانحتاج هنا إلى مزيد من التفصيل.

ورغم الاتفاق على أن الدخول في العصور الحديثة قد أدى إلى التقليل من دور روابط القربى والنسب والدم، وأن الحداثة تستلزم نمطا جديدا من المواطن الذي يتمتع بشخصية مستقلة تستطيع أن تتحمل وتستوعب التغييرات، فإن نمط العلاقات الاجتماعية المستجدة ونمط شخصية المواطن المستقلة تتحدد على ضوء ثقافة المجتمع وتراثه ودرجة التصنيع فيه. فلاشك في أن طبيعة العلاقات ونمط شخصية المواطن تختلفان في المجتمع الرأسمالي عنهما في المجتمع غير الرأسمالي، بل إنهما تختلفان داخل المجتمع الرأسمالي باختلاف الظروف البيئية والاقتصادية والسياسية، كما أنهما تختلفان داخل المجتمع غير الرأسمالي بتأثير عوامل مشابهة.

ثالثا ـ تشكيل العقل الحديث

دخلت أوروبا في العصور الحديثة في مطلع القرن الخامس عشر كما ذكرنا، واستطاعت خلال ثلاثة قرون من الزمان أن تحقق الكثير من الانجازات أدى تراكمها إلى تحقيق قفزة ثقافية اختلفت نوعيا عن كل ماسبقها في نتائجها وأبعادها. ويمكن القول إنه مع مطلع القرن الثامن عشر كانت ثقافة عصر النهضة قد تكاملت وتكامل معها مايمكن تسميته بالفكر الحديث أو العقل الحديث. فمع

مطلع القرن الثامن عشر ظهرت أفكار واعتقادات وآراء شكلت في مجموعها نظرة إنسانية جديدة عن الإنسان ودوره، وعن الكون، وعن علاقة الانسان بالطبيعة والعالم، وغير ذلك كثير. وقد تميزت الأفكار والاعتقادات بتباينها وافتراقها عن أفكار ومعتقدات القرون الوسطى. وإذا كان من الطبيعي أن تكون هذه الأفكار تطويرا لأفكار سابقة إلا أن اختلافها معها وافتراقها عنها بلغ درجة عالية حتى إنه يمكن القول إننا أمام أفكار وآراء ومعتقدات جديدة.

والمثل الساطع الذي يمكن أن نسوقه في توضيحنا لهذه الفكرة هو ماحدث داخل الكنيسة المسيحية. صحيح أن أوروبا كانت مسيحية قبل القرن الخامس عشر وخلال العصور الوسطى، وقد ظلت مسيحية بعد ذلك ولاتزال، على الأقل من حيث كون شعوبها تدين بالمسيحية، إلا أن اختلاف المسيحيين في نظرتهم إلى أنفسهم، وإلى مايحيط بهم، وإلى دورهم في العالم وعلاقتهم به يؤكد لنا أننا أمام رؤيةمسيحية جديدة غير الرؤية المسيحية السابقة، حتى إنه يمكننا القول إننا أمام مسيحية جديدة بكل معنى الكلمة وهذا مايؤكده كرين برينتون الذي يؤرخ لفكر عصر النهضة عندما يقول: إنه يبدو «أن أكثر ماكان يؤمن به رجال أوروبا ونساؤها خلال القرن الثامن عشر وما تلاه كان متناقضا مع بعض جوانب هامة جدا من العقيدة المسيحية التقليدية، أو إن شئت فقل إن عصر التنوير غير جذريا العقيدة المسيحية.»(١)

ولاشك في أن الثورة البروتستانتية قد لعبت الدور الأول في تجديد المسيحية وتغييرها، حتى بالنسبة للمسيحيين غير البروتستانت والكاثوليك الذين يشكلون الأكثرية الساحقة من المسيحيين الأوروبيين. ولعل من أهم مايمكن ملاحظته من وجوه التجديد في رؤية الكنيسة المسيحية موقف التسامح إزاء الاختلافات الدينية

---

(١) قارن ـ كرين برينتون تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي حطاب، سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٢، أكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٨٤، ص ١٥٩. وقد ترجم الكتاب قبل ذلك وصدر تحت عنوان منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد، دار الفن الحديث، دمشق (د ت.)

الذي تكرس في القرن الثامن وما بعده، والقبول بفصل الـدين عن الدولـة، والتخفيف من تدخل الكنيسة في شؤون أفراد رعيتها الحياتية واليومية. وإذا كان هذا كله يبدو لنا أمرا مألوفا يختلف اختلافا جذريا مع ماكان عليه الأمر قبل قرون قليلة من الزمان لاتزيد على الخمسة، فقد كان الناس في القرون الوسطى يؤمنون أن الأمور اللاهوتية والميتافيزيقية «قد حسمها الوحي، وأنها حقائق كاملة بحكم أنها صادرة عن الوحي». وقد أباح الناس لأنفسهم بتأييد من الكنيسة اضطهاد المختلفين معها حتى في الأمور العلمية، وفي حقائق الحياة التى لاتتفق مع الفطرة الدينية المتشددة.(١)

والواقع أن ما يسمى بالثورة البروتستانتية هي في نظر برينتون إحدى حركات ثلاث صنعت التحول الفكري الذي ظهرت بوادره مع بداية القرن الثامن عشر. أمـا الحركتـان الأخريـان فهما الحـركة الإنسـانية والحـركة العقـلانية. وتتميـز البروتستانتية في نظر برينتون في «أنها كانت عاملا مذيباً وأقوى العوامل المذيبة في زمانها ـ لسلطة العصور الوسطى «فمن جهـة قوضت الحـركة البـروتستانتيـة» الوحدة الشكلية «الوحدة الشكلية» التي عرفتها المسيحية الغربية لأكثر من ألف وخمسماية سنة، ومن جهة أخرى مهدت الطريق لظهور الشك الديني عندما وضعت أمام العقل الأوروبي عدداً من «المعتقدات المتناقضة والمتعارضة» كل منها يـزعم أنه يمثـل وجهة النـظر الصحيحة. إلا أن العنصـر الأهم الذي قـدمته البروتستانتية للفكر الأوروبي فهو تدعيم وتعزيز المشاعر الوطنيةوالقـومية عنـد الشعوب الأوروبية عبر تأسيس كنائس وطنية تسمح لهذه الشعوب بمباشرة شؤون حياتها اليومية مستقلة عن غيرها.

أما الحركة الإنسانيةوهي المكون الثاني من مكونـات العقل الحـديث، فقد اشتركت مع البروتستانتية في ثورتها على الهيمنة الفكرية للعصور الوسطى، وقد مثلها فنانون وفلاسفة وعلماء وسياسيون مثل الشاعر الإنكليزي الشهير ملتون، واللورد بايرون، وجان بودان Bodin وغيرهم. وقداسهمت الحركة الإنسانية كما

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٠ وما بعدها.

أسهمت البروتستانتية في تقويض المعايير والقيم والأفكار والمعتقدات التي كانت سائدة في العصور الوسطى، وأسهم رجالها في طرح قيم وأفكار ومعتقدات جديدة تميزت بالتمرد على السلطة الدينية، وعلى الفكر التقليدي والتبشير بالحداثة، ولاسيما بفكرة أن الناس يصنعون حقائقهم بأنفسهم، ويصنعون معاييرهم وقيمهم بأنفسهم، فالحقائق والقيم لاتكتشف اكتشافا لأنها لاتقوم بأنفسها خارج الإنسان.

إلا أن النزعة الإنسانية التي كانت قوةمن قوى التغيير انطوت على تناقضات وحملت من المواقف مايتعارض مع الدور الذي لعبته، فقد كان أصحابها من المثقفين المثاليين، وكان أكثرهم من الأرستقراطيين مؤيدي الملكية، وكانوا يميلون إلى معاداة الديمقراطية بما يحملونه من تطلعات نخبوية صريحة وواضحة.

والحركة العقلانية هي المكون الثالث من مكونات الفكر الحديث، وقد اثبتت هذ الحركة أنها أكثر فاعلية وأشد تأثيرا في صياغة هذا الفكر وتكوينه، فإذا كانت البروتستانتية، والإنسانية قد أسهمتا مساهمة فعالة في تقويض أركان العصور الوسطى فإن العقلانية هي التي قدمت البديل، وقد تم للعقلانية ذلك بفضل تعاون الفلسفة مع العلوم الطبيعية واعتمادها عليها. فقد أفاد الفلاسفة العقليون من نجاح نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) في رسم مخطط متكامل للكون يمكن اختباره علميا لينطلقوا في صياغة كوزمولوجيا جديدة مخالفة لما قدمه فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى مثل القديس أوغسطين، والقديس توما الاكويني وغيرهما.

بعد التطورات العلمية والصناعية التي بدأت بالتراكم منذ بداية القرن الخامس عشر، وبعد ظهور معتقدات وأفكار جديدة عبرت عنها مناهج بحث وأدوات معرفية جديدة، واجه الفكر الوسيط أزمات كشفت عن تخلف بنيته ومناهجه وأدواته المعرفية. وقد وجه رواد الفكر الجديد من الفلاسفة العقلانيين جهودهم في اتجاهين، نقدي وبنائي:

- الأول اهتم بنقد مكونات الفكر الوسيط وأدواته المعرفية التي كانت تستبعد

الحس والعقل، وخصوصا العقل بمعناه الجديد، وتعتمد منهجية تبني الموروث الفكري القديم المثالي والإيماني. وقد ادى هذا إلى اظهار تهافت المرتكزات الفكرية اللاهوتية والنظرية العلمية المرتبطة بها.

- والثاني سعى إلى تشكيل منهج بديل يرفد نقد الفكر الوسيط من جهة، ويرسم معالم نظرية معرفية جديدة.

ويمكن اعتبار جهود مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) التي أسهمت في تقويض هيمنة الكنيسة على الفكر السياسي والأخلاقي في عداد نقد الفكر الوسيط وأدواته المعرفية(١). اما موتناني Montaigne (١٥٣٢ - ١٥٩٢) الذي اعتمد منهجية الشك ونادى بنسبية المعرفة، فقد كانت جهوده أكثر فاعلية في ميدان النقد، وقد استطاعت هذه الجهود أن تتجاوز نطاق النقد إلى مساهمة أوسع من اسهام مكيافيلي في بناء نظرية معرفية جديدة.

ولما كانت نظرية بطليموس الفلكية وأسسها الفلسفية المرتكزة على مجمل نظرية أرسطو الكوزمولوجية والفلسفية من أهم معالم الفكر الوسيط، حيث تمكنت هذه النظرية من مسايرة مقولات اللاهوت في العصر الوسيط. وقد قامت دوائر اللاهوت بدعمها والترويج لها(٢)، فقد جاءت جهود كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) استمرارا لجهود السابقين، وكان لتقويضه نظرية بطليموس القائلة بأن الأرض مركز العالم، وتأكيده أن الأرض تدور كسائر الكواكب الأخرى موقع كبير في الفكر الجديد حتى أنه يمكن وصف ما أحدثته جهود كوبرنيكوس بأنه ثورة، وقد أطلق عليها البعض بالفعل الثورة الكوبرنيكية. فقد جاءت جهود كبلر Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) بعد ذلك وأبحاث غاليليو من بعد لتعمق المرتكزات الفكرية التي قامت عليها نظرية كوبرنيكوس.

---

(١) يمكن الوقوف على دور ميكيافيلي العلماني من خلال القسم الثاني من كتاب كافين رايلي: الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع حجازي، سلسلة عالم المعرفة رقم ٩٧ يناير، كانون الثاني، ١٩٨٦، ص ٨ وما بعدها

(٢) Bertrand Russel : History of Western Philosophy (London, 1965) P. 512.

اما الفيلسوف الانكليزي فرنسيس بيكون F. Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) فقد أفاد من جهة معاصريه في وضع منهجية عامة جديدة كانت بمثابة قاعدة مهمة من القواعد التي قام عليها الفكر الحديث. وقد صاغ بيكون منهجه الجديد في كتابه Novum Organun الأرغانون الجديد أو الأداة الجديدة، وهو كتاب يكرس منهج الاستقراء، واعتماد الوقائع المادية والحسية طريقا لتحصيل المعرفة. والخطوة الأساسية في هذا المنهج هي ملاحظة الوقائع الجزئية والصعود تدريجاً إلى الكليات، إلى الروابط والعلاقات المشتركة بين هذه الوقائع الجزئية. فالكشف عن هذه العلاقات والروابط المشتركة لايكون بالاستدلال كما ظن أرسطو والآخذون بمنطقه، بل بالاستقراء والاستعانة بالتجربة والتدرج من الجزئيات إلى صياغة المبدأ الكلي أو القانون العلمي.

حصد القرن الثامن عشر كل جهود العقلانيين على امتداد القرون الثلاثة السابقة، وقد تكرس الحصاد في مواقف فكرية أصبحت بمثابة الاعتقادات الشائعة، أو المسلمات التي لاتقبل الكثير من الجدل مثل فكرة التقدم وقدرة الإنسان على بلوغ حالات من الكمال لم يكن أهل القرون الوسطى يستطيعون تصور تيسرها للإنسان إلا بعد الموت. ويمكن اعتبار هذه الاعتقادات أهم معالم عصر التنوير. صحيح أن من الصعب تلخيص عصر كامل في فكرة واحدة، أو في مجموعة أفكار تختصرها جمل وعبارات موجزة، إلا أن هذه النظرة الجديدة إلى النوع البشري والإيمان بقدرته على بلوغ ضروب من التطور والكمال، وتحقيق أشكال من الرفاهية والسعادة، لم يكن متيسراً للفكر البشري أن يتصورها ضمن أطره السابقة، فكان دائما يحيلها إلى الحياة الأخرى بعد الموت.

وقد تجسد هذا كله في مواقف وآراء الفلاسفة ورجال الفكر عموما. ويمكن اعتبار اسحق نيوتن، وجون لوك أفضل من يمثل هذا الموقف الجديد. فقد قدم نيوتن كوزمولوجيا متكاملة، كما أشرنا، وضعت أمام معاصريه تفسيرات مقنعة لظواهر الطبيعة يسرت فهم هذه الظواهر، وألقت أضواء جديدة على الإنسان وسلوكه ومكانه في الكون. أما الفيلسوف الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ -

١٧٠٤) فقد كرست نظريته في المعرفة الاتجاه التجريبي مؤكدة أن التجربة الحسية هي المصدر الوحيد لمعرفتنا. وفي مجال السياسة والاقتصاد فسّر لوك انتقال الدول والشرائع من الفطرية إلى البدائية إلى المدنية، عارضا لأشكال الحكم المختلفة، رافضا لضروب الحكم المطلق والاستبدادي. وقد جعلت أفكار لوك الفلسفية والسياسية منه رائدا أساسيا من رواد حركة التغيير الاجتماعي في العصر الحديث.

آمن رجال عصر التنوير بالعقل وأكدوا أن العقل هو سبيل الإنسان إلى النفاذ إلى الحقيقة أي إلى العلاقات والروابط أو القوانين التي تحكم الاشياء، فالعلاقات أو القوانين ضرورية لتنظيم فهمنا للطبيعة وتنظيم أفعالنا وفقا لهذا الفهم. فنحن نرى أن الشمس تشرق وتغيب كما كان يفعل الإنسان منذ وجد فوق هذه الأرض، ولكن عندما ندرك علاقة شروقها وغيابها بعلاقتها بالأرض ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، عندئذ نستبعد خرافات العصور القديمة وتزول الغشاوة عن عيوننا، ونتحرر من الإحالة دائما إلى قوى خارقة خارج الطبيعة. «وبالمثل فإننا إذا ماستعنا بالعقل في العلاقات البشرية فإنه سيوضح لنا أن الملوك ليسوا آباء شعوبهم»(١) وليس لهم أي حق إلهي في امتلاك الشعوب والأوطان، وقس على ذلك.

والواقع أن الجيل الذي قرأ نيوتن ولوك هو الجيل الذي استطاع أن يفيد من أفكارهما ليعقلن عالمه، بل يمكن القول إن هذا الجيل والأجيال التالية أفادت من أفكار الرجلين اكثر مما أفادت نفسيهما منها. فقد نشرت هذه الأجيال أفكار القرن السابع عشر وأفادت منها، وهو القرن الذي أطلق عليه وايتهد «قرن العباقرة» وقد كان أكثر هؤلاء من الفرنسيين. فمع أن إنكلترا حظيت بنصيب لا بأس به من هؤلاء المبدعين، إلا أن حصة الأسد كانت من نصيب الفرنسيين، الذين كان من

(١) كرين برنتون: تشكيل العقل الحديث، مرجع مذكور سابقا، ص ١٧١ قارن ايضاً بأحمد صدقي الدجاني «الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي» في التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٣٠٦.

اشهر مبدعيهم فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨)، ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥). أما الأول فقد كان من أئمة العقلانيين وقد جمع في مؤلفاته التي كادت تبلغ المائة حصاد الأفكار التي ارتكز عليها عصر التنوير الأوروبي. وأما الثاني فأشهر مؤلفاته كتابه روح القوانين (١٧٤٨) وهو دراسة علمية تفسر نشأة الدولة، وطبيعة القوانين، وترفض فكرة الحق الالهي للملوك.

وقد تلا هؤلاء جيل من الراديكاليين، كان منهم آدم سميث صاحب كتاب ثروة الأمم، وجان جاك روسو الذي جاهد ضد البيئة الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة، وحاول التجديد من خلال المواءمة بينها وبين الطبيعة، وقد تميزت مواقفه بنزعة رومانسية جمعت بينها وبين العقلانية، وقد استطاع هذا أن يستجمع جهوده لينطلق لتحطيم النظم القديمة نهائياً عبر الثورتين الفرنسية والأمريكية، وعبر التغييرات التي استحدثت في بريطانيا وكانت بمثابة ثورة، إلا أنها ثورة دون دماء. وقد أرسى هذا كله «قواعد نظرة جديدة متطورة إلى الكون سادت خلال القرن التاسع عشر»(١).

ومن الطبيعي ألا يكون رجال عصر التنوير متفقين على رأي واحد وموقف واحد وإن كان يجمعهم الإيمان بالتقدم وبقدرة الإنسان على تحقيق هذا التقدم في العالم الأرضي. وكان أهم ما فرقهم الاختلاف بشأن السلطة السياسية، فقد رأى البعض ترك أمور الحكم لقلة من الحكام والإداريين، فعلى الرغم من إيمان اصحاب هذا الاتجاه بالديموقراطية والحرية، إلا أن إيمانهم هذا لم يكن إلا من قبيل الكلام المعسول، وقد انتهى بهم الأمر إلى تأييد فكرة «المستبد المستنير»(٢) وكانوا بذلك يعبرون عن استمرار تأثرهم بمواقف تنتمي إلى عهود سابقة. وفي مقابل هؤلاء كان هناك دعاة الديموقراطية المؤمنون بها وبحكم الأغلبية، وكان هذا الموقف ينبع من رؤية إنسانية أعمق، ترى أن المواطن مهما كانت درجته من

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢) يمكن الوقوف على شرح مسهب لفكرة «المستبد المستنير» في كتاب ف. فولمين. فلسفة الانوار، ترجمة هنريت عبودي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.

الثقافة، ومهما كان دوره في المجتمع، فهو إنسان سليم وعاقل وطبيعي يمثل النوع البشري. وقد تطرف بعض هؤلاء إلى رفض كل ضرب من ضروب الحكومة، وطالبوا بالغاء الحكومات والاستعاضة عنها بفطرة الناس وسلامة حسهم وحكمتهم الطبيعية.

وعندما أطل القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي حدث فيه الاحتكاك بين الفكر العربي والفكر الغربي، كان الفكر الأوروبي قد خطا خطوات كبيرة إلى الأمام على كافة الجبهات. كانت أولى هذه الجبهات تختص بالمنهج، فقد تغيرت الأدوات المعرفية تغييرا طال الأسس والجذور كما رأينا، فقد استطاع الفكر الغربي أن يستبدل القياس الأرسطي الذي كتبت له السيطرة في المرحلتين القديمة والوسيطة بمنهج علمي يعتمد الحس أداة للمعرفة، ولاينطلق من مقدمات يفترض فيها الصدق، بل من مقدمات ثبت صدقها ويقينها فعلاً بالحس والتجربة. وقد استخدم الإنسان أجهزة وأدوات جعلها امتدادات لحواسه ومداركه، وقد أخذت هذه الأجهزة والأدوات بالتطور والتقدم حتى إذا ما انتصف القرن التاسع عشر وتطورت التكنولوجيا بشكل واسع حتى باتت هي سمة العصر، وجدنا المنهج العلمي الجديد يحقق قفزات مدهشة ويضع الإنسان أمام معارف ذات أدوات متجددة ومتطورة. وهذا ما يوضحه زكي نجيب محمود في كتابه هموم المثقفين حيث يرى أن «الانتقال في منهج العلوم، من مشاهدات العين العارية إلى الأجهزة، قد أحدث في محيط العالم وفي دنيا الحياة العلمية آثارا بعيدة الآمال إلى حد يكاد يسبق خيال الإنسان، ويكفي هنا أن نذكر نقطة واحدة، وهي أن عصرنا بأجهزته العلمية هذه، قد استطاع أن يلم بالكون من طرفيه: طرفه البالغ في الصغر (وأعني الذرة والخلية)، وطرفه البالغ في الكبر (وأعني أفلاك السماء)، وأما قبل عصرنا فلا الذرة ولا الخلية عرفتا بمثل مانعرفه اليوم عنهما، ولا جرؤ خيال الإنسان أن يطمع في الوصول إلى القمر وغير القمر من كواكب المجموعة الشمسية»[1].

---

(١) زكي نجيب محمود: هموم المثقفين، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١، ص ٣١.

وكانت الجبهة الثانية التي حقق فيها الفكر الغربي انتصارات واسعة هي جبهة تكوين رؤية جديدة للعالم والكون وأشيائهما، بما في ذلك الإنسان نفسه ككائن في هذا العالم. وقد تميزت هذه الرؤية الكوزمولوجية الجديدة بالإيمان بقدرة الإنسان على التقدم والرقي، وتوسيع دوره الكوني، وقد حرر هذا كله الإنسان من الإيمان بالخوارق وبالمعجزات وحرر إيمانه بالغيبيات من الترهات، وأطلق العنان أمامه ليحلم بما لم يكن يجرؤ على الحلم به قبلاً، وليحقق الكثير مما كان يدرك عادة لحياة أخروية سعيدة.

وفي ميدان العلوم نفسها شهد القرن التاسع عشر تطورات في مضامين العلوم، فقد فعل المنهج فعله وأسهمت كوزمولوجيا عصر النهضة في التمهيد لتجديد الكوزمولوجيا نفسها. وقد أمكن ذلك من خلال تطورات علمية تكرست في نظريات ظهرت بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي أربع رئيسة: نظرية داروين في علم الحياة، ونظرية ماركس في ميدان الاقتصاد والاجتماع، ونظرية فرويد في نطاق النفس الإنسانية، ونظرية آينشتاين في الفيزياء والطبيعيات عموما. وقد أصبحت هذه النظريات المحاور التي تدور عليها الحياة الفكرية على مدى قرن كامل من الزمان. ورغم مايبدو على هذه النظريات من الاختلاف على الأقل في ميادين عملها، «إلا أن النظرة الممعنة الفاحصة تستطيع أن تنفذ خلالها جميعا إلى أساس مشترك يربطها بعضها ببعض في مركب ثقافي واحد، بحيث يجوز القول عنه بأنه المركب الثقافي الذي يمثل عصرنا الحاضر، وهذا الأساس هو تذويب الفواصل الحادة التي كانت تفصل الأنواع الطبيعية للكائنات بالنسبة لنظرية داروين وتفصل العقل عن اللاعقل، أو تفصل الإنسان عن الحيوان في دوافع السلوك، بالنسبة لنظرية فرويد، وتفصل بين طبقات المجتمع الواحد، بالنسبة لنظرية ماركس، ثم بعد أن كانت البشرية تنظر إلى الحقائق العلمية كأنما هي مطلقة اليقين بغير قيد، جاءت نسبية آينشتاين لتجعلها حقائق تتفاوت في درجات احتمالها، فباتت أقل صلابة وقطعية مما كانت عليه»(١).

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢.

والواقع أن نظرية التطور كما صاغها داروين استطاعت أن تحرر الإنسان من تصور الكون وكأنه ساكن ثابت على حال واحدة، وأن تقدم لنا صورة ديناميةلهذا الكون طابعها العام الصيرورة الدائمة. وبغض النظر عن صحة ودقة تفاصيل نظرية داروين في ميدان البيولوجيا أو كـذبها، فـإن أحداً لايستـطيع أن ينكـر اسهامها في صياغة تصور جديد للعالم والكون. أما تأثيرها على العلوم المختلفة كالبيولوجيا والأنثروبولوجيا وغير ذلك فهو بالغ الخطورة، لدرجة أنه يمكن القول إن هذه النظرية قد قلبت بعض العلوم رأساً على عقب

أما نظرية ماركس فيكفي ـ في الأشارة إلى دورها في صياغة الفكر في العصر الحديث ـ أنها جعلت العالم يدور حول محورين رئيسين وكأنه عالم برأسين يختلفان ويتفقـان، إلا انهما في علاقـة جدليـة ستنتهي بصياغـة مركب جـديـد يجمـع بينهماويتجاوزهما. وهذه النظرة للجدل وصراع المتضادات هي أهم ما أسهمت به الماركسية. وقد انعكست هذه النظرة على رؤيتنا لطبيعة الدوافع الكامنة وراء مظاهر التغير في العالم، فالأشياء، صغيرها وكبيرها، أبسطها وأعقدها، تتغير وفق دوافع كامنة في داخلها، وعلى ذلك فتطورها حتمي. فإذا أراد الإنسان أن يتدخل في مسيرة التطور كان عليه أن يتناول البنى، فتغيير المجتمع يأتي وفق تغيير البنى والأطـر التي تحكم ذلك المجتمـع. أما تـأثير المـاركسية في العلوم كـالاقتصـاد والاجتماع فهو واضح لايحتاج إلى تبيان.

وأما نظرية فرويد في اللاشعور، فقد غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى قيمه وما يتحكم في سلوكه من عوامـل ودوافع. وبغض النـظر عن اتفاقنـا أو اختلافنا مع فرويد، فإن تأثير نظريته في علوم النفس والتربية والأخلاق، وفي الفلسفة والفكر عموماً، وفي القوانين والتشريعات والحكم على المنحرفين، بل وفي نظرتنا إلى التاريخ الإنساني وإلى أحداث العالم، أوسع من أن نختصره هنا. وعلى كل حال فإننا قلما نجد حكما تاريخياً، أو تشريعاً قضائياً، أو نصاً أدبياً، أو تحليلاً لموقف إنساني، أو عمل فني لايأخذ بدور اللاشعور، ولايعطي الغـرائز والانفعالات دوراً كدور العقل في سلوك الإنسان ومسيرته. وقد خرج تأثير نظرية

فرويد من أن يكون محصوراً في دائرة العلماء والمثقفين إلى عامة الناس، حيث أصبح الإيمان بفعـل اللاشعـور إلى جانب الشعـور من الحقائق، بـل قل من المسلمات التي لاتقبل النقاش.

وقد جاءت نسبية اينشتاين لتشكل ركيزة رابعة في رؤية الإنسان الكوزمولوجية والفلسفية الحديثة، وأهم مافعلته هذه النظرية أنها أطاحت بالإيمان بوجود حقائق مطلقة ونهائية، مؤكدة نسبية الحقيقة العلمية، ونسبية المعرفة الإنسانية، ونسبية القيم، ونسبية الثقافات، بل ونسبية كل شيء، فالشيء هو كذا وكذا في ظل ظروف معينة وضمن أطر معينة، فإذا تغيرت الظروف والأطر تغير الشيء نفسه. فالنجمان الساطع والخافت لايعنيان أن أحدهما أكثر نوراً من الآخر، بل قد يعني ذلك أن أحدهما أقرب إلينا من الآخر، أوأنه أكبر منه حجما، أو أنه مكون من عناصر مختلفة. . . . وهكذا. فقد استبدلت الاطلاقية بالنسبية وكان لذلك أثره البالغ على كافة العلوم بدءاً من الفيزياء وانتهاء باحكام العقل والقيم الأخلاقية والمشاعر الإنسانية.



الفصل الثاني

في ماهية الثقافة

ما هي الثقافة ؟

[١] مفهوم الثقافة

عندما نطرح السؤال «ما هي الثقافة؟» يفجؤنا تباين الإجابات وتعددها، حتى إنه يمكن احصاء مئات التعريفات لمصطلح الثقافة. وتراوح هذه التعريفات بين القول إن الثقافة هي مجرد اكتساب درجة من العلم والمعرفة، أو إنها تعني الإبداع والابتكار الفني والجمالي، وبين القول إنها السلوك أو نمط التعبير الخاص بمجتمع من المجتمعات، أو إنها تقتصر على الضروب الرفيعة من التفكير النظري والتجريد، مرورا بالعشرات من وجهات النظر والآراء التي تفهم الثقافة من زوايا خاصة ووفق أغراض محددة.

ولأن الثقافة خاصة بالإنسان العاقل ملازمة له، ولأن هذا الأخير يتطور ويتغير بحسب الحقب الزمانية والمراحل التاريخية، بحيث إنه لا يمكننا أن نقول إن الإنسان هو هو في كل العصور: الحجري والبرونزي وعصر انبثاق الحضارات المعروفة ثم العصور الحديثة، فإن الإجابة عن السؤال «ما هي الثقافة؟» تختلف باختلاف الأزمنة التي يطرح فيها السؤال. بل إن السؤال «ما هي الثقافة؟» ليس سؤالاً واحداً كما يبدو، بل هو ينحلّ إلى أسئلة من قبيل: ما هي الثقافة التي بلغها الإنسان في هذه المرحلة من مراحل تطوره؟ وكيف يرى الإنسان هذه الثقافة؟ ولو انه كان بامكاننا طرح سؤال «ماهي الثقافة؟» على أحد البابليين، أو الآشوريين، أو الفراعنة، أو على الفيلسوف اليوناني هرقليطس، أو على ابن خلدون مثلاً، لما

كان بالامكان الحصول على إجابات متشابهة لأن السؤال في حقيقته ليس سؤالاً واحداً كما ألمحنا.

عندما طرح السؤال «ما هي الثقافة؟» في النصف الثاني من القرن الماضي، وقبل أكثر من مائة سنة، كانت أشهر الإجابات وأكثرها تكاملاً إجابة ادوار ب. تايلور في كتابة **الثقافة البدائية** الصادر سنة ١٨٧١. وقد جاء فيها «الثقافة هي ذلك المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة، والمعتقد، والفن، والأدب، والأخلاق، والقانون، والعرف، والقدرات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع»(١). وقد عاد تايلور إلى تأكيد هذا التعريف في كتابه **الأنثرولوبوجيا** الصادر سنة ١٨٨١، موضحاً أن تعريف الثقافة على هذا الوجه يجعلها خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية. وقد ظل هذا التعريف أشهر التعاريف واكملها وأكثرها ضبطاً، أو قل ظل هو التعريف «الجامع المانع» كما يقول المشتغلون بالمنطق، لأكثر من نصف قرن من الزمان، إلا أن تطور العلوم والحركة العلمية بشكل عام، والعلوم الاجتماعية والانثروبولوجية بشكل خاص، ألقى المزيد من الأضواء على فهم الثقافة، ودفع إلى تعريفات جديدة تعكس التحولات التي طرأت على ثقافة الإنسان وبالتالي على مفهوم الثقافة.

على ضوء الدراسات المستجدة أصبح بمقدورنا أن نأخذ على تعريف تايلور عموميته، وطابعه الوصفي، وإهماله حركية وديناميكية الظاهرة الثقافية، إضافة إلى إهماله العلاقة بين الثقافة والمجتمع البشري الحامل لتلك الثقافة من جهة، والبيئة أو المحيط الخاص بتلك الثقافة من جهة أخرى. وقد حاولت الإجابات الجديدة عن سؤال «ما هي الثقافة؟» أن تتجنب ما يمكن أن يؤخذ على تعريف

---

(١) **E. B. Tylor, Primitive Culture 1871, I.P.I.** انظر جان فريمون «تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية» في مجلة العلاقات الدولية العدد ٢٤ وقد ترجمته مجلة الفكر العربي المعاصر بيروت، العدد ٢٩، ص٨٥، وقارن أيضا مادة «الثقافة الإنسانية» في دائرة المعارف البريطانية.

تايلور. ومن هذا القبيل تعريف ك. رايت Quincy Wright للثقافة على أنها «النمو التراكمي للتقنيات، والعادات، والمعتقدات لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفراده، وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الناشىء عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية . . »(١).

إلا أن تعريف رايت هذا لم يتمكن من التخلص كلية من الطابع الوصفي الذي أخذ على تعريف تايلور، كما أنه لا يتضمن الدور الذي يمكن أن تلعبه الثقافة في توجيه سلوك الإنسان وبالتالي لا يتضمن دور الثقافة في صنع حاضر الإنسان ومستقبله. ويمكن هنا الاستعانة بتعريفات أفضل من هذا التعريف تعني بدور الثقافة ومهماتها، ومن هذا القبيل تعريف مالينوفسكي Malinowsky الذي يؤكد أن الثقافة «هي جهاز فعال ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل، وضع يواكب المشاكل الطموح الخاصة التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذاك، في بيئته وفي سياق تلبيته لحاجاته الأساسية»(٢)، إضافة إلى تعريفات أخرى مثل أن الثقافة «هي الجهد المبذول لتقديم مجموعة متماسكة من الإجابات على المآزق المحيرة التي تواجه المجتمعات البشرية في مجرى حياتها. . . فالثقافة هي المواجهة المتكررة مع تلك القضايا الجذرية والأساسية التي تتم الإجابة عنها عبر مجموعة من الرموز، فتشكل بذلك مركبا كليا متكامل المعنى متماسك الوجود قابلا للحياة»(٣).

وهكذا أخذت تعريفات الثقافة تتطور متماشية مع تطور الحركة العلمية

---

(١) جان فريمون ، مرجع مذكور اعلاه.

(٢) المرجع السابق ، انظر أيضا: معن زيادة «الثقافة ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي» في الفكر المقاوم، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٩٥ وما بعدها

(٣) من هذا القبيل تعريف غوستاف فون غرونبوم Grunebaum في مطلع كتابه عن هوية الإسلام الثقافية حين يقول عن الثقافة إنها «نظام مغلق من الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالكون وبالسلوك الإنساني . » إلخ قارن G. V Grunebaum · L'identite' Culturelle de L'Islam Paris Gallimard, 1973.

والفهم المتجدد للثقافة ودورها. وأخذت تعريفات المؤرخين وعلماء السياسة والاقتصاد والاجتماع تجمع بين الجانب الوصفي والجانب الديناميكي الفاعل للثقافة. فالثقافة ليست مجرد معلومات تقتنى، وليست تراكما للمعرفة فقط، بل هي مواقف حيّة متحركة، فهي تعبر عن الإنسان من جهة، وهي عمل دائم وسعي مستمر لتحقيق إنسانية الإنسان في مجتمعه وبيئته من جهة أخرى.

وقد اهتمت الدراسات الانثروبولوجية بشكل خاص بمحاولة فهم العنصر أو العناصر التي تشتمل عليها الثقافة، والتي تجعلها حيّة متحركة، إلا أنها، وتحت تأثير الدراسات النفسية والنفس ـ اجتماعية، اتجهت إلى اعتبار الثقافة ضربا من السلوك دون أن تكون سلوكا. فقد مالت تعريفات الأنثروبولوجيين إلى اعتبار الثقافة نوعا من «البناء» أو «التركيب» المنطقي، أو أنها أشبه ما تكون «بالأفكار» الموجودة في العقل، أو أنها نمط من «السلوك» المكتسب. فإذا كانت الثقافة هي نمط عيش أي سلوك، دون أن تكون سلوكا بالمعنى الحصري للكلمة، أي دون أن تكون سلوكا بمعنى أنها من موضوعات الدراسات النفسية الضيقة، فإنها تصبح في نظر الآخذين بهذا التوجه «تجريداً للسلوك دون أن تكون هي نفسها سلوكاً». إنها البناء أو التركيب أو التجريد الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء عبر الروابط الاجتماعية، لا عبر الروابط البيولوجية كما هو الحال عند الحيوان. ومن التعريفات التي يمكن إدراجها تحت هذا التوجه تعريف ادوارد هيريو E. HERRIOT الذي نال قسطاً وافراً من الشهرة والقائل «إن الثقافة هي ما يبقى في ذاكرتنا عندما ننسى كل شيء»(١).

حظي هذا التوجه بنصيب من الذيوع والشهرة، رغم وجود مآخذ متعددة يمكن أن تؤخذ عليه. من هذه المآخذ أنه لا معنى للبناء المنطقي أو الأفكار المجردة

---

(١) ـ قارن بجوزيف شريم: «الثقافة والثقافة المضادة» مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٢٧/ ٢٨، خريف ١٩٨٣، ص ١٧٣. وقارن أيضا بـ محمد عابد الجابري: نقد العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٨.

أو تجريد السلوك إلا عندما يعبر عنها الإنسان سلوكيا بالكلمات أو الأفعال، أو غيرها من الرموز التي يصطنعها الإنسان ويفيد منها. كيف يكون الاحتفال الديني مثلا تجريدا للسلوك وليس سلوكاً؟ وكيف لا يكون العمل الفني عملاً وسلوكاً؟ إلى آخر ما هناك من أمثلة لا حصر لها. ومن هذه المآخذ أيضا أن الدراسات السلوكية خاصّة تؤكد على وجود تقاليد اجتماعية عند بعض الحيوانات غير العاقلة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، دون أن تكون هذه التقاليد نتيجة مباشرة للغريزة أو الطبيعة أو البيولوجيا فلا معنى للقول بأن الثقافة هي ما يتوارثه الأبناء عن الآباء دون أن يكون وراثيا والواقع أن ما هو بيولوجي يدعم ما هو ثقافي وبالعكس، كما يؤكد ب. ف. سكينر أحد كبار السلوكيين حيث يقول: «ينهار التوازن بين التطور البيولوجي والثقافي عند نقطة النقل»(١) والمقصود بالنقل هنا انتقال الممارسات المكتسبة من جيل إلى جيل.

والواقع أن وضع التجريد في مقابل الواقع في قضية الثقافة هو طرح خاطىء، لأن المجرد والواقعي في الثقافة هما وجهان لحقيقة واحدة. فالثقافة هي مجموعة من الممارسات تشتمل على أشياء وأحداث ووقائع وسلوك تحمل جميعاً أبعاداً رمزية، أي ضرباً من ضروب التجريد، دون أن يبعدها هذا التجريد أو الترميز -بمعنى كونها رموزاً- عن أن تكون واقعية وحقيقية. ووفقا لهذا فإن التفرقة بين الواقعي والمجرد، وبين المادي والعقلي تزول لمصلحة هذا المفهوم الأوسع للثقافة.

لقد أراد القائلون بأن الثقافة هي تجريد السلوك تأكيداً على أن الثقافة هي ما يختص به الإنسان دون غيره من الحيوانات، فإذا كان السلوكي مشتركاً بين الإنسان والحيوان، فان الثقافي هو ذلك التجريد الذي لا يستطيعه الحيوان. . من أجل

---

(١) ب. ف. سكينر تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة عبدالقادر يوسف، ضمن سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٢، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٣١ أما العنوان الأصلي للكتاب فهو «ابعد من الحرية والكرامة». B F. Skinner **Beyond Freedom and Dignity**, Bantam / Vintage, New York, 1972.

دعم هذا الموقف فصلوا بين السلوكي والثقافي وميّزوا بينهما، وكادوا، بقولهم إن الثقافة هي تجريد، يجردونها من الواقعية. ولكننا في الواقع نستطيع أن نقول إن الثقافة هي ما يختص به الإنسان. ليس لأن الثقافة ليست سلوكاً، بل لأن سلوك الحيوان لا يرقى إلى أن يشكل ثقافة. أضف إلى ذلك أننا نستطيع أن نميز السلوك عن الثقافة فنجعله موضوعا لعلم النفس دون أن نخرج السلوك من عداد الثقافة، تماماً كما نستطيع أن نميز ما هو لغوي كالألفاظ والقواعد والدلالات فنجعلها موضوعاً للسانيات دون أن نخرجها من دائرة الثقافة، وقس على ذلك.

يجب أن يضطرنا تأكيدنا على أن الثقافة هي خاصية إنسانية إلى إخراج ما يشترك فيه الإنسان مع غيره من الكائنات، والكائنات الحية والحيوان بشكل خاص، من عداد الثقافة. فرغم انهيار التفرقة بين البيولوجي والثقافي، ، ورغم الغاء الحواجز بين المادي والعقلي، فإن الثقافة كانت ومازالت وستبقى -كما تشير كل الدلالات- ظاهرة إنسانية صرفة. وما يجعلها كذلك هو قدرة موجودة عند الإنسان وحده، وهي قدرته على الترميز Symbolling أي التعبير عن أفكار ومعانٍ وعلاقات وغيرها عبر الرموز.

[٢] الثقافة هي اصطناع الرموز واستخدامها :

الثقافة هي التي تميز الإنسان عن غيره من الحيوان، وتاريخ الإنسان الثقافي -وهو تاريخه الحضاري- يعود إلى الوراء مئات الآلاف من السنين، التي قضاها الإنسان مصارعا على كافة الجبهات حتى تمكن من انجاز هذا التميز. ولا يقتصر هذا التميز على النطق أو التفكير أو التعقل كما قال أرسطو، بل على قدرة خاصة لها علاقة مباشرة بالنطق، وهي قدرته على اصطناع الرموز واعطائها من المعاني، وتحميلها من المفاهيم والأفكار ما ليس فيها. ولأن الثقافة عامة هي اصطناع الرموز واستخدامها، ولأن ثقافة شعب من الشعوب تفترق عن غيرها بالرموز الخاصة بتلك الثقافة، فقد أصبحت هذه القدرة الخاصة عاملاً ملازماً لمفهوم الثقافة ومعناها. فإذا كان كل ما يشكل جزءا من الثقافة يدخل في عداد الرموز،

يستوي في ذلك الكلمات والعبارات والعلاقات وغيرها، فإنه من الطبيعي أن يحتل الترميز، بمعنى اصطناع الرموز، دوراً أساسياً في فهم ماهية الثقافة وتحديدها.

لا نعرف الكثير عن الطبيعة العضوية، العصبية- الدماغية، لقدرة الإنسان على اصطناع الرموز، وقد تكشف العلوم الطبية طبيعة هذه الظاهرة فتمدنا بفهم أدق وأوسع لها، إلاّ أن المعنيين بهذه الأمور يؤكدون أن مركزها هو مقدمة الدماغ التي هي المركز الرئيس أو المحوري للجهاز العصبي بكامله بما فيه الدماغ. وإذا كانت أكثر الكائنات الحيّة تمتلك أجهزة عصبية، في حين أن الحيوانات العليا تمتلك دماغا شبيها بدماغ الإنسان، فإن الدماغ الإنساني يتميز بضخامته النسبية. وبسبب هذا الدماغ تميّز الإنسان بالنطق أو التفكير أو العقل، فقال أرسطو في تعريفه «الإنسان حيوان ناطق». وظل هذا التعريف متداولاً منذ أيام أرسطو حتى أيامنا هذه.

تعتبر القدرة على اصطناع الرموز واستخدامها مرحلة متقدمة من مراحل النطق أو التفكير، أو بتعبير أدق من مراحل العقل الإنساني، ولفهم هذه المرحلة نعرض بإيجاز شديد لما يمكن اعتباره مراحل تأتي قبل هذه المرحلة. ونمثل لذلك بمراحل الإدراك والتعبير عند الطفل، وهي المراحل عينها التي مرت بها ثقافات الإنسان قبل أن تبلغ مرحلتها الراهنة.

- يبدأ الطفل أولاً بمرحلة الأفعال المنعكسة والاستجابات العضوية وردود الأفعال الغريزية، مثل استجابة البؤبؤ أو إنسان العين للضوء القوي، وما يشبه ذلك من الأفعال. وتتصف هذه المرحلة بأن أفعالها قهرية جبرية، أو على الأقل غير قابلة للتعديل والتكيف إلا في حدود ضيقة جدا. ومراكز الأفعال المنعكسة توجد في النخاع الشوكي والنوى الدماغية الموجودة تحت اللّحاء.(١)

---

(١) يمكن الاطلاع على طبيعة الأفعال المنعكسة والأفعال الغريزية والاستجابات الآلية عموما في كتاب مثل: مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ط٣، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٥٧، ص٧٨ ومابعدها

ـ ثم يدخل الطفل بعد ذلك في مرحلة أعلى وهي مرحلة الانعكاسات الشرطية، فالطفل يستجيب للشكل العام لأمه، وهذه استجابة منعكسة شرطية من النوع الذي أجراه بافلوف عالم النفس الروسي عندما كان يقرع الجرس ويقدم الطعام للكلب، وبعد ذلك أصبح الكلب يستجيب لسماع الجرس فيسيل لعابه حتى دون وجود الطعام أمامه. وهذا النوع من الأفعال المنعكسة الشرطية يشترك مع الفعل المنعكس في أنه قهري اضطراري، إلا أنه يختلف في أن وظيفته هي التوقع والاستعداد للقيام بالعمل. وقد اختلف علماء النفس في تقويم هذا الضرب من الأفعال، فبعضهم ـ مثل واطسن مؤسس المدرسة السلوكية ـ اعتبر الفعل المنعكس سلوكاً ميكانيكياً محضاً، وبعضهم رفض اعتباره آلياً محضا ونظر إليه على أنه بداية الاستجابة للعلامات والرموز باعتبار أنه استجابة لا للمنبه الأصلي ولكن لما ينوب عنه. . ومهما يكن من أمر فهذه المرحلة هي أعلى من سابقتها لأنها تتضمن تعلماً وإن كان من النوع المبسط.(١)

ـ وبعد ذلك تأتي مرحلة التوصل عن طريق المحاولة والخطأ إلى التخلي عن الحركات الزائدة، أو إلى استخدام بعض الأدوات والوسائط في الوصول إلى غاية معينة، كأن يستعين الطفل بالصراخ لجلب انتباه ذويه ولإشباع جوعه، أو كأن يستعين القرد مثلا بالعصا للوصول إلى قطف من الموز معلق في مكان عال لا يستطيع الوصول إليه بنفسه. وقد أجرى علماء النفس تجارب متعددة في هذا الميدان، فتبين لهم أن الكائن موضوع التجربة ـ إنسانًا كان أم حيواناً ـ ينتقل من الحركات العشوائيةإلى الحركات المنظمة والمقننة. ومن هذا القبيل تجربة القرد التي أشرنا إليها وتجربة وضع الفأر الأبيض في المتاهة، فقد تعلم الفأر بعد محاولات متعددة الاستجابة لبعض العلامات الموجودة في الدهاليز والوصول إلى نهاية المتاهة في وقت قصير. وهنا أيضاً يختلف علماء النفس، فبعضهم يرى أن الفأر مثلاً يعتمد في تعلم اجتياز المتاهة على الاحساسات العضلية بطريقة آلية، في حين أن بعضهم الآخر يرى أن الفأر يستجيب لبعض العلامات التي يميزها في الدهاليز

(١) قارن بالمرجع السابق ص١٩٢ وما بعدها

فيغير اتجاهه تبعا للدلالات، كما يستجيب سائق السيارة للعلامات الموضوعة على مفارق الطرق.[1]

مهما قيل عن المراحل السابقة فإنها لا ترقى إلى مرحلة اصطناع الرموز واستخدامها، حيث يتعلم الطفل الاستجابة لكلمة ما، أو لحركة معينة، ثم يتعلم استخدام شبكة من الرموز يكتسبها من البيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة به صحيح أن بعض علماء النفس قد اعتبر الفعل المنعكس الشرطي استجابة لرمز يحل محل المنبه الطبيعي، وأن تعلم الفأر سلوك الطريق الصحيح للوصول إلى نهاية المتاهة هو استجابة لدلالات واشارات، وبالتالي لرموز معينة، إلا أن أحداً من هؤلاء لا يذهب إلى القول بأن الكائنات الحية غير الإنسان قادرة على اصطناع الرموز واستخدامها على نطاق واسع، أو على درجة عالية بحيث تكوّن هذه الرموز ثقافة معينة أو ما يشبه الثقافة. ومهما قيل عن أسباب ذلك ـ سواء أكانت الضخامة النسبية لدماغ الانسان، ووجود مراكز الرموز في مقدمة الدماغ، في حين أن مراكز أفعال المراحل السابقة توجد في النخاع الشوكي ولحاء الدماغ ومؤخرته، أم غير هذا من الأسباب والعوامل ـ فإن الترميز بمعنى اصطناع الرموز واستخدامها هو خاصية إنسانية لا يشاركه فيها غيره. ومن هنا كانت الثقافة، وهي هذه القدرة الخاصة على الترميز، خاصية إنسانية أيضاً.

وكما يَعْبر الطفل من مرحلة إلى أخرى، كذلك عبرت الإنسانية من مرحلة إلى مرحلة. والفرق هو **أن مراحل تطور الطفل سريعة متلاحقة**، أما مراحل تطور الإنسانية فكانت بطيئة تمتد الواحدة منها إلى آلاف بل مئات الآلاف من السنين، إذا لم نقل أكثر من ذلك. يضاف إلى ذلك أن الطفل يولد في بيئة اجتماعية ثقافية، وهو يكتسب منذ ولادته تلك الرموز التي صنعتها الإنسانية عبر صراعها الطويل الذي ميزها عن غيرها من الكائنات الحية. واحتمال ألا يكتسب الطفل تلك الرموز ضئيل جدًا، وهو يعود لأحد أمرين أساسيين، إما لأسباب عضوية تتعلق بنمو الجهاز العصبي عامة والدماغ خاصة، وإما لعدم توفر البيئة الاجتماعية

(١) قارن بالمرجع السابق ص١٩٥ وما بعدها.

والثقافية كما يحدث في بعض الحالات القليلة والنادرة. أما اختلاف الثقـافات الاجتماعية فيعود إلى اختلاف الرموز، وقد كانت هذه الاختلافات واسعة في فترات تاريخية سابقة، وهي آخذة في التقلص والضيق بشكل عام، ومع استمرار وجود أمثلة وحالات متطرفة تصل إلى حد تعاكس الرموز تماما، وهو ما يؤدي إلى عدم القدرة على التفاهم في بعض الحالات، وإلى تنافر وصدام قد يصلان إلى حد التقاتل، ومحاولات الافناء المتبادلة، وهو ما سنعود إليه فيما بعد.
المراحل التي تحدثنا عنها في حياة الإنسان الفرد وفي حياة الإنسانية هي مراحل متلاحقة أشبه ما تكون بدرجـات السلم. وقد استغـرقت من الجنس البشري الجهود الهائلة حتى تمكن من العبور من الواحدة إلى الأخرى كما أسلفنا، ولم يكن هذا العبور إلا نتيجة الصدفة البحتة. ولاشك في أن الكثير من الجهود قد ضاع هباء، وأن الجنس البشري قد دخل في مراحل من النكوص والارتداد إلى الوراء نتيجة ظروف بيئية طبيعية لا دخل له فيها. ولكن ومع دخول المرحلة الثالثة، مرحلة السيطرة على المحيط، تعددت أمامه الاختيارات، ومع تراكم التجارب والخبرات أخذ الإنسان يفعل في العالم الخارجي، ويبدأ يفرض نفسه على هـذا العالم، ومع دخوله في المرحلة الرابعة، مرحلة بدء تاريخه الثقافي والحضـاري، انفتحت أمامه أبواب العالم على مصراعيها وأصبح أمام آفاق واسعة ومازال. في هذه المرحلة أعاد الإنسان صياغة المراحل السابقة واضاف إليها وأغناها، ولا سيما العناصر غير الغريزية والفطرية في المرحلتين السابقتين.

بدأ الإنسان برموز بسيطة قد لا تزيد على همهمة أو صوت أو إشارة. ولا شك في أن الكثير من هذه الرموز البدائية كان محلياً وعابراً، وأن الكثير منها كان جهوداً مكررة، وأن الكثير منها قد ضاع، وكان على القبائل والتجمعات البشرية البدائية أن تبدأ من جديد. حتى عندما تكاملت لبعض الشعوب لغاتها، فإن هذه اللغات لم تكن بمأمن من الاندثار والضياع، ولا ندري كم من آلاف اللغات قد ضاع قبل أن يتمكن الإنسان من الدخول في حقبة جديدة ومهمة من حقب صنع ثقافته وهي حقبة تسجيل إشاراته ورموزه الملفوظة خاصة برموز محفورة أو منقوشة أو

مصورة. إلا أن هذه الحقبة حديثة جدا في تاريخ الإنسانية ولا تعود إلى الوراء إلا بضعة آلاف من السنوات فقط، حوالي أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، أي أقل من ستة آلاف سنة، في حين أن التاريخ الثقافي والحضاري للإنسان يعود إلى الوراء أكثر من مليون سنة.

الرموز، سواء أكانت حركية أم لفظية أم غير ذلك، تحمل معاني لا تدركها الحواس وحدها، وكلما تطورت هذه الرموز، وكلما ابتعدت عن الدائرة المباشرة للاحساسات أصبحت عناصر سلوكية ثقافية، الصلاة والصوم، والرابطة الزوجية، وصلات القربى والروابط الوطنية والقومية، وإشارات المرور، وجرس الهاتف وغيرها وغيرها، كلها رموز تحمل من المعاني بقدر ما تضعه فيها ثقافة ما. في بعض الحالات تكفي إشارة صغيرة من يد زعيم القبيلة أو الجماعة لتعني الموت لشخص أو مجموعة أشخاص، وفي بعض الحالات الأخرى تكفي حركة بسيطة من المرجع الديني، أو صاحب السلطة لتثير الجماهير المحتشدة وتحرك فيها من المشاعر والأحاسيس والمعاني ما ليس في تلك الحركة أو الإشارة عادة، وهذا كله وغيره كثير هو من قبيل الرموز التي يختص بها الإنسان وتتكوّن منها ثقافته.

وتدخل اللغة في اطار الرموز، بل إن اللغة هي أهم هذه الرموز وأشهرها حتى إن الإنسان العادي يظن أن اللغة والكلام والنطق شيء واحد، إلا أن النطق بمعنى التفكير قد يكون عبر اشارات ورموز غير ما تعارفنا على تسميته باللغة. ومن هذا القبيل بعض الإشارات التي تستخدمها بعض القبائل البدائية، أو إشارات المرور مثلا، أو إشارات التخاطب مع الصم والبكم وغير ذلك. ومع ذلك تظل اللغة أشهر ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان لأنها تختصر الترميز. وإذا كان أكثر الثدييات يحدث أصواتا، أو يأتي بحركات تعتبر من قبيل الرموز التخاطبية التي تعبر عن الجوع، أو الخوف أو الغضب أو الانفعال بشكل عام، فإن الإنسان هو الوحيد الذي طور هذه الرموز بحيث تعبر عن أفكار مجردة ومتطورة جدا حتى أصبحت عنوان تميّزه لأنها هي والثقافة أمر واحد.

ولا شك في أنه من الأمور الصعبة جدا التكهن بتلك الرموز الأولى التي يمكن

أن يكون الإنسان قد اصطنعها، ونحن لا نكاد نعرف أي شيء عن المراحل الأولى لتطور اللغة لأن ما لا يدون يختفي ولا يعثر له على أثر، ويمكن للإنسان اليوم أن يطلق العنان لمخيلته في تصور ما يمكن أن تكون عليه هذه الرموز، وإن كان من الطبيعي أن تكون مرتبطة بحياة الإنسان البيولوجية. أما الأحافير وبقايا الإنسان من العصور الغابرة التي نجدها في أديم الأرض فلا تفيد مباشرة في هذا النطاق. وكل ما يمكن الجزم به أنه لا ثقافة بدون رموز، كما أنه لا لغة ولا تفكير بدون رموز. وقد أثبت علم النفس الحديث أن التفكير يتم عبر الرموز اللغوية، أو ما يحل محلها من إشارات أو رسوم أو حركات. ومن أقدم التجارب الإنسانية في هذا المجال ما ترويه بعض المدونات القديمة من أنه قيل لأحد الأباطرة إن اللغة العبرية هي اللغة الفطرية والأصيلة لبني الإنسان، وإن الأطفال الذين لا يتيسر لهم تعلم أي لغة يشبون وهم يعرفون العبرية ويتكلمونها دون تعلم. وتقول الرواية إن هذا الإمبراطور أصدر أوامره بأن يعزل عدد من الاطفال، وتجنبًا لأن يتلقوا أي تعليم لأي لغة، جعل اتصالهم مع العالم الخارجي عبر مربيات من الصمّ والبكم، وعندما بلغ الأطفال الأعمار التي تؤهلهم للكلام وجد الامبراطور ومن معه أن اللغة الوحيدة التي يجيدها هؤلاء الأطفال ويتفاهمون عبرها هي لغة الاشارات التي كانت تتخاطب بها المربيات.(١)

بدأت الثقافة مع بدء تعامل الإنسان الأول مع الرموز، وتطورت بتطور هذا التعامل وافترقت بافتراق هذا التعامل، وإذا كان للثقافة أن تتوحد فلن يكون ذلك بدون توحد رموزها. ولا نعني بذلك التخاطب بلغة واحدة فقط، بل وحدة الرموز الدينية والفكرية ورموز الخير والشر، والحق والباطل، والقوة والضعف، والكرامة والحب، والغنى والفقر، والجنس والفن، وغير هذا كثير. وإذا كان هناك اليوم مشكلات عالمية شاملة تدفع الشعوب كافة إلى الاهتمام بمستقبل البشرية بسبب وحدة المخاطر التي تواجه العالم من استنزاف للموارد الطبيعية،

---

(١) قارن برالف لنتون : شجرة الحضارة، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨ ص٣٧

وتهديد للمحيط الحيوي الذي يعيش فيه الإنسان، وتلوث للبيئة، واحتمال وقوع كوارث نووية وما يشبه ذلك مما ينتج عن سباق التسلح، فإن عالمنا مازال يضج باختلاف الرموز وتصادمها وتفاوت مستوياتها. ومع ذلك نقول إن المستقبل يحمل مفاجآت كبرى بسبب التسارع المذهل في تطور العلم والتكنولوجيا، وتطور وسائل الإعلام والاتصال، وانعكاس ذلك على حياة الإنسان وبيئته، أو بتعبير آخر على ثقافته.

عندما نقول إن الإنسان قد تطور لأن ثقافته قد تطورت، أو عندما نقول إن ثقافة الإنسان قد تطورت لأن رموزه قد تطورت، فكأننا نقول نفس الشيء بعبارات مختلفة كذلك سواء قلنا إن اختلاف الرموز يؤدي إلى اختلاف الثقافات، أو قلنا إن اختلاف الثقافات يترتب عليه اختلاف الرموز، فالأمر واحد والنتائج واحدة. فالثقافة لم تبدأ مع بدء تعامل الإنسان مع الرموز فقط، بل إن الثقافة ورموزها صنوان. لا تقتصر الرموز على بعض ما هو ثقافي من أشياء أو أقوال أو أفعال فقط، بل تشمل الرموز كل ما هو ثقافي من قريب أو بعيد. لنأخذ أي مثل كان، وليكن خروج مجتمع ما من التبعية المباشرة ودخوله في مرحلة الاستقلال، ورغبته في بناء جيش وطني مسلح تسليحاً حديثاً، وانشاء جامعة وطنية، وتأسيس مسرح للفنون الشعبية.. الخ ـ هذه الرغبات هي مستوى ثقافي معين وصله المجتمع جاء التعبير عنه بهذه الرموز، الجيش والجامعة والمسرح وغيرها ـ، ولأن المستوى الثقافي لا يكون التعبير عنه إلا بالرموز بحيث إنه إذا انتفت الرموز انتفى المستوى الثقافي وانتفت الثقافة، قلنا إن الثقافة والرموز الثقافية صنوان لا يفترقان.

وهكذا عندما نتحدث عن تباين في الثقافات وعن اختلاف ثقافة عن أخرى، فنحن نتحدث عن تباين واختلاف في الرموز الثقافية، وبالتالي عندما نقارن ثقافة بأخرى فإننا نقارن بين رموز هاتين الثقافتين. لاشك في أن ثمة أوجه تباين كثيرة بين ثقافة الإغريق مثلا والثقافة العربية في العصور الوسطى، ولاشك أيضا في أن ثقافة العرب المسلمين وثقافة الأوروبيين المسيحيين في العصور الوسطى أيضا

تتباينان في وجوه وتتقاربان في وجوه. العرب لم يكونوا أقل مادية في حياتهم من الإغريق، والإغريق لم يكونوا أكثر اهتماماً بالإنسان من العرب. لقد أخذ العرب فكرة أن الإنسان مركز العـالم وجعلوها أسـاس فلسفتهم وتصوفهم دون الفن والأدب. في حين جعل الإغريق هذه الفكرة أساس أدبهم وفنهم دون الفلسفة. الإنسان في التصوف وفي الفلسفة العربية المشائية هو تلك النقطة المركزية التي تحيط بها دوائر تتدرج في كبر شعاعاتها حتى تصل إلى دائرة المحيط القصوى وهي العرش. يتصل هذا الإنسان بالدوائـر ويصعد من الـواحدة إلى الأخـرى عبر الشعاعات، أو كما يقول ابن باجّة الأندلسي عبر الصور الروحانية التي هي في الواقع تلك الرموز. ولا يقابل التصوف الإسلامي تصوف إغريقي أو مسيحي مماثل، بل تقابله الميثولوجيا اليونانية والتصـوير والفن الكنسيـين في المسيحية. الكل أراد أن يعبّر عن سر الإلوهية والتقرب من هذا السر فـاستخدم البعض رموزاً سمعية والبعض الآخر رموزاً بصرية.. الخ. وكما يقابل الفن الكنسي التصوف يقابل التجريد في القانون عند اليونان والرومان، والتجريد في الفن عند العرب من المسلمين. نقول العرب من المسلمين لأن الثقافة العربية الإسلامية تختلف عن الثقافة الإسلامية الإيرانية، كما تختلف عن الهندية ـ الباكستـانية. وليس هنا مجال الدخول في التفاصيل، ونكتفي بمثل واحد. تميـز الفن العربي بالتجريد شبه التام، في حين أن الفن الإيراني أبقى على الإنسان والحيوان محوراً أساسياً من محاوره، كما أبقى على الأصول الفارسية القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام، وهو في نفس الوقت يختلف عن الفن الباكستـاني المطبـوع بالـطابع المغولي. وما يصدق على الفن يصدق على الشعر والأدب وكافة أشكال التعبير عن الذات وعلاقتها بالماضي والمستقبل. ويقابل هـذه الاختلافـات بين الشعـوب الإسلامية اختلافات مماثلة بين الكنيستين الشرقية والغربية، واختلافات أخرى بين شعوب الكنيسة الواحدة. وهذه الاختلافات في الواقع هي مـا يميّز ثقـافة مجتمع ما عن مجتمع آخر، وهي ما يحدد معالم هوية ثقافية معينة.

الرموز الثقافية إذن هي التي تحدد الهوية الثقافية وهي التي تقرب ثقافة مـا من

أخرى، أو تبعدها عنها، ولكن ألا يعود هذا بنا إلى القول بأن الثقافة هي تجريد السلوك لأن الرموز هي ما نجرده من النشاط الاجتماعي الذي نسميه ثقافة؟ الواقع أن تجريد السلوك والتعبير بالرموز ليسا أمراً واحداً، لأن التعبير بالرموز هو سلوك وليس تجريداً للسلوك. وهكذا تكون الثقافة هي الإجابة عبر الرموز عن كل ما يواجه المجتمع من تساؤلات حول ماضيه وعلاقته به، وحاضره وموقفه منه، ومستقبله ونظرته إليه، وآماله وطموحاته، ومجموع هذه الإجابات يشكل كلاً حياً متطوراً يسمى الثقافة.

[٣] بين الثقافة والحضارة :

يستخدم مصطلحا الثقافة والحضارة بمعان متداخلة والبعض يساوي بينهما، في حين أن البعض الآخر يفرق بينهما على أساس أن الثقافة تشير إلى ما هو عقلي، في حين أن الحضارة تشير إلى ما هو مادي. وقد نجد العكس أحيانا، أي أن البعض يعني بالثقافة المظاهر المادية للحضارة كالتكنولوجيا والصناعة، ويعني بالحضارة المظاهر العقلية والأدبية والفلسفية. وفي هذا كلّه دلالة على عدم استقرار وتثبيت تعريفات هذين الاصطلاحين في الفكر الغربي وبالتالي في الفكر العربي في الاستخدام الانثروبولوجي، الثقافة أوسع من الحضارة إلا أنها متداخلة معها، باعتبار ان الثقافة هي نمط أو طريقة حياة مجتمع ما من المجتمعات الإنسانية، إنها تشتمل على أنماط السلوك المكتسبة التي يستعملها عضو المجتمع، والتي يتوقعها الآخرون منه كما يتوقعها هو من الآخرين. إنها بشكل عام كل ما يختص به المجتمع مما يفرق الإنسان عن الحيوان من لغة، ودلالات، وأدب، وفن، وديانات، وأخلاق، وعادات شعبية، ومظاهر الحياة الاجتماعية من لباس، وزينة، وكيفية طبخ، وأكل وغناء.. الخ. فهذه كلها رموز وتعابير وآيات يعبّر بها الانسان عن نفسه، فهي ثقافته سواء كانت محدودة تقتصر على بعض المظاهر الفولكلورية، أم موسّعة تشمل ما ذكرنا وما يزيد عليه.

أما الحضارة فهي في الاستخدام الانثروبولوجي، الأمريكي خاصة، إما محصلة التاريخ الثقافي للإنسان، وإما ثقافة مجتمع كبير نسبيا على الأقل، بشرط

أن تستمر هذه الثقافة لفترة طويلة من الزمن، وأن تتضمن قيام المدن والتنظيمات السياسية والإدارية، وأن تشتمل على التخصص في المهن والأعمال والأدوار الاجتماعية، وبتعبير أوضح ألا تكون ثقافة شعب بدائي فقط. ويقابل المجتمع الحضري أو المتحضر المجتمعات البدائية على أشكالها وأنواعها، والتي تملك شيئاً من الثقافة، بمعنى أنماط تعبير خاصة، دون أن يرتفع بها ذلك إلى مستوى الحضارة. فالحضارات هي من صفات المجتمعات المتطورة الحائزة على قسط من العمران والتمدن، فهي تشير إلى نوع محدد من الثقافة. ووفق هذا التمييز بين الثقافة والحضارة فإننا نستطيع أن نتحدث عن ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، كما نستطيع أن نشير إلى ثقافة الأسكيمو ولكننا لا نستطيع أن نصف ثقافة هؤلاء أو أولئك بالحضارة، مع العلم بأن الحضارة الإنسانية هي حصيلة ثقافات الشعوب منذ ظهور هذه الثقافات حتى اليوم، في حين أن الحضارات المعروفة، من يونانية ورومانية وعربية إسلامية وغيرها، هي حصيلة ثقافات مرحلة تاريخية معينة، أو حصيلة ثقافات مجموعة شعوب متقاربة تستظل بثقافة تمثل الشريحة العليا بين هذه الثقافات، فليس كل الثقافات حضارات، في حين أن كل الحضارات ثقافات، إذ إن الحضارة الواحدة هي التركيب الأعلى لجميع الثقافات.(١)

هذا هو موقف الذين يرون أن الحضارة والثقافة متداخلتان. أما الذين يساوون بينهما فكان من أشهرهم تايلور في القرن الماضي. وقد أشرنا إلى تعريفه الذي شاع لفترة طويلة من الزمان. وقد حذا حذوه الكثير من المفكرين. وفي الاستخدام الشائع بين الناس خلط بين الاصطلاحين بحيث يمكننا القول إن الأكثرية تستخدمهما دون تحديد دقيق ودون أي حرج في تبديل مصطلح بآخر. وإذا كان من هؤلاء من يجعل الثقافة صنو العلم والحضارة صنو التشبه بالغربيين والارستقراطيين من الغربيين بشكل خاص، فإن ما يجمعهم مع الآخرين هو

---

(١) قارن بـ معن زيادة وآخرين: لبنان الحضارة الواحدة، النادي الثقافي العربي، بيروت ١٩٧٧، ص١٢ ومابعدها.

استخدام المصطلحات دون تحديد دقيق. ويمكن القول إن هذا الموقف الأخير هو التعبير الشائع عن موقف بعض المفكرين القائل بأن الثقافة تشير على الخصوص إلى ما هو معرفي روحي وعقلي وفلسفي، في حين أن الحضارة تعني بالجانب العمراني وما يشبهه من مقتنيات مادية وتكنولوجية.

وكما ينسب الموقف الأول، القائل بتداخل الحضارة مع الثقافة بالشكل الذي عرضناه مبسطاً، إلى الانثروبولوجيين الأمريكيين خاصة، فإن الموقف الأخير، القائل بالتمييز بين المصطلحين على أساس التفرقة بين المعرفي ـ العقلي والعمراني ـ التكنولوجي، ينسب إلى المفكرين الأوروبيين في عصر النهضة، ولاسيما الألمان منهم. فقد جعل هؤلاء الحضارة تقتصر على الانجازات التقنية، والمعرفة العلمية الموضوعية التي يمكن أن تقاس قياساً كمياً في حين جعلوا الثقافة تشير إلى المعرفة الذاتية غير الوصفية ذات الأحكام التقويمية كالديانات والاعتقادات والأخلاق والفلسفة والآداب والفنون. ومع أن التيار الآخذ بهذا التوجه الاخير بدأ يضعف أمام تيار الآخذين بالتوجه الأول فإن هذا التيار مازال يحظى بمؤيديه الذين يؤثرونه لأسباب كثيرة.

يأخذ أصحاب هذا التوجه الأخير على القائلين بأن الثقافة هي الرموز والتعابير، والذي ينطلق من مبدأ أن كل ظاهرة إنسانية، كيفما كانت كلمة، أو فكرة، أو سلوكاً فردياً، أو اجتماعياً، إنّما هي علامة أو اشارة إلى حقيقة، أو قل هي آية، أو دلالة، يمكن تأويلها، وأن الثقافة هي مجموع الرموز. يأخذ هؤلاء على هذا الموقف أنه يعرّف الثقافة تعريفاً صورياً أو شكلياً، «لأنه يقول: كل ظاهرة في مجتمع إنساني هي عنصر من عناصر الثقافة الإنسانية، ولكن لا يعطينا مضموناً أو هدفا للثقافة». ويرى أصحاب هذا النقد أن هذا الفهم للثقافة يترتب عليه أن جميع المجتمعات الإنسانية، الصغيرة والكبيرة، لها ثقافاتها الخاصة، وأنه لا فرق من حيث القيمة بين هذه الجماعات البشرية التي تملك كل منها أدوات تعبيرها الخاصة، وهكذا لا تتضمن دراسة الثقافة قضية الهدف. ويخلص هؤلاء إلى أن هذا الموقف: ١)ينفي وجود مضمون متعال للثقافة. ٢)ينفي وجود تفوّق

ثقافة على أخرى. ٣)ينفي وجود تمييز بين مستويات التعبير المختلفة، وبذلك لا ينسب دوراً خاصاً للمثقف. (١)

نتساءل أولا : ما معنى المضمون المتعالي للثقافة؟ وهل يمكن التعبير عن هذا المضمون إلّا من خلال الرموز؟ أليس في القول بوجود مضمون متعال إضافة شيء إلى الثقافة ليس فيها؟ أليس ذلك من قبيل أن نقول عن إنسان ما إنه ملاك فنخرجه بذلك عن أن يكون انساناً. ألا يدخلنا هذا في متاهات الفكر المثالي؟ ونتساءل بعد ذلك عن معنى تفوق الثقافة؟ هل هو أمر آخر غير تقدمها على طريق المشاركة والمساهمة في حضارة العصر؟ أليس هو الارتفاع بمستوى أبنائها وأصحابها لأن يكونوا جزءا من حضارة العصر؟ وهل يكون ذلك بالابتعاد عن مسيرة الحركة العلمية والحضارية الراهنة؟ والواقع أنه لا غضاضة في القول أن ليس للثقافة مضمون متعال، ولا غضاضة أيضا في تساوي الثقافات من حيث هي ثقافات، ذلك أن فاعلية الثقافة لا تكون من جهة كونها ثقافة ذات مضمون متعال، أو من جهة كونها تنتسب لشعب عريق أو لشعب غير عريق، إن فاعلية الثقافة تأتي من مدى تمثيلها لآمال وطموحات الذين يحملونها، ومن قدرتها على الإجابة عن التحديات التي تواجه المجتمع، ومن صمودها في خضم صراعات عالمنا اليوم. لقد أصبح تفوق الثقافة يعني أمراً أساسياً واحدا وهو ألا تكون الثقافة على هامش حضارة العصر.

أما دور المثقف فلا ينتفى عندما تكون الثقافة تعبيراً ورموزاً وإنّما ينتفي عندما تتخلف الثقافة وتبتعد عن روح العصر وعن مسايرة ركب التقدم. وقد يقول البعض إن الفهم الذي نقدمه للثقافة والحضارة يقسم العالم إلى قسمين أو إلى عالمين: «عالم الثقافة الحقيقية وعالم الفولكلور»، أما الثقافة الحقيقية فهي ثقافة العالم المتقدم والمتطور، وأما الثقافة الفولكلورية فهي ثقافة العالم المتخلف،

---

(١) عبدالله العروي : العرب والفكر التاريخي، ط٣، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠ ص٨٩، ومابعدها.

والواقع أن هذا على شيء كثير من الصحة. فإن ثقافات المجتمعات المتخلفة قد تحول أكثرها إلى ثقافات فولكلورية، وكان من الممكن أن تتحول جميعها إلى ثقافات فولكلورية لولا أن بعض مجتمعات العالم الثالث قد أخذت بمسيرة التحديث، وتجديد نفسها بما يتلاءم ومسيرة الحضارة الحديثة.

ماذا يعني هذا الكلام ؟

إنه يعني أن مسيرة عالمنا اليوم هي مسيرة نحو حضارة واحدة، وأن الثقافات القومية تشكل عناصر التنوع والتعدد في حين أن الحضارة هي عملية اندماج التنوع والتعدد وانصهارها «فكثرة العناصر وتنوعها، ضمن الوحدة، تلك هي الثقافات. أما عملية اندماجها المتنوع، وانصهارها في القالب الواحد، فتلك هي الحضارة»(١). لقد مضى العصر الذي كان يمكن فيه أن تعيش عدة حضارات في آن واحد، فتوينبي مثلاً يعدد ما يقرب من العشرين حضارة إنسانية عرفها تاريخ البشرية، ومن الطبيعي أنه كان بامكان العالم أن يتسع لأكثر من حضارة واحدة في وقت واحد، إلا أن عالمنا اليوم يصغر تدريجيا حتى يكاد يصبح قرية واحدة، فلقد حولته وسائل الاتصال ووسائل الإعلام المتطورة إلى مجتمع صغير يكاد يعرف كل من فيه كل ما فيه، ويكاد كل ما فيه يعني كل من فيه.

وإذا كان عالمنا يتجه إلى الاستظلال بظل حضارة واحدة كما تشير كل الدلائل، فهذا لا يعني أن الثقافات القومية ستتشابه وتتماثل، فالثقافة القومية التي هي السلوك المادي والعقلي والروحي الذي يبتكره شعب من الشعوب في مسيرته، ستظل التعبير عن خصوصية هذا الشعب وعبقريته، وهي تكون كذلك بمقدار مشاركتها ومساهمتها في المسيرة الحضارية الواحدة، أما أصالة الثقافة القومية فلا تكون بتحاورها مع ماضيها بقدر ما تكون بتفتحها على الثقافات الأخرى وتكاملها معها.

ظهر مصطلحا حضارة وثقافة بالمعاني التي نتحدث عنها هنا في المعاجم والقواميس ودوائر المعارف في القرن الثامن عشر فقط. وقد استخدم المصطلحان

---

(١) عبدالعزيز الحبابي : من المنغلق الى المتفتح، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ص١٢

على سبيل التساوي تارة، وعلى سبيل التداخل طوراً، أما مصطلح حضارة Civilization بالإنكليزية Civilisation بالفرنسية فهي مشتقة من الأصل اللاتيني Civis مدني Civitas مدنية أو حاضرة، وهي مكان تجمع الناس وحضورهم لإقامة مصالحهم وحياتهم المشتركة وحفظها. ثم أخذت الكلمة تتجه لتعني صفات الأدب والعلم وحسن العشرة وغيرها من الصفات المحمودة التي يكتسبها الإنسان المتمدن. وبعد ذلك اكتسبت الكلمة المعنى الشائع اليوم وهو إما إشارتها إلى الوحدات الحضارية التي ظهرت في تاريخ البشرية، وإما إشارتها إلى الحضارة بالاطلاق أي حضارة الإنسان منذ كان.

وكما تعود كلمة حضارة في اللغات الأوروبية إلى اللاتينية كذلك تعود كلمة ثقافة Culture إلى اللاتينية، ذلك أن Cultura اللاتينية كانت تعني حرث الأرض وتنميتها، ولعل شيشرون أول من استخدمها بمعناها المجازي الذي شاع فيها بعد حين أطلق على الفلسفة اسم Mentis Cultura أي زراعة العقل وتنميته. وقد استعار فولتير وأقرانه من المفكرين الفرنسيين استخدام شيشرون المجازي حتى باتت الكلمة تعني تنمية العقل وغرسه بالذوق والفهم وتزيينه بالمعرفة، وغير ذلك مما تشتمل عليه كلمة ثقافة. ومن الفرنسية انتقلت الكلمة بمعناها الجديد إلى الألمانية Kulture والإنكليزية وسائر اللغات الأوروبية.

أما في اللغة العربية فإن الحضارة لا تختلف في معناها الأصلي عن المعنى الأصلي للكلمة باللاتينية أي أن الحضارة هي الإقامة في الحضر وهو خلاف البداوة. وابن خلدون يعتبر الحضارة والبداوة درجتين من العمران البشري، أو طورين أو جيلين بحسب تعبيره، فهو يستخدم اصطلاح العمران ليشير به إلى معنى قريب مما نشير إليه بمصطلح الحضارة إلا أنه أضيق منه. أما مصطلح الثقافة فيرتد بالعربية إلى المصدر ثَقَفَ وهو يحمل معاني التحويل والإصلاح والتهذيب، وهذا يجعله قريبا من المعنى الأصلي لكلمة Cultura اللاتينية، وقد تطور الاصطلاحان العربيان حضارة وثقافة تطوراً مماثلاً لنظرائهما باللغات الأوروبية.

ومصطلح الحضارة في اللغات الأوروبية الذي استخدم في بداية الأمر ليعني ما

تمتاز به الشعوب الأوروبية من خصائص، اتجه تدريجيا ليعني الشريحة الثقافية المتقدمة، فالحضارة الراهنة هي الثقافة الأكثر تقدماً بين ثقافات المجتمعات المعاصرة، وتاريخ الحضارة هو تاريخ الإنسان الثقافي منذ كان الإنسان ومنذ كانت الثقافة. إلا أن عبارة «الأكثر تقدما» قد تثير الكثير من النقاش والجدل، لأن التقدم قد يفهم بمعنى التقدم الظاهري أو الخارجي، وليس هذا هو المقصود بالتقدم، ومن هنا كان لابد من التنبيه إلى سهولة الانزلاق إلى المواقف التي تربط بين الحضارة والتقدم المادي دون الفكري.

وإذا كانت الحضارة هي الثقافة الأكثر تقدماً، فإن هذا يجعلها أوسع من العمران Civility وهو جانب من الحضارة أو فرع من فروعها، يمكن القول إن ابن خلدون هو الذي أسسه وبنى صرحه الأول. والحضارة على هذا أيضا تختلف عن التمدن Urbanity، وهي الكلمة التي فضّلها جرجي زيدان عندما وضع عنوانا لكتابه **تاريخ التمدن الإسلامي**. والفرق بين هذه الاصطلاحات الثلاثة أن كلمتي عمران وتمدّن تحصران الحضارة بقيام المدن وتربطانها بالتطور المديني والعمراني، وكأن الحضارة إنما تزدهر بازدهار المدن وما يرافقها من عمران. فكلمة مدنية أو تمدن ترتد إلى المدينة، وكلمة عمران تعود إلى التعمير، مع أن الحضارة في مظاهرها الحديثة المتطورة والمتقدمة أصبحت مرتبطة بالمجتمعات العمرانية والمدنية، إلا أن الحضارة بالمعنى الذي ذكرناه أي الثقافات المتقدمة أوسع من أن يحصر في العمران والتمدن، وعلى كل حال فالقضية ليست قضية كلمات واصطلاحات، فأي اصطلاح من هذه الاصطلاحات الثلاثة يمكن أن يحمل المعنى الذي نريد، وهو أن تاريخ الحضارة هو تاريخ الإنسان الثقافي، وأن الحضارة هي الشريحة الثقافية العليا أو الثقافة المتقدمة، نقول إن أي اصطلاح يمكن أن يحمل هذه المعاني ويمكن أن يفي بالغرض. وإذا كنا نفضل اصطلاح حضارة، مع أنه كسابقيه يعود في الأصل إلى الحاضرة Civitas، وهي مكان حضور الناس وتجمهرهم لبحث شؤونهم الاجتماعية، أو لممارسة طقوسهم الاحتفالية الدينية وغير الدينية، فلأن هذا الاصطلاح قد شاع بمعنى مقارب من

المعنى الذي أشرنا إليه. وقد كنا نفضل استعمال اصطلاح عمران لما له من دلالة على تقدم العرب في البحث في هذه الأمور، إلا أن الاصطلاح أخذ منذ مدة من الزمان يتجه وجهة تحصره في بعض جوانب الحضارة كما سبقت الإشارة.

لكل إنسان ـ في كل زمان ومكان ـ ثقافة ينتسب إليها، دون أن يرتفع هذا الإنسان أو تلك الثقافة إلى المستوى الحضاري السائد. فالحضارة هي مرتبة من مراتب التطور الثقافي، أو لنقل إن الحضارة هي محطة كبرى في مقابل المحطات الصغرى التي هي الثقافات، صحيح أنه ليس هناك الكثير من الدراسات التي تتحدث عن خصائص المحطات الثقافية الكبرى، وهي الحضارات التي عرفها الإنسان كما أنه ليس هناك إلا القليل من الدراسات الحضارية المقارنة. إلا أن الدراسات مستمرة ومتواصلة، وقد ألقت حتى الآن الكثير من الأضواء على حضارات الإنسان السابقة، وهي حضارات قليلة جدا أذا ما قيست بالثقافات التي عرفها تاريخ البشرية. وإذا كان عالمنا يسير في اتجاه حضارة واحدة، فإن هذا لا يقلل من قيمة الحضارات السابقة التي يحصرها البعض في حوالي العشرين، كما أنه لا يعني أن حضارتنا الراهنة، أو التي هي قيد الانتشار والتوسع واتخاذ خصائصها الواضحة، ستكون آخر حضارة إنسانية. فلا شك في أن هذه الحضارة ستعقبها حضارات نأمل أن تكون أكثر إنسانية. اللهم إلا إذا استبد الحمق بأرباب الحضارة الراهنة فنجحوا في أن تكون هذه الحضارة هي الأخيرة في تاريخ الإنسان.

الحضارة إذن هي حصيلة ثقافات العالم، وقد كان يمكن لهذه الحصيلة أن تظهر وبأكثر من تجل واحد في فترة تاريخية واحدة، كأن تتزامن الحضارة الإغريقية اليونانية مع الفرعونية المصرية مثلا، أو الحضارة الصينية مع الهندية مثلا آخر، إلا أن احتمالا من هذا النوع لا تتوفر له مقومات الحدوث في زماننا كما كانت تتوفر له في الماضي. ومانشهده من خلاف بين الشرق والغرب، واختلاف بين الشمال والجنوب، ليس في الواقع خلافاً في التوجه الحضاري، وإنما هو خلاف سياسي وايديولوجي ومصلحي، أو بتعبير آخر خلاف ثقافي. من هنا كانت الثقافة أوسع

من الحضارة، فهي عامة لكل المجتمعات، أما الحضارة فهي أضيق من الثقافة، بمعنى أن صفة الحضارة لا تطلق على كل المجتمعات، فليست كل الثقافات حضارات في حين أن كل الحضارات ثقافات.

ولا يضفي هذا المفهوم للحضارة الصفة أو الدور القومي في الحضارة، فبالإضافة لصفتي الكلية والوحدة اللتين تتصف بهما الحضارة فإنها تتصف بالشمولية أي العالمية من جهة، وبالخصوصية أي التخصص القومي والذاتية من جهة أخرى. فهي من جهة تسعى لأن تسود العالم بأسره، إلا أنها تريد أن تطبع هذا العالم بخصوصيتها وذاتيتها القومية في نفس الوقت. حضارة العلم والتكنولوجيا، مثلا، ذات صفة شمولية ميدانها هو العالم بأسره، وإن كانت لا تتخلى نهائيا عن خصوصيتها، فهي أوروبية غربية أولا، وهي غربية امريكية بعد ذلك، فالحضارة أشبه ما تكون بعملية تثاقف متواصلة، تتولى أمر قيادها ثقافة قومية بعد أخرى. وفي كل مرحلة تكاد الحضارة تتماهى مع ثقافة خاصة من الثقافات، وعندما تتخلى الحضارة عن أن تسلم قيادها لتلك الثقافة تتولاها ثقافة أخرى، وتعود الثقافة التي كانت تقود الحضارة لتصبح خاصة بالمجموعة الإنسانية التي انتجتها.. وهكذا.. فشمولية الحضارة لا تتعارض مع خصوصيتها، وخصوصيتها لا تناقض شموليتها. فالثقافة القومية تستطيع في وقت من الأوقات أن تبلغ القمة فتصبح هي والحضارة صنوين. من هنا كانت الصفات القومية للحضارات السابقة الإغريقية والعربية الإسلامية وغيرهما، ومن هنا كانت تسمية حضارة العلم والتكنولوجيا بالحضارة الغربية الحديثة، باعتبار أن تجليها الرئيس والأساسي كان وما زال حتى الآن في مايسمى بالغرب.

نخلص إلى القول بأن تاريخ البشرية قد عرف عددا من الحضارات وكثيراً من الثقافات، إلا أن هذا لا يعني أنه يمكن الفصل بين الثقافة والحضارة، أو إقامة أي تعارض بينهما، انهما متداخلان دون أن يصلا إلى حد التساوي، وهما متمايزان دون أن يصل بهما ذلك إلى درجة التباعد. فنحن من جهة لا يمكن أن نساوي بين الحضارة والثقافة، وخصوصا الثقافة بالمفهوم الأنثروبولوجي الذي يعترف بثقافة

خاصة لكل مجموعة بشرية مهما صغرت هذه المجموعة، ومهما كانت بدائية، حتى لو اقتصرت هذه الثقافة على ما هو أشبه بالفولكلور بالنسبة لعصرنا. ومن جهة أخرى لا نصل إلى الموقف الذي يجعل الثقافة شيئا، ومن الحضارة شيئا آخر، باعتبار أن الثقافة هي دائما ثقافة شعب ما، في حين أن الحضارة لا تختص بأي شعب بل هي «مجموع ثقافات مختلف الشعوب»، أو «مجموع الثقافات المتنوعة الناجمة عن نشاط البشر». فهذا الموقف الأخير لا يرى بأن الحضارة يمكن أن تكون قومية، كما هو شأن الثقافة، وأنهما يختلفان كماً وكيفاً كما يرى المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، مثلا، الذي يرد على المفكر الفرنسي لوي غاردي Louis Gardet الذي يرى أن الحضارة يمكن أن تكون قومية لأن «الثقافة تتجلى لنا مرتبطة بالنظام المجتمعي والسياسي».(١)

[٤] الثقافة القومية والهوية الثقافية الخاصة

مفهوم الثقافة كما تناولناه يجمع بين الثقافة كتراث للإنسانية جمعاء، والثقافة كهوية خاصة بهذا المجتمع أو ذاك. وقد يظن البعض أن في هذا شيئا من التناقض، ولتوضيح الصورة نقول: يعيش الإنسان، كما تعيش أجناس الحيوان، في مجتمعات مستقلة تحدد استقلاليتها ظروف البيئة والمحيط. وإذا كانت المجتمعات الإنسانية قد أخذت أشكالا مختلفة، القبيلة والمدينة والمملكة والامبراطورية، قبل ظهور فكرة القوميات في عصر النهضة الأوروبية، وإذا كان البعض يرى أن انقسام عالمنا إلى قوميات هو أشبه ما يكون بالارادة الإلهية، في حين يرى البعض الآخر أن مرحلة القوميات هي مرحلة مؤقتة وأننا بدأنا الدخول في مرحلة ما فوق المجتمعات القومية، فإن ما يهمنا هو أن هذه المجتمعات على اختلاف أشكالها تتميز بثقافاتها الخاصة أولا وقبل كل شيء. من هنا كانت الثقافات الخاصة تتراوح بين ثقافة مجتمع القبيلة، أو مجموعة قبائل كما كان حال

(١) انظر محمد عزيز الحبابي: من المنغلق إلى المتفتح، ترجمة عن الفرنسية محمد برادة، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ص ٣١، ٣٢

العـرب قبل الإسـلام، وثقافـة مملكة متـرامية الأطـراف كمملكـة الإسكنـدر المقدوني، مرورا بمجتمعـات بشريـة صغيرة أو كبيـرة دات شخصيات ثقـافية مستقلة. وكما يمكن الحديث عن ثقافة مجتمع واحد كذلك يمكننا الحديث عن ثقافة مجموعة مجتمعات متقاربة، وكما يمكننا الحديث عن ثقافة مجتمع ما في مرحلة تاريخية معينة. يمكننا الحديث عن ثقافة هذا المجتمع عبر مراحل تاريخية عدة.

وبسبب هذا التفرع في استخـدام اصطلاح ثقـافة، ولمـزيد من التحـديد، استحدث علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا تعبير النظام الثقافي الاجتماعي، وهو يشير إلى ثقافة مجموعة بشرية مستقلة ذات نظام اجتماعي محدد، ولا يهم بعد ذلك ما إذا كان هذا النظام الاجتماعي هو القبيلة أو الأمة، أو مجموعة أمم، كما نقول المجموعة الأوروبية مثـلا. ولا يعني تعبير «النـظام الثقافي الاجتمـاعي» المحدد والمستقل قيام الحواجز والحدود الفاصلة والقاطعة بين الأنظمة الثقـافية الاجتماعية، فالحدود يمكن أن تفصل المكان ويمكن أن تفصل الزمان أيضا، بل يمكن أن تفصل الاجناس، إلا أنها لا تستـطيع أن تـوقف التحاور والتبـادل، وامتـزاج الثقافـات وتفاعلهـا وتداخلهـا. كل مـا في الأمر أن النـظام الثقـافي الاجتماعي المحدد هو تعبير متميز وخاص عن التراث الثقافي الإنساني، فهو من جهة يحمل كل مكونات الثقافة الإنسانية إلا أنه يختلف في بنيته وتركيبه وتنظيمه في ميادين التكنولوجيا والإدارة والايديولوجيا. وكما ذكرنا قبلا يعود هذا الاختلاف لظروف البيئة والمحيط، وهذا يشمل الموارد الأولية والتشكيـلات الاقتصاديـة والاستخدام الإنساني لها ومستوى تطور الآلات والوسائط والتكنولوجيا عموما، كما يشمل الرموز الإنسانية الأخرى، ولاسيما الرموز اللغوية ورموز التعبير الفني وسائر النشاطات الاجتماعية.

وإذا كـانت هذه الاختـلافات في التعبيـر تؤخذ عـادة كمؤشر لمـدى تـطور المجتمع، فإن البعض قد غالى في تفسير هذه الاختلافات واعتبـرها انعكـاسا لشروط بيولوجية وفسيولوجيـة، واستنتج منهـا استنتاجـات لم يؤكدهـا العلم، خلاصتها أن بعض الأجناس البشرية أقدر من غيرها عقليا، وبالتالي أقدر من

غيرها على استيعاب نتائج الحركة العلمية المتطورة. ومن هذا القبيل حكم بعض الأمريكيين البيض على الأمريكيين السود، وعلى غيرهم من الأجناس الملونة كما يسمونها، وحكم بعض الغربيين على الشرقيين عموماً والعرب خصوصاً. ولما كان البعض قد أجرى شيئا من التجارب محاولا إثبات وجود فروق بيولوجية بين أجناس الإنسان دون الوصول إلى نتائج علمية مؤيدة، فإننا نعتبر هذا الضرب من الادعاءات من قبيل المواقف الثقافية التي تفصل بين مجتمع ومجتمع، وهي في نفس الوقت دليل على تخلف ثقافي، ووجود ثغرات ثقافية كبرى، أو جيوب ثقافية من عصور سالفة حتى في المجتمعات المتطورة.

يأتي الإنسان إلى هذا العالم دون أي ثقافة على الاطلاق، ومنذ اللحظات الأولى لدخوله هذا العالم يبدأ الطفل باكتساب سلوكه ومواقفه وقيمه ومثله واعتقاداته وأسلوبه في التعبير، وكل ما يدخل في عداد ثقافة بيئته الاجتماعية الثقافية المحيطة به. ولا نغالي إذا قلنا إن لهذه الثقافة من التأثير ما يرتفع فوق الغرائز والحاجات العضوية، بل ما يرتفع فوق حياة الفرد فيتقدم من الموت بخطى ثابتة وكأنه يمارس فعلا حياتياً. الثقافة هي التي تجعل الإنسان يرتفع فوق رغباته الجنسية والحسية عموما فيؤثر التبتل أو الرهبنة، وهي نفسها التي تدفع الإنسان لأن يختار أن يجوع حتى الموت مع توفر الطعام حوله، أو أن يختار أن يقتل أما أو أختاً أو أخاً عزيزاً غسلاً للعار، أو أن يضحي بنفسه في عملية انتحارية من أجل فكرة أو هدف يدخل في عداد ثقافته.

مازالت الكلمة الأولى في سلوك الفرد الفكري والعملي هي للثقافة القومية، ومن المتوقع أن يستمر الأمر كذلك لفترة طويلة من الزمان على الأقل. فعلى الرغم من وجود تحديات وهموم تعني الإنسانية جمعاء، مثل خطر التسلح النووي، واحتمال قيام حرب لا تبقي أثراً لثقافة العالم، ولا لتجلياتها الخاصة التي نطلق عليها اسم الثقافة القومية، ومثل تلوث البيئة وتهديد المحيط الحيوي الذي يعيش فيه الإنسان والحيوان على حد سواء وغير هذا وذاك، فإن هذه التحديات والهموم الإنسانية المشتركة لا تواجه بموقف مشترك، ولا تفعل فعلها بدرجات متقاربة،

بل قل إن العالم ينقسم بشأن أسبابها إذا لم نقل بشأن نتائجها أيضا.

وإذا كان ثمة من عامل يقرب في عصرنا الراهن بين الثقافات القومية والخاصة، فهو العامل التكنولوجي: انتشار التكنولوجيا، وخلقها لأنماط متقاربة من السلوك والتفكير، وتضييقها لرقعة العالم، وغير ذلك كثير يجعل التكنولوجيا عامل توحيد ثقافي على مستوى العالم بأسره. لم تكن الثقافة الواحدة يوما نتيجة إرادة واحدة، أو تعاقد اجتماعي كما ظن جان جاك روسو، تتكون الثقافة أولا ثم ينشأ العقد الاجتماعي. ومشكلات العالم المشتركة اليوم لن تكون عامل توحيد فعلي بقدر ذلك التأثير البالغ الذي تحدثه التكنولوجيا في سلوك الإنسان ونمط تفكيره وتوحيد رؤياه المستقبلية. ومع ذلك نقول إن الاختلافات في الثقافات مرشّحة للاستمرار بل والترسيخ، ليس بسبب درجة استخدام التكنولوجيا فقط، بل بسبب المصلحة المرتبطة بهذا الاستخدام. لقد كانت المصلحة التي تربط مجموعة بشرية معينة هي العامل الرئيس في قيام النظام الثقافي الاجتماعي الخاص بهذه المجموعة، وليس من سبب يلغي هذه القاعدة أو يحد من هذا العامل اليوم.

ويقف إلى جانب التكنولوجيا عامل آخر لايقل أهمية وهو وحدة العلم والحركة العلمية. والوحدة المقصودة هنا ليست الوحدة التنظيمية أو الوحدة المنهجية، بل وحدة تداخل النتائج والتأثيرات ووحدة ترابط فروع المعرفة. ونكتفي هنا بالقول إن عالم الفلك العربي مثلاً لايكون عالماً حقاً في زماننا هذا إذا اكتفى بالنظريات والمبادىء الفلكية التي كانت معروفة عند العرب في العصور الوسطى، مع أن العرب كانوا الأكثر تقدماً في هذا الميدان في ذلك الحين. ولابد لعالم الفلك العربي اليوم من أن يكون على اطلاع مباشر على النظريات الفلكية الحديثة وعلى ماخطاه علم الفلك من خطوات جبارة في ربع القرن الأخير. وما يصدق على علم الفلك يصدق على الطب وعلم النفس وجميع العلوم. ولايفيدنا كثيرا أن نقول إن العرب والمسلمين معهم قد سبقوا في هذه الميادين، ولايكفي أن نقف على سبق ابن سينا والرازي وابن الهيثم وغيرهم حتى ندخل في عداد العلماء، ولابد لنا من الدخول في الحركة العلمية الحديثة في ميدان تخصصنا. فلايمكن اطلاق لقب طبيب، أو

عالم نفس، أو عالم بصريات، أو عالم اجتماع، أو غير هذا وذاك على من لايقف على أحدث النظريات على الأقل، ناهيك عن المساهمة في حركة العلم في ميدان علمه وعمله. وسواء أكان جراح القلب أو العيون أو عالم الفلك أو غيره يعمل في افريقيا الجنوبية أم في البرازيل أم في بلاد الشام أم في جزيرة العرب، فإنه لايكون جراحاً أو عالماً إذا اكتفى بعلوم الأولين، أو إذا اهمل نتائج البحوث العلمية المتخصصة، وإذا لم تكن جهوده متممة للحركة العلمية بالمساهمة والمشاركة فيها، بالإضافة إليها أو تصحيح مسيرتها.

وينتج عن هذا كله أن المثقف لايكون مثقفاً حقاً بالابتعاد عن عصره وروح عصره، وهموم عصره، وقضايا عصره، وثقافة عصره. قد يهتم فرد ما أو مجموعة أفراد بالتعمق بدراسة اللغات القديمة، مثلاً، فيكشفوا لنا عن أصول هذه اللغات وقواعدها واستخداماتها وحدودها وأبعادها، ولاشك في أن هذا يدخلهم في دائرة العلم ويضعهم في مصاف العلماء خاصة إذا استخدموا نتائج المعرفة الإنسانية في مناهجهم وطرق بحثهم، إلا أن هذا وحده لايكفي إذ لابد لهم من أن يضموا علمهم هذا إلى علوم العصر، وأن يضعوا نتائج أبحاثهم في خدمة الحركة العلمية المعاصرة. فلابد لهؤلاء العلماء ولعلمهم من احتلال موضع ما والدخول في علاقات، وأن يترجم علمهم إلى تطبيقات ونتائج تصب في الحركة العلمية الواحدة. ومايصدق على العلم والعالم يصدق على الثقافة والمثقف عموماً، فمن وقفت حدود ثقافته عند ثقافة الأوائل لاتتعداها إلى ما آلت إليه الثقافة في عصره، فليس من علاقة له بالثقافة والمثقفين لأنه لاعلاقة له بعصره.

وحدة العلم ووحدة الحركة العلمية هما نتيجة طبيعية لوحدة الإنسان كإنسان من جهة، ووحدة العالم الطبيعي الذي يتعامل معه هذا الإنسان، وبالتالي وحدة المعرفة الإنسانية من جهة اخرى. ومن الواضح هنا أننا لانتحدث عن العلم بالمعنى الإسلامي، أو المعرفة بالمعنى الديني، فذلك ميدان خاص لم يعد هو أساس العلم والمعرفة، بل و لم يعد فرعاً أساسياً من فروع العلم والمعرفة.

ولكن إذا كان الأمر كذلك فأين هي الثقافة القومية؟ وأين هي الشخصية الثقافية الخاصة؟ وكيف تكون الأصالة؟

الثقافة القومية هي التجلي الخاص بشعب من الشعوب، هي تعبير المجتمع بطريقته الخاصة ورموزه المستقلة عن نضجه وتطوره وعن رؤيته للإنسان والعالم والطبيعة والكون عموماً، إنها طريقته الخاصة بتحسيد حاضره ورسم آماله ومعالم مستقبله. وهدا كله لايعني ألا يكون علمه من علم عصره وثقافته من ثقافة عصره فالنطاسي البارع ليس الذي يحفظ مادرسه بل هو الذي يلائم بين علمه وبين الأمراض التي تعترضه في بيئته، وهو الذي يفيد مما أخده من الجامعة، سواء أكانت أجنبية أم وطنية، ليؤدي وظيفته في مجتمعه وبيئته. والمهندس المعماري المبدع هو الذي يفيد من علمه ليصمم أنسب أشكال المساكن في محيطه وبيئته بل هو الدي يخرج عن حدود ما تعلمه عندما تدعو الحاجة ليضيف إلى ماتعلمه. وكذلك الحال مع المهندس الزراعي، ومع الاستاذ الحامعي أياً كان تخصصه، ومع الفني أيا كانت صناعته، ومع المصور والمثال والمخرج المسرحي والموسيقي ورجل الصحافة وأهل السياسة وصاحب الحكم وغيرهم كثير. وقد رأينا في بلادنا وفي أيامنا نماذج من هؤلاء تبدأ بالميكانيكي الصغير الذي لايقف عاجزاً منتظراً الحصول على قطعة غيار مفقودة بل يحول قطعة إلى قطعة، مروراً بالمعماري المجدد، والزراعي الذي يضيف علمه إلى حبرة الآباء والأجداد، الخ وليس للأمثلة نهاية ولا للقائمة آخر..

ومن الطبيعي ألا تقتصر الثقافة القومية على تعديل علوم العصر والإضافة إليها فقط، إذ لايمكن لمجتمع ما أن يغفل كل ماضيه وقيمه وما درج عليه من سلوك، وما أخذ به من عادات وتقاليد، ولابد له من المحافظة على تراثه الخاص وشخصيته المتميزة. إلا أن المحافظة على التراث الخاص والتمسك بالشحصية المستقلة المتميزة لايكونان بالمحافظة على القديم حتى لو وجدنا ماهو أصلح منه لحياتنا، فإذا كانت وسيلة النقل التقليدية هي العربة والحصان وما أشبههما، فنحن لانستطيع التمسك بوسائل النقل التقليدية لأنها جزء من تراثنا، بل قل نحن لانستطيع ذلك حتى لو أردناه لأنه يضعنا موضع الصعف، ويقودنا إلى العجز بل إلى مايشبه الشلل، ليس لأن الجيوش تعتمد على وسائل النقل السريعة

فقط بل لأن حركة الإنسان في العالم أصبحت أسرع في كل ميدان، ولايمكن أن نبقى مع مسيرة العالم بوسائل نقل تقليدية. وما يصدق على وسائل النقل يصدق على كل شيء آخر. هل نصر على مناهج التعليم كما كانت قبل ألف عام، أو حتى قبل مئة وخمسين عاماً عندما جددها الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهما؟ وهل ارتضى الآباء والأجداد شيئاً من هذا القبيل لأنفسهم؟ وهل نصر على تنظيف الأسنان بالمسواك رغم وجود ما يؤدي الغرض على وجه أفضل؟ وهل كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتضي ذلك وهو الذي جدد في كل شيء؟ وهل. . . . وهل. . . التساؤلات كثيرة قد تبدأ بالمسواك إلا أنها لاتنتهي عند أي حد. . .

ليس من العار أن نتخلى عن بعض عاداتنا وتقاليدنا وسلوكنا، وعن بعض قيمنا، إذا استبدلناها بما هو أصلح منها، ونحن حتماً لانفقد شخصيتنا القومية عندما نفيد من تجارب الآخرين وعلم الآخرين، إلا أننا نفقد هذه الشخصية عندما نتحول إلى تابعين للآخرين. لانفقد شخصيتنا عندما نبني جيشاً غربي الطابع أو جامعة حديثة، أو عندما نستخدم وسائل النقل الحديثة، ولكننا نفقدها عندما نستهلك ولانتنج، عندما نقلد ولا نجدد، عندما نتلقى ولانعدل أو نضيف أو نطور، ناهيك عن أن نعطي عطاء مماثلاً. ليس من العار أن نقتبس، بل من العار ألا نقتبس، ولاشك في أنه من العار اولاً وقبل كل شيء أن كل ما نقتبسه ينتجه غيرنا ونحن نستخدمه دون إلمام بكل أبعاده وأغراضه ووظائف أجزائه، بدءاً من دراجة الطفل الصغيرة، وهل أقول بدءاً مما هو أبسط من ذلك، بل بدءاً مما هو أكثر ضرورة؟

قد يقول قائل إن الأمثلة التي قدمناها لاتثير الكثير من الإشكالات، وأن هناك أمثلة أعقد وأكثر دلالة على وجود إشكالات. والواقع أن هذا صحيح إلى حد بعيد، ولكن إذا حللنا جميع مايشكل الشخصية الثقافية إلى عناصره البسيطة وجدنا أن مايصدق على وسائل النقل مثلاً يصدق على غيرها أيضاً مما يسمى النظام الثقافي الاجتماعي، بما في ذلك القيم. لنأخذ الكرم الذي عرف به الآباء، أو لنأخذ الشجاعة المحببة إلى قلب العربي: ليس من الكرم أن نهدر ثرواتنا في

اقتصاد استهلاكي . أما الشجاعة فقد تكون قول الحق ، وقول الحق أننا لانعيش القيم الثقافية التي نتغنى بها لأن ظروف الحياة قد تغيرت وتبدلت . وقد تكون الشجاعة هي الإقدام في المعركة . وقد أصبح لهذه الشجاعة شروطاً جديدة فليس من الشجاعة في شيء أن نواجه المدفع بـالسيف . فهذا تهور أو انتحار أو مـا يشبهه . عندما يجلس الجندي الإسرائيلي وراء مـدفع يصيب عـلى بعد ثـلاثين كيلومتراً مثلاً في حين أن من يجابهه يحمل بندقية لاتصيب اكثر من مئات الأمتار ، أو حتى وراء مدفع يصيب على بعد عشرة كيلومترات ، فإن الجندي الإسرائيلي سيحس بالشجاعة التامة عندما يواجه العربي وهو يجلس وراء مدفعه ، ويضرب عن بعد عشرين كيلومترا مثلاً . فكـما ذكرنـا لقد أصبح للشجاعـة شروطهـا الجديدة . وهي شروط لاتتناقض مع قيمنا التراثية بـل تكملها وتتممهـا . وما يصدق على الكرم والشجاعة يصدق على أكثر قيمنا التراثية .

أما الأصالة فهي محاورة الماضي من أجل الحاضر والمستقبل ، ليست الأصالة عبادة الماضي ، كما أن الحداثة والتقدم لايكونان بعبادة كل ماهو جديد . ثقافتنا القومية وشخصيتنا الثقافية وأصالتنا إنما تتحقق بإعمال العقل في كل مايخصنا ، وكل مايحيط بنا ، وكل مايتعلق بحياتنا ، وإعمال العقل هو من القيم الثقـافية الأساسية في تراثنا ، ننظر عبره ونسير بواسطته مايصلح لحياتنا ، وما يفيد في لحوقنا بالركب الحضاري ، نترك القشور ونتخلى عن المظاهر ونهتم بحقـائق الأمور ثقافتنا وشخصيتنا وأصالتنا تكون بالإبداع الذي تخلى عنا من زمن بعيد لأننا لم نعد على رأس المسيرة ، بل لم نعد في وسط هذه المسيرة ، وقد نصبح في مؤخرتها إذا لم نتدارك أمورنا ، ونسارع الخطى على طريق العلم والعمل . نقتبس اولاً ونفيد من الآخرين ، ثم نجدد ونطور ونعدل ونكيف المعرفة لمصلحتنا ، ثم نبدع بعد ذلك ونسهم ونشـارك . وبهذا وحـده نحـافظ عـلى أصـالتنـا ، وبهـذا وحـده نحفظ شخصيتنا ، وبهذا نتـدارك أمر ثقـافتنا . لا بـالتبعية للمـاضي ، ولا بالتبعيـة للآخرين ، بل بالإبداع والحرية وبهما وحدهما .

(٥) التحــول الثقافــي

يأتي الطفل إلى هذا العالم، ويبدأ منذ اللحظات الأولى الاغتراف من ثقافة مجتمعه، واكتساب نتائج الانجازات المادية والمعرفية المتوفرة لتلك الثقافة. وقد درجنا على النظر إلى حصيلة مايكتسبه الفرد من المجتمع وكأنه من مستلزمات التطور الطبيعي لذلك الفرد. إلا أننا لو غيرنا في تلك الثقافة المحيطة بالطفل، لما شب وفق التوقعات التي يشب عليها عادة فيما لو أن تبديلاً في الشروط الثقافية لم يحصل. ويمكن ملاحظة ذلك عند اجراء تعديلات في الشروط البيئية المحيطة بالطفل داخل المجتمع الواحد، كأن ينشأ في القرية أوفي المدينة .أما إذا بدلنا تلك الشروط تبديلاً أساسياً كأن نأخذ طفلاً فيتنامياً مثلاً ونضعه في رعاية أسرة أمريكية ـ وهو ماحصل بالفعل عندما تبنت المئات من الأسر الأمريكية أطفالاً فيتناميين إبان الحرب الفيتنامية وسقوط سايغون ـ فإن الطفل ينشأ حاملاً لكل خصائص الثقافة الأمريكية، بل وقد يصعب عليه التكيف مع البيئة الثقافية الفيتنامية، تماماً كما يحصل مع أي شاب أمريكي.

يحيطنا الآخرون، الأهل عادة، بشروط وظروف هي عبارة عما نطلق عليه اسم البيئة الثقافية وهي تشتمل على طريقة تحضير الطعام، وطبيعـة المسكن، وشكـل اللباس، ونـوع الألعاب والقصص والأحـاديث، وطرائق التعـامـل، ووسائل الحكم والإدارة والسلطة، إضافة إلى كيفية تنشئة الأطفال وغير ذلك، وهذا كله يقود إلى حصيلة من الأفكار والقيم والمبادىء الأخلاقية. وإذا كـان البعض يظن أن الأفكار هي التي تحدد الإطار العام لثقافة ما، فإن ما يتم على أرضية الواقع هو عكس ذلك، دون أن يعني هذا أنه ليس للأفكـار والمبادىء والقيم أي دور في تحديد أنماط سلوك المجتمع. فبعض الشروط هي بيئية مادية، بدوية أو حضرية، زراعية أو صناعية، ساحليـة أو جبلية وغـير ذلك. وهـذه الشـروط تفرض بعض القيم والأفكـار والمبادىء. وبعض الشـروط هي بيئية اجتماعية، وهذا يتضمن مستوى التعليم ودرجة المعرفة والدين والتراث الفكري عامة، وهذه الشروط البيئية الاجتماعية في علاقة جدلية مع الشروط البيئية المادية

وتشكلان كلاً موحداً، أو كما يحلو للبعض أن يسميه «مركباً» هو الثقافة، يصعب فيه التمييز القاطع بين المادي والعقلي، وليس ماذكرناه من تفرقة بين شروط مادية وشروط اجتماعية إلا من قبيل التبسيط الذي اقتضاه توضيح الفكرة.

إلا أن المجتمع كثيراًما يتعرض لظروف طارئة، أو لشروط مستجدة تقتضي تحولاً ثقافياً، نلحظه في بعض الحالات، ولانلحظه في بعضها الآخر. وعندما تقوم هذه الشروط الجديدة، سواء بفعل عوامل خارجية أم داخلية، تحدث تغييراً كثيراً مــا ينقسم أبناء المجتمع الواحد بشأنه بين مؤيد ومعــارض. أما التـأييد والمعارضة فيتحددان في الغالب وفق المصالح المختلفة لهذا الفريق أو ذاك، أو وفق مدى تأثير الشروط المستجدة على البعض دون البعض الآخر. ذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى التمسك بما هو عليـه من سلوك، يساعـده على ذلـك استمرار الشروط التي تعزز هذا السلوك، فاستمرار الشروط يوفر للثقافة عوامل الدوام والاستمرار، هذا إذا افتـرضنا امكـانية استمـرار هذه الشـروط... ذلك أن المجتمع هو كائن حي، وهو ككل كائن حي يتطور باستمرار، ولما كانت ثقافة المجتمع هي عنوان حيـاة المجتمع، فـإن تطور الثقـافة هـو التعبير عن تـطور المجتمع. وبالمقابل فـإن كل تغيـير في المجتمع يؤدي إلى تغيـير في ثقافـة ذلك المجتمع. من هنا يمكن القول إنه لاتوجد ثقافة واحدة ثابتة ودائمة، وإذا كنـا لانلحظ ذلك عادة فلأن التحول يتم ببطء شديدبحيث نظن أن مانحن عليه من سلوك، وما كان عليه آباؤنا، وما سيكون عليه أبناؤنا هو واحد أو يجب أن يكون واحداً، إلا أن نظرة متأنية كثيراً ماتثبت لنا صحة هذا القول.

الشروط المادية في تغيير دائم، فأنت لاتستطيع أن تضع قدمك في النهر الواحد مرتين، إن مياها جديدة تغمرك باستمرار كما قال هرقليطس، ومع تغير الشروط المادية تتغير الشروط الاجتماعية. والشروط المادية ليست مقصورة عـلى المناخ والجغرافيا كما يمكن أن يتوهم البعض، إنها أوسع من ذلك بكثير فهي تتضمن، على سبيل المثال، التضخم السكاني الذي يمكن أن يصيب بعض المجتمعات، واستحداث وسائل اتصال تضع الجماعة على احتكاك مباشر بجماعات أخرى،

وتوفر أداة حكم حازمة تضبط الأمور، أو عكس ذلك تماماً عدم توفر هذه الأداة، وما ينتج عن ذلك من نتائج تطول كافة مظاهر الحياة في المجتمع، ونهوض قوى جديدة على حدود المجتمع أو قريبة منه. . . . الخ. والأمثلة كثيرة وكلها تساهم في التحول الثقافي الملحوظ وغير الملحوط، وهذا التحول قد يجعل الثقافة في وضع أقوى أو في وضع أضعف، وضعف الثقافة المتلاحق قد يؤدي إلى تلاشيها وفنائها لحساب غيرها من الثقافات، وإن أهمية الثقافة أنها تساعد المجتمع على البقاء والصمود ومسايرة التطور الدائم، فليس هناك من ثقافة صالحة وثقافة طالحة إلا بمقدار ماتمد المجتمع بالقوة، فكل الثقافات صالحة من منظور أبنائها، لكن ماهو صالح وطيب في ثقافة ما قد لايكون كذلك في ثقافة أخرى، كما يقول سكينر، وهذا هو مايسمى بـ «النسبية الثقافية» (١).

وقوة الثقافة أو ضعفها لايكون بمدى قدرتها على الصمود في وجه البيئة المادية فقط، بل بمدى قدرتها على الصمود في وحه الثقافات الأخرى التي يفرض عليها التنافس معها أيضاً. وإذا كان تنافس الشعوب البدائية مع البيئة المادية بالدرجة الأولى، فإن صراع الثقافات في أيامنا هذه لايشكل تحدياً أقل من التحدي الذي مثلته الطبيعة بالنسبة للإنسان الأول. كانت التحولات الثقافية في حياة الإنسان الأول تجري بفعل هيمنته على جانب جديد من جوانب الطبيعة، أو اكتشافه لسر جديد من أسرارها، فلم تكن الثقافة أبداً نتيجة تفكير الإنسان، أو إعمال عقله أو من فعل إرادته «الحرة» كما توهم ظواهر الأشياء، فـ «ما من ثقافة بدأت بعقد اجتماعي، ولم يبدأ أي نظام اقتصادي بفكرة المقايضة أو الأجور، ولم تبدأ أي بنية أسرية نتيجة الفهم العميق لفوائد التعايش الزواجي. إنما تنشأ الثقافة حينما تساعد الممارسات الجديدة على بقاء أولئك الذين يمارسونها»(٢). وإذا كان هذا حال الثقافة ومازال، إلا أن تنافس الثقافات وصراعها قد بدآ يأخذان حيزاً أكبر

---

(١) ـ ب. ف. سكينر. تكنولوجيا السلوك الانساني، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٢٩.
(٢) ـ المرجع السابق، ص ١٣٤

مما كانا عليه في الثقافات البدائية، اللهم إلا في حالات الغزو المباشر من شعب لشعب والتي كانت كثيراً ماتحصل.

وإذا كان تنافس الثقافات قد أخذ يزداد ويتسع إلا أن عاملاً جديداً قد دخل. على الحياة الثقافية بفعل تطور الوعي الإنساني، وازدياد المدارك وتراكم المعرفة، وهو عنصر التخطيط الثقافي لتسهيل التحولات الثقافية التي تضمن استمرار المجتمع واستمرار تماسكه. صحيح أن الإنسان قد عرف ضروباً شتى من التكيف الثقافي، وهو بدون شك قد عمل في كل الظروف على الإبقاء على ثقافته متماسكة أو قوية بادخال تعديلات عليها، إلا أن التخطيط بمعناه الحديث عامل مستجد في حياة الإنسان، وهو بلا ريب عامل فعال أدخل تغييراً ملحوظاً على طبيعة الثقافة، وعلى فهم الإنسان لثقافته، فلم تعد الثقافة هي ذلك السلوك الذي نرثه من الآباء والأجداد، بل أضيف إليها عنصر جديد وهو فاعلية الثقافة في صنع مستقبل الإنسان.

يؤدي التخطيط الثقافي عادة إلى تقوية الثقافة وإعداد المجتمع للصمود في وجه الهجمات الثقافية الآتية من خارج في غالب الأحيان. نقول في غالب الأحيان، لأن بعض الهجمات الثقافية قد تكون من الداخل، من قوى بدأت تفقد نفوذها بسبب التحول الثقافي، وتسعى لإيقاف عملية التحول، والارتداد بالمجتمع إلى ماكان عليه في فترة من الزمان، أو تسعى على الأقل إلى ابطاء عملية التحول. وقد يكون الهجوم من قوى اجتماعية صاعدة تريد تغيير اتجاه عملية التحول لما فيه خدمة مصلحتها، أو مصلحة المجتمع من وجهة نظرها، كما يحدث في الصراعات الايديولوجية داخل المجتمع. إلا أن ما يعنينا هنا أكثر من غيره هو التخطيط الثقافي الهادف لإعداد المجتمع لمواجهة مايجري على الساحة العالمية بحيث لاتفقد الثقافة موقعها في مسيرة العالم فتتأخر عن الركب وتضعف. وقد ينتهي بها هذا الضعف إلى التلاشي. وقد تكون تقوية الثقافة بإحياء وتنشيط رموز المجتمع الثقافية الخاصة، إلا أنها في غالب الأحيان تكون بتعزيز أوجه التواصل ومراكز التحاور مع التحولات الثقافية الكبرى على صعيد العالم، ويدخل في عداد

ذلك محاولات التحديث الاجتماعي بشكل عام، كما حدث في مصر خاصة، والبلاد العربية عامة في القرن المنصرم.

تختار بعض المجتمعات العزلة الثقافية كـوسيلة لتجنب الدخـول في تنافس مفتوح مع غيرها من الثقافات، ومع التيارات الثقافية السائدة في العالم بشكل خاص. وأمثلة هذه المجتمعات كثيرة في عالمنا اليوم، وهي غالباً ماتقوم بتدعيم موقفها عن طريق معززات أيديولوجية كما هو الحال في ألبانيا مثلاً. وكثيـراً ما تختلط المعززات الأيديولوجية مع معززات من الثقافة التقليديـة كما حـدث في الصين أيام موتسي تونغ وإبان الثورة الثقافية. وفي غياب المعززات الأيديولوجية ذات الصبغة السياسية والفلسفية تلجأ المجتمعات التي تختار العزلة الثقافية إلى معززات أيديولوجية من نوع آخر، غالباً ماتكون دينية. إلا أن اختيار العزلـة الثقافية لايبعد الثقافة عن المواجهة المباشرة إلا إلى حين. وكثيراً ماتدخلها عزلتها في مواجهات أعنف قد تأخذ شكل الحروب عندما تكون المواجهة مع الخارج، أو شكل الثورات عندما تكون المواجهة مع الداخل. ذلك أن الثقافـة التي تبتعد كثيراً عن الاتجاه الرئيس للحضارة السائدة مرشحةللتصادم مع الثقافات الأخرى كما تؤكد لنا أحداث التاريخ الحديث والمعاصر.

إلا أن التحطيط الثقافي يطرح قضية في غاية الخطورة بدأت تشغـل اهتمام المعنيين بالثقافة، وهي قضية التوجيه الثقافي، التخطيط الثقافي الذي يوجه الثقافة بحيث تبقى على تحاور واتصال مع مسيرة العالم، فلا تبعد كثيراً فتكون كالحمل الذي يتيه عن القطيع، هو تخطيط في مصلحة الثقافة غالباً، وهو ماتأخذ به أكثر المجتمعـات، حتى المجتمعات التي تقـود مسيرة العـالم اليـوم، لأن التخـطيط والتوجيه يبقيانها في مواقعها المتقدمة. أما التوجيه الثقافي الذي يدخل في عداد غسل الأدمغة، والذي يدفع إلى مواقع متطرفة، فإنه توجيه تترتب عليه نتائج قد تكون خطرة على المجتمع نفسه وعلى العالم بأسره، كما حصل في ألمانيا الهتلرية التي قادت العالم إلى كوارث مازالت آثارها حتى يومنا هذا. والفرق بين ما أسـميناه توجيهاً ثقافياً وما يسمى بغسل الأدمغة هو فرق نسبي، وقد يـرى البعض أنه

لافرق بينهما إلا بالتسمية، إلا أن البعض الآخر يرى أن التسميةتشير إلى درجة التوجيه وهل هو معتدل أم متطرف. إلا أن القضية تبقى مطروحة، إذ ماهو المعيار الذي نقيس به فنقول هذا معتدل وهذا متطرف؟ ومن الذي يقرر ويخطط ويوجه؟ ولمصلحة من؟ وماذا لو رأت مجموعة ثقافة ما أن مسيرة العالم الثقافية والحضارية هي التي تحتاج إلى توجيه؟ وهو مايحدث فعلاً على أرض الواقع في عالمنا اليوم، بل قل هو مايزداد حدوثه بسبب تكاثر سلبيات المسيرة الحضارية الراهنة.

ومن الطبيعي أن يرتبط موضوع توجيه الثقافة بالقيم، فمن جهة ماهي القيم التي تحكم توجيه الثقافة؟ ومن جهة أخرى هل الثقافة الأحدث هي بالضرورة أحسن من الثقافة الأقدم؟ لقد أشرنا قبلاً إلى أن ماهو حسن أو قبيح في ثقافة ماهو حسن أو قبيح بالنسبة لتلك الثقافة أولاً، وقد تشترك معها بعض الثقافات في موقفها هذا إلا أن ثقافات أخرى قد تختلف. فالحسن والقبيح هما كذلك من موقع معين وقد ينعكسان بتعاكس المواقع. وهذا قد يعني أن التحول الثقافي لايقود بالضرورة إلى ثقافة أحسن، إلا أنه يقود على الأرجح إلى ثقافة أنسب، أي ثقافة أكثر توافقاً مع ماعليه المجتمع. ولأن التحول الاجتماعي يقود حتماً إلى تحول ثقافي، فإن بعض المجتمعات تتقبل بعض التحولات في بعض الميادين وتقاومها في ميادين أخرى، فينتج عن ذلك ما نسميه بالأزمة الثقافية. وإذا كنا قد حرصنا على استخدام تعبيري ثقافة قوية وثقافة ضعيفة، فما ذلك إلا اقراراً بأن الثقافة القوية ليست بالضرورة أحسن من وجهة نظر القيم، إلا أنها بالضرورة أحسن من وجهة نظر مصلحة المجتمع، ذلك أن الثقافة الأقوى تضع المجتمع في موضع أقوى في علاقتها من الثقافات الأخرى ومع المسيرة الحضارية.

أهمية التحول الثقافي والتقدم الثقافي وتحديث الثقافةلاتتأتى لأنها تقود إلى ثقافة أحسن قيمياً وأخلاقياً، وإن كان المجتمع يكسبها هذا الطابع حتى لو لم تكن كذلك من وجهة نظر الثقافات الأخرى. أهميتها تتأتى من كونها تعطي الثقافة فرصة أحسن للبقاء في تحاورها وتواصلها مع الثقافات الأخرى، فيتشكل من

المجموع منظومة متماسكة رغم ما بينها من اختلافات يصدق عليها تعبير «الوحدة في التنوع».

لقد مرت البشرية بحقب أو عصور ثقافية هي مانطلق عليه اسم الحقب أو العصور التاريخية، وهذه العصور تصنف عادة بحسب استخدام الإنسان لمادة الأدوات والآلات التي يستعملها فنقول العصر الحجري والبرونزي وغيرهما. إلا أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المحدثين يفضلون تصنيفاً جديداً بحسب وسائل الانتاج(١) من الصيد على درجاته، إلى الزراعة، إلى الصناعة، ويمكن الآن ادخال عصر جديد هو عصر التكنولوجيا. لقد نظر الإنسان إلى هذه الحقب أو العصور على أنها درجات تقدم عبرها الإنسان وترقى. ورغم مافي كل عصر من سلبيات لايمكننا تبيان معالمها بدقة، استوعب كل عصر من هذه العصور ماسبقه وتخطاه، وهدم تكوينات وثقافات واستبقى ما يتماشى معه منها. ومن المرجح أن إنسان المستقبل عندما يدخل في عصر جديد سينظر إلى عصر التكنولوجيا كما ننظر نحن الآن إلى عصر الصيد، مثلاً على أنه خطوة إلى الأمام، رغم كل ما فيه من نواقص وسلبيات. ولايعني هذا بحال أن نقبل عصرنا بسلبياته وايجابياته، ولنكن انتخابيين انتقائيين حيثما أمكننا ذلك، وكلما امكننا ذلك، مادام ذلك ممكناً.



---

(١) انظر بهذا الصدد الدراسة القيمة لأحمد ابوزيد تحت عنوان «الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولاوجيا» مجلة عالم الفكر، المجلد ١٥، العدد ٣، ص ٣ وما بعدها.

الفصل الثالث

في ماهية الحداثة والمعاصرة

١ ـ تمهيد

يسعى الإنسان إلى التحديث لما ينطوي عليه من تقدم وتطور يتيحان فرصة تحقيق مستوى أعلى من الحياة. ولايقتصر التقدم والتطور على الجانب المادي، فهما لايقاسان بالازدهار الاقتصادي وارتفاع مستوى الدخل القومي فقط. إنهما يتسعان لمضامين متنوعة مثل النضج والوعي السياسيين المتمثلين في إقامة نظام سياسي، وتأسيس سلطة تعبر عن إرادة المواطنين وترعى حقوقهم وتؤمن مصالحهم. ويتضمن التقدم والتطور إلى جانب ذلك الارتفاع بمستوى العلم والمعرفة الإنسانيين، وتوسيع دائرتهما لما فيهما من تحقيق ذاتية الإنسان وتفجير طاقاته الكامنة. ينتج عن ذلك ازدياد فرص الإبداع، واتساع الدوائر التي يتجلى فيها هذا الابداع: من ميادين الأدب والفن والفكر والمعمار ووسائل الترفيه، وكافة أوجه النشاط الإنساني. وينعكس هذاكله على الفرد الإنساني وعلى المجتمع ككل، متيحاً المزيد من الفرص لمزيد من التقدم والتطور، وبالتالي لمزيد من التحول في حياة الإنسان بل وفي الإنسان نفسه. ويمكن النظر إلى هذا التحول على أنه غاية في ذاته، باعتبار أن تقدم الإنسان هو غاية في ذاته، وهو في الوقت عينه وسيلة لمزيد من التقدم والتطور.

الحداثة هي المشاركة والمساهمة في هذا التحول الكبير الذي تشهده الإنسانية اليوم. لقد مرت الإنسانية في عدة تحولات كبرى: قيام المجتمعات البشرية بأشكالها البدائية، وظهور الحضارات الإنسانية، واخيراً نهوض حضارة العلم والتكنولوجيا وانتشارها فوق كوكبنا الأرضي. ومن الطبيعي أن يكون هناك

تحولات كبرى أخرى في تاريـخ البشريـة، إلا أنه يمكن تضمينهـا في المحطات الأساسية التي أشرنا إليها. وإذا كان من المنطقي أن تأتي هذه المحطات واحدة تلو الأخرى، فتكون الأولى تمهيداً للثانية، والثانية تمهيداً للثالثة، وهو ماتم فعلاً على أرض الواقع، إلا أن هذه المراحل أو المحطات تداخلت في بعض الحالات بحيث إننا مازلنا نجد بعض المجتمعات البدائية تعيش على هامش عالمنا اليوم، كما نجد بعض الحضارات السابقة على حضـارة العصر الحـديث تسعى لأن تبقي على استمرارية وجودها ودورها.

للحداثة وجوه متعددة، قد تأخذ شكل النضال لتحقيق التحرر والاستقلال الوطني، وقد تأخذ شكل التنمية عبر التخطيط الاقتصادي، وقد تكـون بمزج عناصر ثقافية تقليدية مع عناصر ثقافة العصر، أو تكون بإعـداد البنى التحتية الأساسية لقيام المجتمع الحديث، وقد تـأخذ شكـل اقتباس أسبـاب الحضارة الراهنة ومظاهرها، دون أن يكون هذا العامل أو ذاك كافياً وحده لإتمام عملية التحديث. فالحداثة لاتقتصر على جانب واحد من جوانب حياة الفرد والمجتمع: إنها عملية تتسع لتتناول الاقتصاد والسياسة والنظام الاجتماعي بأسره، وبما فيه من زراعة وتجارة وصناعة ومؤسسات حكم وقوانين وتشريعات ومؤسسات تعليم وجيش وتجمعـات بشريـة، ومن الأسرة إلى القـرية إلى المـدينة إلى الاحـزاب والنقابات. . . الخ.

تتشـابك مسيـرة التحديث التي يشهـدهـا عـالمنـا اليـوم مـع مسيـرة العلم والتكنولوجيا، لهذا كان من السهل الوقوع في خطأ الخلط بينهما إلا أنه من المهم بمكان أن نفرق بين حركة العلم والتكنولوجيا من جهة، وهي التي أدت إلى بلورة المجتمعات الصناعية المتطورة، ومجمل التحولات التي أدت إلى انتشار الحداثة فوق رقعة عالمنا من جهة أخرى. صحيح أن هذه التحولات تتوقف على حركة العلم ومنجزاته المادية المعروفة باسم التكنولوجيا، إلا أن هذه التحولات ليست هي نفس حركة العلم والتكنولوجيا، فلايكفي في حديثنا عن الحداثة أن نتحدث عن حركة العلم والتكنولوجيا. يمكن القول إن الحداثة تفيد من التقدم العلمي

والتكنولوجي وتعتمد عليهما: إنها أقرب مايكون إلى الروح العلمية، أو إلى روح التفكير العلمي. لقد عرفت الحضارات السابقة هذه الظاهرة بدرجات متفاوتة، حيث كان بعض النشاطات والقيم الإنسانية ينتظم بشكل عقلاني في أنساق موضوعية بعيداً عن الخرافة أحيانا، وبعيداً عن عالم الغيب أحياناً أخرى. لقد تطورت هذه الظاهرة واتخذت أشكالاً متجددة في حضارتنا الراهنة.

للحداثة وجه خارجي يتجسد بالمنجزات المادية والتطورات العلمية والتكنولوجية أي بالمحيط الإنساني، ووجه داخلي يتجلى بالسلوك والشعور والقيم الإنسانية. فالحداثة لاتقوم بذاتها، إنها بحاجة إلى ذلك الاطارأو النسق الاجتماعي الذي يشمل الوجهين المادي والمعنوي، وهي بحاجة دائماً إلى الإنسان المحدث تقيم معه تلك العلاقة الجدلية الضرورية التي تغذي الطرفين. الإنسان المحدث لايولد من العدم، إنه بحاجة دائماً إلى تلك الشروط المادية التي تجسد الحداثة الخارجية كما اسميناها، وهذه بدورها لاتقوم بدون الإنسان الفاعل المنفعل بها.

ولكن من هو الإنسان المحدث أو العصري، وما الذي يجعله كذلك؟ اختلفت الإجابات عن هذا السؤال وتعددت، وهو أمر طبيعي، لأن مفهوم الحداثة أو العصرنة هو أمر نسبي ومتجدد دائماً لايمكن الإمساك به وتحديده مرة وإلى الأبد، ولأنه يتناول، إضافة إلى حياة الإنسان الخارجية أو الظاهرية، القيم والسلوك والمشاعرالإنسانية التي تحتاج إلى سبر وتحليل لايتيسران بسهولة. من هنا كان أكثر المحاولات لتحديد خصائص الإنسان العصري يكتفي بوصف المحيط الذي يعيش فيه هذا الانسان، ولأن هذا الوصف يتناول أكثر مايتناول المجتمعات الصناعية الغربية، فإنه يقابل بالكثير من التحفظ في المجتمعات النامية التي تجد نفسها في موقع المواجهة والصراع مع المجتمعات الغربية ليس لأسباب تتعلق بالحداثة والحضارة المعاصرة، بل لأسباب سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى.

ومع أنه لا يوجد تعريف جامع مانع ـ كما يقول المناطقة ـ للإنسان العصري أو المحدث فإن هناك بعض الخصائص التي يتصف بها هذا الإنسان، والتي هي

حصيلة التطورالإنساني منذ بدأ الإنسان مسيرته الحضارية. هذه الخصائص تتراوح بين القبول الكامل والقبول الجزئي من الباحثين الاجتماعيين، وفلاسفة التاريخ، والمشتغلين بموضوع التحديث، والمفكرين، والدارسين بشكل عام. إنها خصائص مشتركةبين أفراد قد ينتمون إلى مجتمعات مختلفة، بعضها صناعية وبعضها فوق صناعية، وبعضها نامية، إلا أنهم يتصفون بالحداثة أو العصرنة. وتهيمن على هذه الخصائص النزعة العقلانية، وتسودها روح التفكير العلمي التي لاتعني الابتعاد عن الايمان الديني، بل الابتعاد عن الخرافة.

٢ ـ خصائص الإنسان العصري

والترتيب الذي نعتمده في عرض بعض هذه الخصائص لايعبر بالضرورة عن أهميتها وتقدمها بعضها على بعض.

أول مانعرض له من خصائص الإنسان العصري استعداد هذا الانسان للأخذ الواعي العميق بمبدأ الحرية والديموقراطية بأوسع معانيهما إن مراجعة سريعة لأنماط التفكير في المجتمعات البدائية والتقليدية تظهر عدم استعداد الفرد والمجتمع على حد سواء قبول الاختلاف في الرأي، بل إن الخلاف في الرأي يعتبر جريمة لايتساهل المجتمع حيالها، وفي أكثر الحالات يعتبر هذا الخلاف ضرباً من الخروج والزندقة والكفر. لم تعرف هذه المجتمعات الحرية إلا في حدود ضيقة، أو لنقل إنا لم تعرف الحرية بمعناها الحديث الذي بدأ يظهر مع النهضة الأوروبية. ولانريد هنا استعراض الأمثلة المتعددة، ويكفي أن نقول إن مصطلح الحرية الذي نستخدمه باللغة العربية اليوم يشير إلى الحرية السياسية، والحرية الدينية، وحرية الرأي وغيرها، كان قبل القرن التاسع عشر، وقبل استخدامه بهذا المعنى الجديد على يد رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، كان يقتصر على معنى الحرية في مقابل العبودية، دون أن يفهم منه أي من المعاني المستحدثة.

لقد أدرك رواد النهضة في البلاد العربية، ولاسيما الطهطاوي والتونسي والكواكبي، أهمية مقولة الحرية في المجتمع الحديث ودورها الذي لاغنى عنه،

وأنها ملازمة للحداثة والتقدم والازدهار في حين أن الاستبداد والطغيان ملازمان للتخلف. فرفاعة الطهطاوي يفرد فصولاً مطولة في كتابه **تخليص الإبريز في تلخيص باريس**(1) يتحدث فيها عن المؤسسات الدستورية والشعبية الضرورية اللازمة لممارسة الديموقراطية، وعن الحرية وضروبها وأقسامها وأشكالها، ولا ينسى بشكل خاص حرية الرأي والمعتقد فيفرد لهما الصفحات الطوال ويشير إلى دور الصحافة ووسائل الإعلام.

أما خير الدين التونسي فإنه يتخذ من عبارة ابن خلدون الشهيرة «الظلم مؤذن بخراب العمران» مدخلاً مناسباً يعرض فيه رأيه في أن أسباب العمران تتأسس على «دعامتي الحرية والعدل» وان التقدم في العلوم والمعارف والصناعات وبالجملة تقدم المجتمع ككل، ونهوضه إنما يقوم على هاتين الدعامتين الأساسيتين» وعندما يعرض خير الدين للعوامل التي تؤدي إلى نهوض المجتمعات وسقوطها، أو تقدمها وتخلفها فإنه يرى أن التقدم لايكون بدون العدل والمساواة والأمن والحرية، في حين ان الطغيان والظلم والاستبداد تلازم التخلف والتفكك والسقوط. لقد أفرد خير الدين فصلاً خاصاً في مقدمة كتابه **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**[2] تحت عنوان «مطلب عواقب الاستبداد والعمل بالرأي الواحد» «استشهد فيه على عواقب الاستبداد بسوقه لما جرى لفرنسا من الهزيمة عندما استبد بقيادتها نابليون بونابرت رغم أنه من القلائل الذين جاد بهم الدهر.

وأما الكواكبي فقد صاغ نظرية متكاملة في الاستبداد عرضها في كتابه **طبائع الاستبداد** شرح فيها العلاقة الضرورية بين الاستبداد والتخلف، وقدم فيها،

---

(1) ـ انظر رفاعة الطهطاوي· «الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي» الجزء الثاني· في السياسة والوطنية والتربية، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣.

(2) ـ انظر معن زيادة: خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥.

ولو بطريقة غير مباشرة، دفاعه القوي عن الحريـة وعن ملازمتهـا وضرورتهـا للمجتمع المزدهر والمتقدم.

الإنسان المعاصر الآخذ بالحداثة، أو بشيء منها على الأقل، أكثر استعداداً لقبول تعدد الآراء، وتعدد وجهات النظر حوله. إنه لايفترض أن على الآخرين أن يفكروا مثله تماماً، وأن وجهة نظره هي وجهة النظر الوحيدة الصحيحة. إنه لايخشى أن تؤدي وجهات النظر الأخرى إلى تقويض وجهة نظره في الحياة والعالم والكون وكل شيء حولها. إنه لايغلق نفسه عـلى آرائه، ولايتعـامل مـع آراء الآخرين بطريقة استعلائية فوقية ولايقاربها بنزعة اوتوقراطية. إنه لايسلم بكل مايأتيه من أرباب السلطة فوقه كالأب أو شيخ القبيلة أو الكاهن ورجل الدين أو الأمير والسلطان، وهو في الوقت نفسه لايرفض حق الذين يأتون بعده في السلم الاجتماعي بإبداء الرأي والتعبير والاختلاف في الرأي. إنه على غير استعداد لأن يفوض حريته لغيره، أو أن يصادر حرية غيره، بل إنه على استعداد لأن يقاتل مدافعاً عن حريته وحرية الآخرين حتى الموت، وقد عبر فولتير أحسن تعبير عن حال هذا الإنسان حين قال: «قد اختلف معك في الرأي إلا أنني على استعداد لأن أموت في سبيل حرية رأيك».

لقد أجرى بعض الدارسين الاجتماعيين استفتـاءات متعددة في مجتمعـات متنوعة متعايشة في عالمنا اليوم، بعضها يمكن أن يوصف بأنه مجتمع حـديث، وبعضها بأنه مجتمع تقليدي، وآخر بأنه مجتمع بدائي. وكانت الأسئلة تتركز حول حق الإنسان في أن يختلف بالرأي في القضايا الأساسية مع من هم فوقه في السلم الاجتماعي دون أن تسقط الرابطة القبلية أو الدينية أو الوطنية أو السياسية التي تربطه بها. كما كانت الأسئلة تهتم بما إذا كان هذا الإنسان يحفل بآراء من هم تحته في الأسرة والمجتمع كالابن والأخت والزوجة والتابع والأجير، وما إذا كان يأخذ هذه الآراء على محمل الجد وخصوصا فيـما يتعلق ببعض الأمور الأسـاسية في الحياة. لقد كانت هذه الأسئلة والإجابات عنها مؤشرات تميز فرداً عن الآخر، وتؤكد أن استعداد الإنسان للأخذ بمبدأ الحرية بمعناها النظري وأبعادها العملية

هو عامل حاسم من عوامل التمييز بين الإنسان العصري والإنسان التقليدي، وبين الإنسان المنفتح والإنسان المنغلق، وبين المتقدم والمتخلف.

أخذت قضية الحرية منذ مطلع العصور الحديثة تحتل مكانتها البارزة في حياة الإنسان المعاصر، فقد كان نهوض القوميات في أوروبا ونشوء المجتمعات القومية يأخذان طريقيهما إلى الوجود عبر ثورة البرجوازية الأوروبية الأولى، وهي ثورة تثبيت الحريات المدنية وحقوق المواطنين في مواجهة سلطة الملوك المطلقة التي كانت من معالم الحياة الاجتماعية والسياسية في القرون الوسطى. وقد ظلت قضية الحرية تشق طريقها إلى الأمام حتى باتت ملازمة للحداثة والتطور والتقدم. صحيح أن الإنسان في الحضارات السابقة، ولاسيما في الحضارة العربية الإسلامية، قد عرف بعض أشكال الحرية ومتعلقاتها، كاستقلال الشخصية الذي عرف به العربي الجاهلي، وكالحض على التشاورالذي أمر به الإسلام، إلا أن الحرية بآفاقها الجديدة، والديموقراطية بمؤسساتها اللازمة لها كالجمعيات والنقابات والأحزاب والصحافة والمؤسسات الدستورية ومؤسسات الدولة الحديثة هي من نتائج ومستلزمات العصور الحديثة.

ويرتبط بموضوع الحرية والديموقراطية الذي نتناوله هنا أخذ الإنسان العصري المحدث بمبدأ العدالة الاجتماعية واعتقاده بأن حصة الفرد ونصيبه يجب ان يتناسبا طرداً وعكساً مع مدى مساهمته في الانتاج ومع دوره في خدمة المجتمع. ومن الطبيعي أن يحد هذا الموقف من الامتيازات المكتسبة لأسر الملوك وطبقة النبلاء والأشراف وأصحاب الألقاب، ولانقصد بهذا أن المجتمعات الحديثة قد تخلت نهائياً عن كل الامتيازات التي تختص بها بعض الفئات والأفراد، ولكننا نقصد أن نهج التحديث يسير وفق خط معاكس لهذه الامتيازات باعتماده أسساً من قبيل «لكل فرد حسب حاجته»، كما نجد في المجتمعات الحديثة ذات التوجه الاشتراكي، أو من قبيل «لكل فرد مقدار مساهمته» كما نجد في المجتمعات الغربية الحديثة.

ومن الواضح هنا أننا لانتحدث عن مجتمع معين أو مجموعة مجتمعات، وإنما

نتحدث عن ذلك الخط العريض الذي سارت فيه مسيرة التحديث منذ انطلاقتها في مطلع العصور الحديثة، وعن ذلك التوجه العام الذي توجهته البشرية جمعاء بشكل عام، حيث الغيت امتيازات الطبقات، وخصوصا مع نهوض الثورة الفرنسية، وقيدت الملكيات، وبدأت الشعوب تأخذ بأسس التوزيع العادل كما تراها من منظار ايديولوجيتها الخاصة.

ويرتبط بموضوع البحث هنا تطور مفهوم الكرامة الإنسانية وفق مبادىءالحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية. لقد خفت تلك النزعة التي تربط كرامة الفرد بالحسب والنسب والشرف والتي هي بوجه من الوجوه من مخلفات عصور العبودية، لتحل محلها نظرة جديدة للكرامة الإنسانية ـ تتخطى الأجناس والألوان وتحترم الكبير والصغير، وتساوي بين المرأة والرجل، ولا تفرق بين الأفراد إلا بمقدار اغترافهم من معين المعرفة، ودورهم في المجتمع، ومقدار انتاجهم، مع توجه دائم إلى إلغاء النظرة القديمة إلى مهن وضيعة ومهن شريفة، كما نجد في أكثر المجتمعات التقليدية.

ومرة أخرى لابد من التأكيد هنا على أننا لانشير إلى مجتمع بعينه، أو إلى معسكر دون آخر، فنحن نتحدث عن توجه عام أخذت تتجهه البشرية مع مطلع العصور الحديثة. وقد يجد بعضنا أمثلة صارخة تختلف مع هذا التوجه العام الذي نشير إليه حتى في أكثر المجتمعات حداثة وتحضراً، إلا أن هذا لايلغي مانقول والشواهد كثيرة، دون أن يعني هذا أن الثغرات وبؤر التخلف ليست كثيرة ايضاً.

تبقى نقطة لاتكتمل الإشارة إلى هذه الخاصية من خصائص الإنسان العصري دون ذكرها، وهي أن حرية الفرد والمجتمع ككل تتعرض لمحنة كبرى بسبب طغيان الآلة والتكنولوجيا عموماً في الحياة العصرية، وبسبب تسارع انتاج الآلات المتطورة وبالتالي ازدياد شعور الإنسان بالعجز، واخيراً بسبب تسابق التسلح الرهيب الذي يهدد المستقبل الإنساني. لقد نتج عن هذا كله قيام هوة كبرى داخل المجتمعات التكنولوجية المتطورة بين تحالف الطبقة الحاكمة وأصحاب

الشركات الكبرى والمؤسسة العسكرية والاغلبية الساحقة من المواطنين التي ليس لها اي كلمة فاعلة في صنع القرار. وهي هوة ثقافية اجتماعية تعطل الممارسة الحقيقية لمقولة الحرية، فمن جهة هناك نخبة من العلماء والمخترعين والتكنولوجيين، وهم بحكم موقعهم هذا وبحكم تحالفهم وعملهم في خدمة أصحاب الشركات الكبرى والمؤسسة العسكرية والطبقة الحاكمة عموماً يملكون قوة هائلة، ومن جهة أخرى هناك غالبية أشبه ماتكون بالعمياء بسبب أميتها بالقياس إلى النخبة العلمية ـ التكنولوجية الجديدة. لقد خلقت التكنولوجيا باندفاعاتها الكبرى وعدم التزامها حدود المصلحة العامة، وعدم سعيها إلى التبسيط خدمة للغالبية من جهة، وللبشرية جمعاء من جهة أخرى، خلقت «معرفة» جديدة «وأمية» من نوع جديد. فاذا انتقلنا بهذه الهوة داخل المجتمعات التكنولوجية المتطورة إلى خارجها، أي إلى العالم على امتداده، وجدنا هذه الهوة تزداد اتساعا بين أقلية تصنع وتفعل وتمارس حريتها على هواها وأكثرية تابعة لاتملك من أمرها شيئاً.

من خصائص الإنسان العصري البارزة تلك الحالة العقلية أو ذلك الاستعداد النفسي لقبول التغيير والدخول في تجارب جديدة والانفتاح على الآخرين أفراداً ومجتمعات. وفي المقابل فإن من خصائص الإنسان التقليدي المحافظ عدم قبول الأفكار الجديدة، ورفض الدخول في تجارب ونشاطات قد تصل به إلى نتائج مغايرة لما درج عليه في حياته الخاصة وحياته المجتمعية. إنها تلك الحالة العقلية أو النفسية، أو ذلك الاستعداد الداخلي للانفتاح على فكرة أننا نعيش في عالم متطور متجدد باستمرار، وأن عالمنا ليس ستاتيكيا ثابتا يمكن ادراج كل ما فيه في مقولات محددة، كما فعلت فلسفة أرسطو مثلا عندما قسمت كل مافي الوجود إلى عشرة مقولات لايشذ شيء من الوجود عنها.

هذه الحالة العقلية أو النفسية لاتتوقف بالضرورة على مدى تقدم المجتمع تكنولوجيا، ولا على تطوره الصناعي وازدهاره الاقتصادي، فكثيرا مانجد بعض المشتغلين بأحدث الصناعات والمتعاملين مع آخر منتجات التكنولوجيا منغلقين

على أفكارهم وآرائهم ومشاعرهم مكتفين بما درجوا عليه في حياتهم الفردية وفي بيئتهم، في حين نجد بعض الأفـراد في بعض المجتمعـات النـاميـة، أو حتى المتخلفة، أكثر استعداداً لقبول التغيير واكثر انفتاحاً على التجديد. درجة الحداثة واقتراب الإنسان منها أوابتعاده عنها، لاتحددهما بالضرورة الأدوات المتوفرة لهذا الإنسان، فقد يكون الفلاح الذي يستخدم المحراث البدائي أكثر حداثة ـ بوجه من الوجوه ـ من المزارع الذي يمتلك المحراث الآلي. صحيح أن للآلة دورها الفاعل في فكر الإنسان وسلوكه، إلا أن ما نتحدث عنه هو خاصيـة عقلية أو نفسية لاتتوقف على وجود الإنسان في بيئة مصنعة أو غير مصنعة.

ويظهر الاستعداد أو الحالـة الفكريـة والنفسية التي نتحـدث عنها بـأشكال متعددة، قد يكون ذلك بموافقة الفلاح على استخدام أسمدة جديدة غير مادرج عليه آباؤه وأجداده، وقد يكون بتجريب أدوية جديدة، أو وسائـل في العلاج مختلفة، أو اغذية جديدة، أو طرق جديدة في التموين كقبول استخدام اللحوم والأسماك المجلدة بدلاً من الطازجة في بعض الحالات. وقد يكون بالموافقة على تعـديل طـرق التعليم ومضمونـه، وأشكـال وأنمـاط العيش والسكن وإقـامـة الاحتفالات والمآدب وغيرها.

يختلف الأفراد، كما تختلف المجتمعات في مدى استعدادها لقبول التجديـد والتغيير في بعض المجالات أكثر من غيرها، إلا أن مايهمنا هنا هو ذلك الانفتاح الذي دلت بعض الدراسات على انه أحد مظاهر الحداثة، كما أظهرت التجارب والاستفتاءات أن من مميزات الإنسان العصري المحدث معرفته أنه يعيش في عالم متحرك تسوده علاقات متحركة وأنماط سلوك متجددة.

ويرتبط بهذه الحالة العقلية اهتمام الإنسان بجميع الأحداث والتطورات التي تـطرأ على مجتمعـه وعلى العـالم بأسـره، واتخـاذه مـواقف من هـذه الأحـداث والتطورات، وعدم انغلاقه على مجتمعة الصغير قبيلة كان أم عشيرة أم قرية أم طائفة أم قطرا من الأقطار. ذلك أن من معايـير العصريـة والحداثـة أن يدرك الإنسان أن عالمنا هو عالم واحد، وأن مايجري في أحد أجزائه يهم الجزء الآخر

ويعنيه، وأن البشرية تشكل كلاً موحداً رغم الصراعات السياسية والمطامع الاقتصادية والاختلافات الثقافية والفكرية والخلافات الأيديولوجية. إن من شأن وعي من هذ النوع أن يجعل الإنسان معنياً بكل مايدورفي هذا العالم، ومن شأنه أيضاً أن يدفع بصاحبه إلى النظر في إرث البشرية جمعاء على أنه إرث له، وأن تجارب الآخرين وأنماط حياتهم قد يكون فيها ماهو جدير بالاقتباس. وهو في هذا على عكس الإنسان التقليدي الذي ينظر إلى كل ماهو مختلف، وكل ماهو بعيد عن مجتمعه الضيق بشيء من الريبة والحذر.

ومن خصائص الإنسان المحدث ومعالم المجتمع المتحضر موقف الإنسان والمجتمع من الزمان. فإذا كان هذا الإنسان وذلك المجتمع معنيين بالحاضروالمستقبل يعملان من أجلهما ويهتمان بهما أكثر من اهتمامهما بالماضي، فإنهما - على الأرجح - أقرب إلى الحداثة منهما إلى التقليد. أما إذا كان الماضي يهيمن على تفكير الفرد، ويرخي بظله على حياة المجتمع بحيث يصبح الفرد أسير عالم الآباء والأجداد، والمجتمع أسير ماضيه، فإننا أمام ظاهرة تقليد لاظاهرة حداثة. في ظل أوضاع من هذا النوع تضطرب الرؤية وتختل الموازين، ويعجز الفرد والمجتمع عن توجيه ربان سفينتهما الوجهة الصحيحة

ويمكن أن نضيف إلى هذا أن الإنسان المحدث يمتلك رؤية ديناميكية للزمان، فالزمان متجدد باستمرار. إنه الأرضية المتحركة التي يتحرك ويتغير كل شيء بصيرورتها الدائمة، فقد خلقنا لزمان غير زمان آبائنا، وأولادنا خلقوا أو هم يخلقون لزمان غير زماننا.

ويرتبط بهذا الموضوع ادراك الإنسان وشعوره بأهمية الزمان ودوره، وضرورة تنظيم الزمان، وأهمية برمجة الوقت، وعلاقة ذلك بدقة المواعيد، وانتظام أوقات العمل، وتحديد أيام الراحة وساعات اللهو. وإذا كان من الأقوال السائرة عند الأمريكيين اليوم ان «الوقت هو مال»، وهو مايمكن التعبير عنه بقولنا «الوقت من ذهب»، فإن أهمية الوقت لاتأتي من إمكانية استغلاله للكسب فقط، بل لتحقيق ذات الإنسان بتحصيل مزيد من المعرفة والخبرة والانتاج وبالتالي المساهمة ضمن

الحدود الممكنة بالتطور والتقدم وصنع الحاضر والمستقبل. وهذا بدوره ينعكس على نظرة الإنسان لدوره وثقته بنفسه وتحديد مكانته في المجتمع.

لايكفي أن يكون مفروضا عليناأن نلتزم مواعيد دقيقة في عملنا وعلاقـاتنا بشكل عام. فنحن لانتحدث هنا عن أن الحياة العصرية تفرض على الإنسان التقيد بالمواعيد الدقيقة كموعد بدء العمل في المصنع، أو بدء الدرس في المدرسة أو الجامعة، أو موعد اقلاع الطائرة أو القطار أومايشبه ذلك، نحن نتحدث عن تلك النظرة إلى الزمان التي ترى فيه سلما صاعدا، أو طريقا مازال علينا أن نتقدم فوقها، إنها عكس تلك النظرة التي ترى أن الماضي خيرمن الحاضر، وأن علينا أن نحاول إعادة تركيب الماضي في الحاضر والمستقبل إذا كان ذلك ممكنا. هذا هو الفرق الجوهري بين نظرتين إلى الزمان إحداهما نسميها محدثة والثانية تقليدية.

ومن الواضح هنا أن هذه النظرة إلى الزمان ليست بالضـرورة وليدة الحيـاة العصرية، وأن بعض الشعوب والمجتمعات القديمة كانت تأخذ بها، أو على الأقل أن النخب القيادية فيها كانت تمتلك هذه النظرة إلى الزمان. اندفاع الاغريق تحت ريادة الإسكندر إلى خارج بلاد اليونان، ومحاولة توحيد العالم وانطلاق العرب بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتأسيس امبراطورية مترامية الأطراف لم تكن تستند إلى رؤية تقليدية للزمان، بل كانت تعتمد النظرة التي نرى أنها نظرة المحدثين إلى الزمان. إنها نظرة المجتمع الناهض في مقابل نظرة المجتمع الهابط، نظرة الإنسان السائر إلى الأمام في مقابل نظرة المتجه إلى الوراء، وعلى هذا فقد يمتلك هذه الرؤية للزمان إنسان يعيش في مجتمع بدائي أو متخلف إلا أنه يؤمن بمستقبل شعبه ويعمل من أجله، وقد يمتلك نقيضهـا إنسـان يعيش في أكـثر المجتمعات تقدما إلا أنه يرى أن العصر الـذهبي للبشريـة قد ولى وانقضى. الخاصية موضوع حديثنا إذن، هي خاصية ثقافية لفرد أو لشعب يمكن أن تنبثق في أي مكان أو زمان بغض النظر عن كل مايحيط بهذا الفرد أو ذاك الشعب.

يترتب على هذه النظرة إلى الزمان التي نعتبرها من معالم الحداثة ومن خصائص

الإنسان العصري، الأخذ بالتخطيط كوسيلة ضرورية لتحقيق مشاريع مستقبلية ضمن فترة زمنية محددة. لقد أصبح التخطيط معلماً من معالم التفكير الحديث، بحيث لم يعد الإنسان العصري يستغني عنه في حياته الخاصّة والعامة. صحيح أن الحضارات السابقة والمجتمعات التقليدية قد عرفت ضروباً من التخطيط لم تكن تحمل هذه التسمية، إلا أن التخطيط لم يكن جزءاً من حياة الفرد ونظام المجتمع كما هو عليه الآن، فإذا أضفنا إلى هذا تلك العلاقة التي نجدها أساسية بين التخطيط والنظرة الديناميكية إلى الزمان وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة جديدة تميز الإنسان المحدث على الإنسان التقليدي. ويكفي في هذا المجال أن نعقد مقارنة سريعة بين التخطيط والارتجال اللذين نجدهما في الكثير من المجتمعات غير المتقدمة، وما نجد من اعتماد للتخطيط والتنظيم كنهج حياة وأسلوب عمل مدروس في المجتمعات المتقدمة حتى ندرك صحة ما نقوله هنا.

ويستتبع التخطيط والرؤية الثورية للزمان ـ إذا صحت هذه التسمية ـ اهتمام الإنسان العصري المحدث بالاتقان، ودقة التنفيذ، والثقة بالنجاح في المسعى. ذلك أن من مظاهر الحداثة وعلاماتها البارزة ثقة الإنسان بقدرته على التحكم بالمحيط، والسيطرة على الطبيعة بدرجات لم تكن تخطر على بال الإنسان القديم، أو إنسان العصور الوسطى، أو حتى إنسان مطلع العصور الحديثة. من المعروف مثلاً أن الفيضانات والأعاصير تجتاح الهند سنوياً وبشكل منتظم ودوري تقريباً، وبعد هبوب أحد الأعاصير التي كان ضحيتها عدة الوف من المواطنين كان تعليق الوزير المختص أن على الهند أن تعيش مع هذا الواقع، فكانت ردة الفعل واسعة ضد هذا التعليق الذي كان يعبر عن موقف متخلف غير عصري، وقد أجبر ذلك الوزير على الاستقالة تحت ضغط الرأي العام وحملة وسائل الإعلام عليه. وقد أجرى بعض المعنيين بموضوع الحداثة استفتاءات كانت تطرح فيها أسئلة من قبيل: هل تعتقد أن الإنسان يستطيع أن يكتشف الوسائل التي يستطيع أن يتحكم عبرها بالفيضانات والأعاصير؟ وقد بيّنت هذه الاستفتاءات أن الإجابة بالايجاب أو النفي كانت مؤشراً يفرق بين إنسان محدث وإنسان غير محدث. ذلك

أن ثقة الإنسان بنفسه وبقدرته وبمستقبله، وأن الزمان معه وليس ضده، هي من مظاهر التفكير الحديث والعقلية والذهنية المحدثة

- ومن خصائص الإنسان العصري البارزة، ومعالم الحداثة الأساسية، اعتماد التفكير العلمي وما يرافقه من قياس كمي وإيمان كلي بأن ظواهر عالمنا خاضعة للقياس والتكميم. ويترتب على التفكير العلمي هذا رفض اعطاء خصائص مقدسة وقدرات غيبية للأشياء والأشخاص في عالم اليوم. فعصر المعجزات قد مضى وانقضى، والإنسان المحدث يدرك أنه يواجه مصيره بنفسه من جهة، وأن عالمه هو عالم معقول مقنن تحكمه أنظمة يمكنه أن يكتشفها ويتعامل معها ويضعها في خدمته وخدمة الآخرين حوله من جهة اخرى.

ونبدأ بالصفة الأولى من صفات التفكير العلمي التي أشرنا إليها وهي التكميم، واعتماد لغة الأرقام في مقابل الاحكام الذاتية والعشوائية. يقابل «الكم» «الكيف» وهما طرفان لظاهرة واحدة، الطرف الأول موضوعي خارج عن ذات الفرد يمكن أن يشترك فيه الآخرون، أما الثاني فهو ذاتي يتوقف على الإحساس ويخضع للتجربة الفردية. ومثل ذلك أن يقف شخصان أمام ماء ساخن، ثم يضع كل منهما يده في الماء، هنا قد يتفقان وقد يختلفان. قد يقول أحدهما عن الماء إنه فاتر، ويقول الآخر إنه حار، وقد يتفقان على أنه ساخن إلا أن هذا الاتفاق هو اتفاق تقريبي غير دقيق تدخل فيه حرارة اليد قبل وضعها في الماء، واستعداد الشخص الذاتي ووجهة نظره فيما هو فاتر وساخن وحار أما إذا وضعنا ميزاناً للحرارة في الماء فارتفع فيه المؤشر إلى رقم معين نصطلح عليه عادة أنه دليل على الحرارة، كما يحصل عندما نقيس حرارة الإنسان فنجدها تشير إلى الأربعين مثلاً فنقول إنه حار وإنه مريض فعندئذ لامجال للاختلاف لأننا نكون أمام حكم كمي لاكيفي.

والعلم إذ يدرك الظواهر ادراكاً كمياً يضعنا أمام حقائق هذه الظواهر بشكل لامجال فيه لكثير اختلاف صحيح أن الظاهرة هي نفسها، ندركها بالحواس العادية فندرك كيفياتها، وندركها بوسائط القياس الكمي فندرك كمياتها، إلا أن

النتائج المترتبة على هذين الإدراكين مختلفة في طبيعتها وابعادها. الأولى لاتنتج علماً ومعرفة دقيقة والثانية تنتجها. وإذا كان الإدراك الكيفي أسبق على الادراك الكمي في حياة الإنسان عامة، فهو كذلك في حياة الفرد أيضاً يبدأ الطفل أول مايبدأ بإدراك كيفيات الأشياء، ثم يأخذ بتنظيم هذه الكيفيات ونقلها تدريجياً إلى أرقام دقيقة وهذا هو حال البشرية. فكلما ازداد علم الإنسان وتقدمت معرفته ازداد اعتماده التكميم وازدادت الطرائق التي تستخدم لضبط المقادير ضبطاً دقيقاً وفق موازين ودرجات وذبذبات وعير ذلك كثير.

بدأت مسيرة الإنسان باتجاه الضبط والقياس والتكميم منذ زمن بعيد، وبالتحديد منذ بدأ الإنسان يدخل الأرقام في أنماط تفكيره ونحن نجد محاولات فكرية جادة عند اليونان أمثال ديموقريطس وفيثاغورس لتحقيق تقدم ملموس في هذا المجال، كالقول إن اختلاف الكيف في الأشياء يترتب على اختلاف في الكم، أو إنّ اختلاف الأنواع يرجع إلى اختلاف في درجة الكثافة أو في الكمية إلا أن الاتجاه نحو التكميم كان بطيئاً ثم أخذ يتسارع، وخصوصا مع تقدم العلوم في العصور الحديثة، وقد نتج عن هذا سقوط فلسفات وأنماط من التفكير قديمة، وقيام فلسفات ونظريات جديدة. وتجلى ذلك، إضافة إلى هذه التحولات الفكرية، في استقلال العلوم تدريجياً عن الفلسفة فقد كانت الفلسفة تحتضن العلوم بأسرها، وذلك عندما كانت جميع هذه العلوم كيفية لاوسيلة لضبطها وتكميمها، «ثم حدث بعد ذلك لبعض جوانب المعرفة أن ينضبط انضباطاً كمياً، فكان معنى ذلك أنه استقل عن الفلسفة وقام وحده علماً»(١).

يدرك صاحب التفكير العلمي أن الفكر الإنساني هو في سير حثيث نحو مزيد من التكميم، وأن مرحلة التفكير الكيفي سائرة إلى الاضمحلال لمصلحة الإدراك الكمي لكل الظواهر والأشياء في العالم. لم يعد من قبيل العلم أن نصدر أحكاماً عشوائية أو أحكاماً كيفيةلاتعتمد لغة الأرقام.

---

(١) - زكي نجيب محمود نحو فلسفة علمية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٨، ص ٣١٥

لم يعد مقبولا مثلاً أن نصدر حكماً على إنسان بالذكاء أو الغباء، ولا أن نعتبر الذكاء والغباء نوعين مختلفين من الظواهر، إنهما درجتان في سلم واحد. يتفاوت الأفراد في قدراتهم كما تتفاوت الأشياء في أوزانها وأحجامها وحرارتها وسرعتها وشدتها ومدّتها إلى ما هنالك من خصائص وقد تعارف العلماء والمربونّ على القول بأن الذكاء والغباء هما تحصيل هذه الدرجة أو تلك من نفس القدرة أو القوة أو السلم أو المقياس. . . . الخ.

والصفة الثانية من صفات التفكير العلمي التي تهمّنا هنا هي نزع صفة القداسة عن الظواهر الطبيعية والأشياء والأشخاص التي درج التفكير البدائي، والتفكير الخرافي، والتفكير غير العلمي على اعطائها للظواهر والأشياء والأشخاص. عندما كان الإنسان يعجز عن تفسير ظاهرة ماكان يعمد إلى تقديسها، وعندما كان الإنسان يعتمد في رزقه وحياته واستمراريته على أمر ما أوشخص ما كان يعمد إلى تقديسه، وعندما كان الإنسان يهزه ضعفه أمام ماهو أقوى منه من الظواهر والأشياء والأشخاص كان يخشاها، وكانت خشيته منها تدفعه إلى تقديسها، كان هذاكله يدفعه إلى ضروب من الخرافةوالسحر يحمي بها نفسه، ويرد بها خوفه ويستر بها عجزه. ولكن تدريجيا كان العلم يغزو ظواهر العالم وخبايا الإنسان، ويجردها من الأسرار. كان يلقي عليها الأضواء الكاشفة فيزول غموضها وترتد إلى حقائقها الموضوعية غير المقدسة. لم يعد ثمة حاجة لآلهة أو أنصاف الآلهة، أو أبعاض آلهة، لقد خدم العلم فكرة التوحيد، وطهر العالم من القوى الخفية، وأظهر تساوي بني الإنسان، وعدم حاجتهم إلى الأولياء وإلى الوسطاء يتوسطون بينهم وبين الله.

والصفة الثالثة من صفات التفكير العلمي الذي نعتبره من خصائص الانسان العصري المحدث والتي تترتب على الصفتين السابقتين وترتبط بهما، هي أن عالمنا هو عالم معقول، تسوده قوانين مكتشفة أو هي قيد الاكتشاف، أو لنقل تسوده علاقات منظمة كما تؤكد الخبرة والتجربةوالشواهد واطراد وقوع الأحداث. وعندما نقول إن عالمنا عالم معقول لانعني بذلك أن العقل هو الذي يقرر ذلك

بحكم منطقه الداخلي، بل هو عالم معقول بحكم العلاقات المنظمة التي تحكم ظواهره. ونحن نستخرج هذه العلاقات من التجربة لا من الضرورة المنطقية. فمن الناحية المنطقية الصرفة نقيض أي قانون علمي هو ممكن عقلاً، إلا أن التجربة تؤكد اطراد الأحداث في اتجاه واحد، ووفق علاقة منظمة دون حدوث خلل ولو مرة واحدة يبرر سقوط القانون العلمي.

منذ بدأ الإنسان يلاحظ الظواهر حوله ومنذ أخذ يسجل ملاحظاته حتى يومنا هذا، مروراً بكل العلوم على اختلافها، نجد أن العالم يخضع لعلاقات منظمة، وهذه العلاقات المنظمة هي التي نطلق عليها اسم القوانين. وإذا كان هناك من ظواهر لم نكتشف قوانينها التي تحكمها وتنظمها فما ذلك لأن هذه الظواهر تشذ عن القاعدة، بل لأنّ العلم والمعرفة الإنسانيين لم يرتفعا بعد إلى درجة وضع ظاهرة ما، أو مجموعة ظواهر في علاقة منظمة أو قانون ما.

وأهمية معقولية العالم وانتظام أحداثه وظواهره وتقنينها لاتأتي من مجرد إمكان تفسير العالم وفهم ظواهره فقط، بل تأتي بالدرجة الأولى من قدرة الإنسان على أن يضع ذلك كله في خدمته وخدمة مستقبله. إن أهمية فهم العالم وتفسيره تكمنان في تمكين الإنسان من التقدم على طريق تفوقه. لقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان ضعيفاً وخائفاً وعاجزاً ومقهوراً باتساع العالم وترامیه، وتعدد ظواهره وغرابتها، وتقلبات أحداثه وبطشها به. وقد أخذ هذا الإنسان يكسب ثقته بنفسه تدريجاً حين ركب عجلة العلم، فتحققت ذاتيته وتفجرت طاقاته، وأصبح السيد الجالس على سدة العالم. وأخشى ما نخشاه أن يركبه الغرور فلا يحسن التصرف مع العالم والطبيعة سيدي الأمس القريب فينقلب السحر على الساحر، ويتحول التفوق الى فشل ذريع وسقوط رهيب.

في عرضنا لخصائص الإنسان العصري المحدث أكدنا على الخصائص التي نعتبرها أساسية. ومن الواضح هنا أنه يمكن التوسع في الحديث عن هذه الخصائص، ويمكن أيضاً ذكر العديد من الخصائص الأخرى، كما يمكن تفريع بعض هذه الخصائص إلى خصائص أخرى متعددة. بعض الباحثين والمهتمين

بهذا الموضوع يفضلون التركيز على بعض القضايا الفرعية مثل الموقف من تنظيم الأسرة، وتحديد النسل مثلاً، أو الموقف من قضية حرية المرأة ومساواتها بالرجل مثلاً آخر، أو رفض التمييز العنصري مثلاً ثالثاً، والأمثلة كثيرة. والبعض الآخر يؤثر اختيار معايير أخرى مثل الابتكار الفني والأدبي والجمالي والإبداع بكل ضروبه وأشكاله، ومثل صقل القيم الخلقية والتمسك بالفضائل، ونبذ الأنانية، والتضحية في سبيل الوطن. في حين أن البعض يختار معايير تعتبر ساخنة في عالمنا الراهن، مثل رفض سباق التسلح الذي يهدد مستقبل البشرية ومعارضته، وخاصة معارضة الأسلحة المتطورة من نووية وهيدروجينة وجرثومية، والدعوة إلى مناصرة حركة السلام وتدعيمها، أو مثل المحافظة على البيئتين الطبيعية والحيوانية والدفاع عنها، ومقاومة تلوث البيئة بأي ضرب من ضروب التلوث، لما في ذلك من تهديد للمحيط الحيوي الذي يعيش فيه الإنسان والحيوان على حد سواء.

إلاّ أنّ اختيارنا للخصائص التي تحدثنا عنها كان نتيجة اعتبارها معايير عامة تصدق على الإنسان العصري المتحضر في أكثر المجتمعات، وهي ليست محلية ضيقة خاصّة ببعض المجتمعات المعاصرة دون غيرها، كما أنها ليست موضع خلاف أساسي بين المشتغلين بالموضوع والمهتمين به، وهي فوق هذا وذاك تحاول أن ترصد ذلك الاستعداد العقلي والنفسي، أو تلك الحالة الداخلية للإنسان العصري التي يمكن أن تميزه عن الإنسان التقليدي. لاشكّ في أن المعايير كثيرة والأمثلة متعددة لاحصر لها، بل يمكن القول فوق هذا إن أي قضية إنسانية أو أي مسألة للحياة الإنسانية يمكن أن تؤخذ كمعيار نميز عبره بين إنسان محدث وإنسان غير محدث، وما يهمنّا هو تقديم بعض هذه المعايير التي يمكن أن تصف لنا الإنسان المحدث، أو تقرّبنا من فهم نمط تفكيره وطبيعته العقلية والنفسية.

٣ ـ قنوات التحديث

وإذا كنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عمّا أسميناه خصائص الإنسان العصري المحدث، فقد يكون من المهم بمكان أن نلقي نظرة على العوامل الفعّالة التي تساهم في انتشار هذه المواقف، والقيم وانماط السلوك التي نراها أساسية

للإنسان والمجتمع المعاصرين. وكما لاتوجد صفة أو خاصّية واحدة تميز الإنسان العصري عن غيره، بل لابد من شبكة من الخصائص والصفات والعلاقات والقيم لمحاولة تعريفه وتقديم صورة متكاملة عنه، كذلك الأمر فيما يتعلق بالعوامل والدوافع والقوى وجملة المؤثرات التي تسهم في تحول الإنسان من التقليد إلى الحداثة.

١ ـ ضمن شبكة العوامل والدوافع وجملة المؤثرات، فإنّ أول مايتبادر إلى الذهن هو التعليم، ويبدو أن أكثر الدراسات الجدية في هذا الميدان تبين أن ثمة علاقة مباشرة بين درجة التعليم الذي يتلقاه فرد من الأفراد ومقدار استعداده للخروج من الفكر التقليدي والدخول في الفكر الحديث. طبعا هناك استثناءات عديدة، وهناك تحفظات كثيرة حول هذا الحكم وهذه العلاقة بين التعليم والحداثة. هناك أولاً طبيعة التعليم الذي يتلقاه الفرد، فقد يكون هذا التعليم تقليدياً يعني بإعداد القائمين على أمور الدين مثلاً، أو بإعداد نمط معين من المتعلمين التقليديين كما هو الحال في بعض المدارس التبشيرية، مثلاً آخر، أو الراغبين في المحافظة على تقليد معين وثقافة محلية ضيقة كما هو الحال عند بعض الأقليات، مثلاً ثالثاً. ولكن ومع أخذ الاستثناءات والتحفظات بعين الاعتبار، فإن التعليم يمكن أن يكون أفعل الوسائل وأسرعها في التحول الثقافي الذي يمكن أن يحدث للفرد أو المجتمع على حد سواء، وخصوصا عندما تكون مناهج التعليم حديثة ومتطورة تفتح الأذهان وتشحذ الأفئدة

لقد أدرك روّاد النهضة العربية في القرن المنصرم أهمية التعليم المدرسي في عملية التحول الاجتماعي فاهتم كل من رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك بشكل خاص بتطوير التعليم والإشراف عليه وتحديث المناهج رسم الطهطاوي معالم مناهج تعليمية محدثة في كتابيه الشهيرين **مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية**، **والمرشد الأمين في تربية البنات والبنين**، واكمل ذلك عبر المجلة التربوية المسماة روضة المدارس. ومن الواضح من عناوين كتب الطهطاوي التي ذكرناها، وكتبه الأخرى ومن مضامين هذه الكتب وموضوعاتها

مدى عناية الطهطاوي بالتعليم المدرسي كطريق للتحديث. وقد حذا محمد عبده حذو الطهطاوي وتابع مهمته في إحداث ثورة حقيقية في ميدان التعليم متناولاً أساليب التعليم خاصة، ذلك أنه كان يرى أنه لابد لأساليب التعليم هذه من أن تخدم الأهداف التربوية المرسومة، وأهمها عنده تنمية الإدراك العقلي والتفكير الموضوعي. وقد أثمرت جهود هؤلاء في المساهمة في إحداث نهضة حقيقية تبعها سقوط لامجال للدخول في أسبابه هنا(١).

٢ ـ ويأتي بعد التعليم المدرسي في إحداث التحول الفكري والثقافي بكافة وسائل الإعلام. ويكاد هذا العالم يلقى من اجماع الباحثين ما يلقاه التعليم، فأكثر الدراسات تشير إلى دور وسائل الإعلام ومدى فعاليتها في إحداث التحول موضوع حديثنا. وإذا كانت نفس التحفظات التي تثار حول التعليم عادة تثار حول وسائل الإعلام ايضاً، فما ذلك إلاّ لأنّ دور هذا العامل وفعاليته يتوقفان إلى حد بعيد على المضمون والمحتوى اللذين تحملهما هذه الوسائل. صحيح أن هناك من يرى أن وسائل الإعلام، كأي وسائل ووسائط وآلات أخرى، تحدث تحولاً في حياة الأفراد بغض النظر عن مضمونها(٢)، إلاّ يعنينا هنا ذلك الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في توسيع دائرة الخبرة الإنسانية وتوسيع المدارك والمهام. عندما تعرض هذه الوسائل الأدوات الجديدة، والموضوعات المتجددة وطرق المواصلات ووسائط النقل المستحدثة، ومجموعة هائلة من أنماط الحياة المتنوعة، وغير هذا كثير، فإنها تقدم الأمثلة الحسية على الآفاق الرحبة المفتوحة أمام الإنسان. وقد أظهرت بعض الدراسات أن مجرد وقوف الإنسان على أنماط أخرى من العيش تفتح أمامه آفاقا أوسع بكثير مما يبدو في الظاهر، فكل مايراه الإنسان في الصحف

(١) ـ انظر نعيم عطية «معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المائة سنة الأخيرة» في الفكر العربي في مائة سنة، تحرير فؤاد صروف، منشورات الجامعة الأمريكية، في بيروت، ١٩٦٧، ص ٣٩٧ ـ ٥٦٧

(٢)ـ Marsxhall Mcluham مثلاً في كتابه الشهير Understanding Media يذهب إلى أنّ وسائل الإعلام من حيث هي وسائط تحمل رسالة مستقلة عن المضمون

ويسمعه عبر الإذاعات، ويراه على الشاشة يتحول إلى أمثلة حيّة متجسدة فعلاً عن السلوك الذي يمكن أن يسلكه، عن قيم جديدة، عما يمكن أن يفعله، وعما هو محروم منه. يكفي أن يرى الإنسان الأطفال، خاصة في بعض المجتمعات، أبنية شاهقة تتسع للمئات، وسدوداً ضخمة تطوع الفيضانات، وأنظمة ري تسقي الصحارى، وطائرات تغزو الفضاء، ليزول الصدأ عن عقله، وتدب فيه الحياة. وقد عزت بعض الدراسات تحولات كبرى في حياة بعض الجماعات البشرية لوسائل الإعلام ليس أقلّها انتفاضات السود وتمردهم في الولايات المتحدة الأميريكية بعد أن أوقفتهم وسائل الإعلام على أنماط العيش خارج مجتمعاتهم الخاصة. فلا عجب بعد هذا أن نرى الحكومات التي تريد أن تبقي على مجتمعاتها مغلقة تسعى لأن تحد من انتشار وسائل الإعلام بكافة الوسائل المتوفرة لديها. أما إذا توفر التوجه والإرشاد والرغبة في إحداث التحول الفكري والثقافي خاصة، فإن وسائل الإعلام تتحول فعلاً الى عامل أساسي من عوامل التحوّل لايقل عن عامل التعليم.

تطورت وسائل الإعلام في الخمسين سنة الاخيرة بأشكال تجاوزت أحلام وتخيلات العلماء في القرن المنصرم، وازداد تأثيرها وفعاليتها حتى أصبحت الأداة الأولى في التوجه العام، ومع ذلك فقد أدرك رواد التحديث والنهضة العربية أهمية الإعلام وفعاليته في التحول الاجتماعي، فاستخدموه أوسع استخدام ضمن حدوده التي كانت متوفرة لهم. تولى الطهطاوي التحرير في أول جريدة عربية حديثة هي **الوقائع المصرية** حتى إنه يمكن القول إن بداية الصحافة العربية والإعلام العربي الحديث تعود إلى هذا النهوض الكبير، وأنشأ محمد عبده مع جمال الدين الأفغاني مجلة **العروة الوثقى** وحرراها على مدى سنوات، وساهم الأفغاني وعبد الله النديم في تعبئة الجماهير وتوجيهها عبر الخطب المنبرية، وهي أحدى وسائل الإعلام الأولى التي كانت متوفرة في أيامهما، وحرر النديم الصحف اليومية والنشرات الدورية دفاعاً عن النهضة والثورة فأصدر **التنكيت والتبكيت**، **والطائف**، **والاستاذ**، وأصبح من خلالها لسان الثورة العرابية. وكثرت بعد ذلك

الصحف، اليومية وغير اليومية، وازدادت فاعليتها في المجتمع، وإن كان ذلك ضمن حدود كما أشرنا.

٣ ـ ومن العوامل الفاعلة في الانتقال إلى الحداثة المؤسسات الوطنية على أنواعها من جمعيات ونقابات وأحزاب وجيوش وأمثالها ويأتي في طليعة هذه المؤسسات المؤسسة العسكرية الوطنية التي يمكن أن تلعب دوراً حاسماً في التحول الاجتماعي ولا تلعب المؤسسة العسكرية هذا الدور من خلال التنظيم والدقة في المواعيد والتدريبات والمهارات التي يتعلمها الجنود، والتخطيط للعمليات العسكرية فقط، بل من خلال حقيقة أساسية وهي أن الجيش الحديث لا يقوم دون قيام المجتمع الحديث. وفي كثير من الحالات كانت الرغبة العارمة في امتلاك جيش حديث العدة والعتاد أقصر الطرق للدخول في الحداثة، هي ما كاد يحصل في الدولة العثمانية إبّان عهدي السلطان سليم الثالث وابنه السلطان محمود الثاني، وهذا ما حصل بالفعل في مصر أيام محمد علي باشا الكبير، وإلى حد نسبي في تونس أيام الباي محمد الصادق، والوزير الأول خير الدين التونسي

ولكن وقبل أن نوجز الحديث عن دور المؤسسة العسكرية الوطنية في إحداث النقلة الفعلية من التقليد إلى التحديث، لا بد من التأكيد على أن المؤسسة العسكرية كسائر عوامل التحول الاجتماعي تتشابك مع الموقف السياسي للواقفين وراء هذا العامل أو ذاك. ومن هنا يمكن للجيش الوطني أن يتحول إلى أداة قمع، أو إلى مؤسسة تكرس التمييز الطبقي، أو الفئوي، أو الديني والطائفي، أو إلى وسيلة ترعى السلوك المحافظ والفكر التقليدي، ولا تشجع المبادرات التحديثية على احترام كرامة الآخرين.

بداية المسيرة العربية إلى التحديث كانت عسكرية، لقد ورث محمد علي باشا حاكم مصر في النصف الأول من القرن الماضي، فكرة عثمانية وهي أن الهزيمة التي ألحقها الغرب بالشرق هي هزيمة عسكرية، ومن الطبيعي أن يكون الدواء عسكرياً. منذ القرن السابع عشر أخذت الدولة العثمانية تسجل بعض الهزائم

العسكرية أمام الجيوش الأوروبية المتنوعة، نمساوية وروسية وغيرهما. من هنا كان توجه بعض السلاطين إلى السلاح والتدريب والتقنية العسكرية الأوروبية. وقد شهد القرن الثامن عشر استقدام الدولة العثمانية لأسلحة أوروبية، وخبراء عسكريين أوروبيين إضافة إلى تأسيس مدارس وتقنية أوروبية الطابع يدرب فيها الضباط والجنود على أساليب الحرب الحديثة(١) وإذا كانت المحاولات الأولى لتحديث الجيش قد فشلت بسبب التركيبة الاجتماعية والاقتصادية، ومقاومة الجنود الانكشارية لمحاولات بعض السلاطين تحديث المؤسسة العسكرية لما في ذلك من فقدانهم لامتيازاتهم فإنَّ ذلك كله كان بمثابة التجربة التي أفاد محمد علي من أخطائها، فجاء سعيه بعد ذلك جيداً ونجحت محاولته في هذا الميدان.

كان محمد علي ضابطاً في القوات العثمانية التي أرسلت إلى مصر كجزء من خطة عثمانية- بريطانية لممارسة الضغوط على القوات الفرنسية التي كانت قد احتلت مصر في أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن محمد علي استطاع بعد سنوات قليلة من وجوده في مصر أن ينتزع اعتراف السلطان به كحاكم مستقل لمصر. وقد أخذ محمد على منذ السنوات الأولى لتسلم زمام الأمور في مصر بتدريب القوات العسكرية المتوفرة لديه، وإعدادها إعداداً على النمط الأوروبي. كانت برامج محمد علي منذ بدايتها عسكرية في أصولها ومنابعها، تستند إلى رغبة عارمة في إعداد جيش أوروبي الطابع. كان محمد علي وريث تلك المقولة التي تتلخص في أن مواجهة الآلة العسكرية الأوروبية إنما تكون بآلة مماثلة لها. وعندما أخذ محمد علي بإعداد هذه الآلة، اكتشف أن ذلك لا يتحقق له دون إحداث تغيير جذري في المجتمع، فالآله العسكرية الحديثة تحتاج إلى سلطة سياسية مركزية أولاً تقضي على التشتت والتفكك ومحاولات التمرد، وهي تحتاج بعد ذلك إلى اقتصاد مركزي من نوع مختلف عما كان سائداً في المجتمع المصري، وقد اضطر محمد علي إلى إحداث تغييرات جذرية في الميدان الاقتصادي. وهي تحتاج فوق ذلك إلى نوع جديد من التعليم يردف المؤسسة العسكرية ويؤازر السعي إلى تحديثها.

---

(١) Bernard Lewis, The **Middle East and The West** London, 1964, p. 37.

هكذا اضطر محمد علي إلى إعداد برامج اصلاح شاملة ضمّت المؤسسة السياسية إضافة إلى الاقتصاد والتعليم. لم تنجح برامج محمد علي الاقتصادية بكاملها، ولكنها تمكنت من تحطيم العلاقات الاقطاعية التقليدية المملوكية، واستطاعت تأسيس صناعة وطنية متطورة، كما استطاعت عقلنة الزراعة وتوسيع دائرتها والبدء بعملية التصدير إلى الخارج، انكلترا خاصة. باختصار، وضع محمد علي اقتصاداً مخططا للبلاد، نظّم الضرائب وشجع الصناعة ووجهها وحدّث الزراعة عبر مدّ شبكة من القنوات وغير ذلك كثير.

أما على صعيد التربية والتعليم فقد كان هم محمد علي الأول هو العلوم العسكرية، إلا أنّه سرعان ما اكتشف العلاقة العضوية بين التربية والتعليم بشكل عام، والعلوم اللازمة لقيام جيش حديث بشكل خاص. جعل محمد علي الكلمة الأولى للدولة في أمور التعليم والثقافة عموماً. نظّم المدارس واستقدم لها مدرسين أجانب أوّل الأمر، وتبنى الترجمة من اللغات الأوروبية إلى العربية، وأرسل البعثات إلى الخارج، ووسّع دائرة التعامل مع الأدوات الثقافية من مطابع وكتب ومجلات وأرشيف وغير ذلك، وهيأ الظروف لانتشار الأفكار الجديدة الأمر الذي وضع مصر ومن ورائها العرب جميعاً على عتبة أبواب التحديث المشرعة.

البداية كانت عسكرية صرفاً، أما النتائج فقد تخطت دائرة المؤسسة العسكرية لتشمل كافة أوجه الحياة في المجتمع. لقد كانت الحصيلة واسعة لايمكن هنا تعداد بنودها الكثيرة، ويكفي أن نقول إنه لولا جهود محمد علي وطموحاته العسكرية خاصّة لما بدأت مسيرة التحديث أو على الأقل لما بدأت تلك المسيرة في حينها، ولكان عليها أن تتأخر إلى أن تتوفر شروطها اللازمة. أما رجال النهضة، من أمثال الطهطاوي وعلي مبارك وتلامذتهما، فهم الثمرة المباشرة لتلك الشجرة المعطاء.

وفي تونس سارت تجربة التحديث بمحاذاة التجربة المصرية، فقد بدأت الارهاصات التحديثية الأولى علي يد الباي حمّودة باشا وخلفه الباي محمود في الربع الأول من القرن التاسع عشر وتركزت «في القضاء على جيش المرتزقة واستبداله بجيش حديث على النمط الأوروبي». إلا أن مسيرة الاصلاح

والنهوض بالمعنى الحديث للكلمة لم تبدأ إلا مع تجربة الباي أحمد والوزير خير الدين التونسي. فقد «كان أحمد معجباً ومتأثراً بتجربة محمد علي في مصر، وقد بدأ عهده باصلاح الجيش وبنائه على نمط جيش نابليون الذي كان الباي أحمد يكن له الاحترام الشديد، وقد أمر بترجمة التاريخ الفرنسي ولاسيما تاريخ نابليون إلى العربية»(١). وقد ربط الباي أحمد تحديث التعليم والصناعة بتحديث الجيش، فكانت خطوته الأولى في تحديث الجيش تأسيسه لكلية الهندسة أو مدرسة البولتيكنيك Ecole Polytecnique سنة ١٨٣٨، والتي استقدم لها بعض الخبراء الأجانب وأراد منها إعداد ضباط جيشه إعدادا حديثا على النمط الفرنسي بشكل خاص حيث كان أكثر المدرسين من الفرنسيين. وقد تابع أحمد خطواته مقتفياً آثار محمد علي فاهتم بالتصنيع لامداد الجيش بالأسلحة والمعدات اللازمة له مدركاً أنه لا بد من الاعتماد على النفس في امداد الجيش بما يلزمه من الاعتدة والذخيرة.

وقد نجحت سياسة التصنيع التي اعتمدها الباي أحمد فشهدت تونس في عهده تأسيس مصانع متنوعة للأسلحة والذخيرة والنسيج والجلود وغيرها. وقد أثمرت إلى جانب ذلك جهوده التعليمية، ويكفي هنا أن نذكر أن المصلح الشهير خير الدين باشا الذي أسهم في تحديث تونس في الفترة السابقة على الاستعمار، كان في عداد الأجيال التي أعدتها سياسة الباي التربوية. فقد تخرج خيرالدين من مدرسة البوليتكنيك، واحتك بأساتذتها وتأثر بهم قبل أن تتاح له فرصة السفر إلى فرنسا وأوروبا مما أتاح له تجربة نادرة كان من ثمارها وضع كتابه الخطير «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

وباختصار يمكن القول إن مسيرة التحديث في تونس سارت على نفس طريق تجربة التحديث في مصر، بدءاً بالمؤسسة العسكرية التي اقتضى تحديثها تحديث التعليم والصناعة والاقتصاد عموماً. كان الاطراد في تطوير الجيش يعني الاطراد

---

(١) معن زيادة: خيرالدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص ص ٣٥ - ٣٦.

في تطوير البلاد، فمع تأسيس البحرية التونسية مثلاً كان لا بد من إنشاء المرفأ البحري اللازم، ومع زيادة قوة الجيش كانت تزداد استقلالية البلاد، وقد ظهرت هذه الاستقلالية في علاقات الباي مع الدولة العثمانية من جهة، ومع قناصل الدول الأوروبية من جهة أخرى. وعندما تولى خير الدين التونسي منصب الوزارة الأولى في البلاد تابع مسيرة التحديث وطوّرها حتى أصبح بالنسبة لتونس أباً للنهضة، كما كان الطهطاوي بالنسبة لمصر. وقد جاءت مرحلة الحكم الاستعماري المباشرة لتونس لتلغي أكثر المكاسب النهضوية والتحديثية، تماماً كما حدث في مصر. ورغم كل ما ألغاه الاستعمار من مكاسب فقد بقي لمصر ولتونس، بل للعرب جميعاً، الكثير من آثار تحديث المؤسسة العسكرية على تحديث الفرد والمجتمع جميعاً.

٤ ـ من الطبيعي أن تتعدد العوامل الفاعلة في عملية التحول الاجتماعي، ومن الطبيعي أيضاً أن تختلف هذه العوامل باختلاف المجتمعات وتجاربها الخاصّة. وقد اجتهد الباحثون الاجتماعيون المهتمون بهذه العوامل بدراستها وتعدادها. أظهر بعضهم اهتماماً خاصاً بالمصانع وأمثالها من مؤسسات الانتاج الكبيرة، وباعتبار أن المشتغلين في المصانع مضطرون إلى الالتزام بمواعيد محددة في العمل، وهذا يقتضي تنظيماً في حياتهم وحياة عائلاتهم يختلف عمّا نعهده في المجتمعات القديمة. يضاف إلى ذلك انخراط ربّ الأسرة في العمل في المصنع وابتعاده عن أفراد أسرته طيلة فترة النهار يقتضي تخلّيه عن بعض سلطته المطلقة في إدارة شؤون الأسرة، كما هو الحال في المجتمعات التقليدية. ويمكن أن نضيف إلى هذا وذاك أن المصانع تدار عادة بادارات حديثة تفرض أنماطاً جديدة من العلاقات بين العاملين: نمطاً جديداً من السلطة، وعلاقات تتوقف على المساهمة في العمل والقدرة على الانتاج، وتقسيماً للعمل ومشاركة في الانتاج، ودخلاً محدداً للفرد، وغير ذلك كثير.

واظهر بعض الباحثين الاجتماعيين اهتماماً بالحياة في المدينة كعامل من عوامل

التحول الاجتماعي ، باعتبار أن المحيط المديني يشجع الأفراد، بل يفرض عليهم اقتباس أنماط جديدة من العيش وضروب جديدة من العلاقات. ولا شك في أن تجربة الحياة المدنية هي تجربة شديدة التأثير على من يأتيها من القرى والأرياف النائية والمعزولة. فقد أدرك العرب منذ زمن بعيد التأثيرات البالغة التي أحدثها انتقال بعضهم من حياة البداوة إلى مدن الشام والعراق، كما أدرك ابن خلدون دور المحيط في تحديد أنماط السلوك

تقدم المدينة نماذج متعددة من طرق كسب الرزق، وتستوعب وجهات نظر متعددة وضروباً من التفكير، وتطلب حركية أسرع من روادها وساكنيها، وتقلل من فرص الضبط والضغط الاجتماعيين التي يلقاها الفرد في قريته أو بيئته الضيقة عادة، من أقربائه وأنسابه والروابط الاجتماعية المتشددة وباختصار تسرّع المدينة في عملية التحول الاجتماعي، إلاّ أن المدينة لا تقدم ضمانات بأنّ تحول الأفراد سيسير بهم إلى مزيد من الحداثة، صحيح أن المدينة، ونعني هنا المدينة الحديثة طبعاً، تقدم أمثلة حيّة على العقلانية، وتقدم فرصاً أوسع لتثقيف الفرد، وتوفر تجارب لا توفرها المجتمعات الصغيرة والضيقة، إلاّ أنّ الفرد في المدينة قد يتعرض لمؤثرات سلبية تأخذه إلى نهج معاكس لكل ما يحمد من سيرة المدينة. وقد تصيب المدينة روادها بما يسمى بالصدمة الاجتماعية التي تخل توازن الفرد فلا يعود يعرف أين يقف ولا إلى أين يسير.

لم تلعب أمثال هذه العوامل دورا بارزاً في التحول الثقافي الذي أخذ مجراه في البلاد العربية في القرن المنصرم ، وإن كانت هذه العوامل قد أخذت تلعب دورها في مرحلة لاحقة، هي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كثرت الهجرة من الريف إلى المدينة مع قيام مدن جديدة وصناعات متطورة نسبياً، جاءت نتيجة الازدهار الاقتصادي الذي عرفته أكثر البلاد العربية في هذه المرحلة.

إلاّ أن عاملاً موازياً لعب دوراً خاصّاً في مرحلة التحول الأولى، وهو الرحلات التي قام بها رحّالة عرب لأسباب ودوافع دبلوماسية سياسية أو ثقافية علمية أو غير ذلك مثل: الطهطاوي، والتونسي، وأحمد فارس الشدياق، ومحمد بيرم وغيرهم.

الفصل الرابع

مركب ثقافي جديد

يمكن القول إن رسالة النبي العربي محمد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم أحدثت أوسع وأعمق عملية تحول ثقافي عرفها الفكر العربي على الإطلاق، بل يمكن القول إن تلك الرسالة هي بمثابة الثورة الثقافية الشاملة التي تناولت كافة أوجه الحياة بالتعديل والتطوير والإضافة والتنقيح. والرسالة الإسلامية لا تنفرد بهذا عن الأديان الأخرى، فكل الأديان هي، من حيث نتائجها على أرض الواقع الاجتماعي، ثورات ثقافية، وإن كان الإسلام ينفرد ببعض الخصائص التي سنحاول ايجاز أهمها كما نراها. والمقصود بالثورة الثقافية هنا حدوث تغير نوعي في العقل الإنساني في مجتمع ما، كما حدث في العالم الإغريقي مثلا عندما تحول اهتمام المفكرين والفلاسفة من مجرد البحث في العالم والكون إلى البحث في الإنسان أيام سقراط والسوفسطائيين، فأحدث ذلك نقلة كبرى وأصبح معلما بازرا ميز مرحلتين من مراحل الفكر اليوناني، ما قبل سقراط وما بعد سقراط. وعلى هذا فإن الدين، والدين الإسلامي خاصة، هو ثورة ثقافية بكل ما تحمل هذه العبارة من أبعاد بسبب تلك النقلة الكبرى التي أحدثها في العقل الإنساني عبر الرؤية الجديدة التي سادت الفكر العربي.

ولكن، بعد أن حقق الإسلام ثورته وأنتج مركبه الثقافي الجديد، تدخلت عوامل متعددة لامجال للخوض في تفاصيلها هنا لتوقف هذه الثورة أولا، ثم لتدخلها في مآزق حرجة وأزمات حادة بعد ذلك. كانت الشعوبية وأصحاب الديانات الأخرى، الذين دخلوا في الدين الجديد متظاهرين بالايمان به، من أهم العوامل الأولى التي سعت إلى عرقلة المسيرة الثقافية التي أطلقها الإسلام. وكان نهوض أوروبا ودخولها في العصور الحديثة آخر العوامل والأسباب التي انتزعت

زعامة العصور الوسطى الثقافية من العرب، وبين العامل الأول والعامل الأخير كان هناك جملة عوامل تعاونت لتدفع بالعرب إلى عصور من التخلف مازلنا نعاني منها حتى يومنا هذا.

[١] في خصائص الدين الجديد :

١ ـ يشترك الإسلام مع غيره من الأديان المتعارف عليها بالسماوية، وغيرها من الأديان الكبرى في العالم في أمور ويفترق عنها في أمور. وأول ما يشترك فيه الإسلام مع هذه الأديان الرئيسة في العالم وهي خمسة أو ستة، إنها مجتمعة تكاد تتقاسم العالم بأسره، فباستثناء بعض المناطق وعلى الخصوص في آسيا وافريقيا وقبائل الشعوب البدائية في أستراليا والأمريكيتين، فإن هذه الأديان القليلة تسود قارات العالم الخمس وتتقاسمها. إلا أن هذا التقاسم للعالم لا يجعل هذه الأديان أديانا عالمية بالمعنى الدقيق للكلمة، ولعل أول عوامل الاشتراك الظاهرية هذه بين الأديان الكبرى في العالم هو عينه أول عوامل افتراق الإسلام عنها، ففي حين أن جميع الأديان هي في الأصل أديانا قومية، فإن الاسلام منذ بداياته الأولى توجه إلى العرب وإلى غير العرب من الأمم والشعوب التي كان العرب على اتصال معها إبان ظهور الرسالة المحمدية، إلا أن هذا الأمر يقتضي بعض التوضيح.

جميع الأديان هي في الأصل أديان قومية خاطبت شعوبا وقبائل، أو أقواما بحسب التعبير القرآني، كقوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وبني إسرائيل. والديانة اليهودية هي خير دليل على هذا فهي ديانة خاصة ببني إسرائيل في الأساس والشعب اليهودي بعد ذلك، والمسيحية لم تكن في الأصل إلا حركة اصلاح داخل هذه الديانة، إلا أنها تمكنت فيما بعد من الانطلاق من الحدود التي حدّت بها نفسها لتصبح ديانة عالمية. ويصدق هذا على الديانات الأخرى في العالم كالهندوسية والبوذية وغيرهما، وقد ظلت أكثر هذه الديانات، إن لم نقل جميعها، محصورة في شعوب أو مناطق جغرافية محددة تحتل جزءا كبيرا من آسيا على وجه الخصوص. وباستثناء الإسلام فإن دينا من الأديان لم يتوجه منذ انطلاقته الأولى

إلى العالم بأسره والبشرية جمعاء وهذا يشكل ظاهرة خاصة ملفتة للنظر ذات أبعاد مهمة جداً.

قد يقول قائل إن هم النبي الأول كان أن يكسب بني قومه وأهل عشيرته ومدينتهم مكّة إلى الدين الجديد، وإنه عندما كتبت له زعامة مدينة يثرب لم يتوجه باهتمامه إلى باقي الجزيرة أو إلى خارجها بل إلى مكة، وإنه صرف سنوات عدة في الإعداد لكسب مكة إليه، وإن هذا يجعل همه الأول بني قومه كما هو حال الأنبياء وأصحاب الديانات الأخرى. إلا أن للقضية وجهاً آخر، فمكة كانت عاصمة جزيرة العرب الاقتصادية والسياسية والثقافية، وبقاؤها خارج اطار الدين الجديد يمكن أن يشكل نقطة ضعف كبرى للإسلام والمسلمين قد تهدد مستقبل هذا الدين وتعرقل امكان انتشاره في محيطه المباشر أولا، وفي المحيط الأوسع بعد ذلك. أضف إلى ذلك أنه من الطبيعي أن يصرف النبي جهده لكسب بني قومه إلى قضيته، فالموضوع ليس أن يصرف عنايته لكسب قومه أولا يصرفها، وإنما الموضوع هو توجه النبي برسالته إلى العالم بأسره وادراكه وإيمانه بوحدة العالم، ووحدة العقل الإنساني، ووحدة المعرفة البشرية.

فبالإضافة إلى عدم تمييز النبي بين العربي والأعجمي كما يؤكد الحديث الصحيح، وهو ما يؤكد توجه النبي الواضح في هذا الميدان، وبالإضافة إلى اتخاذه بلالاً الحبشي صفياً، وسلمان الفارسي مستشاراً، كما تؤكد قصة واقعة الخندق حيث أشار سلمان على النبي عليه السلام ببناء خندق حول مواقع المسلمين على طريقة الفرس، فإن محمد بن عبدالله سعى إلى تأكيد أن رسالته إنما هي اتمام واكمال رسالات السابقين لا تعارض ما تقدم، وإنما تضيف إليه وتصححه وتكمل مسيرته. لم يأت الإسلام لينفي المسيحية أو اليهودية وإنما ليؤكدهما معتبرا نفسه استمرارا لهما واحياء لسنة ابراهيم أبي الأنبياء. وقد كان النبي يأمل من أصحاب الديانات الأخرى أن يبادلوه موقفه الذي يعترف بصدق أصلهما وصحته، وكونهما وجهين سابقين متقدمين لحقيقة واحدة متجددة منذ بدء الخليقة حتى ظهور رسالته.

في حوالي منتصف العقد الثاني لرسالته، وبعد أن أصبحت جزيـرة العرب تدين بالدين الجديد، أصبح بإمكان النبي أن يتابع حطواته خارج نطاق محيطه المباشر، وقد بدأ ذلك بإرسال كتاب إلى هرقل إمبـراطور الـرومان سنـة ٦٢٨ ميلادية، وكتاب آخر إلى ملك الملوك كسرى الشاه الفارسي، بالإضافة إلى كتب أخرى إلى غيرهما من الحكام والأمراء يدعوهم فيها إلى الدين الجديـد. وتؤكد الروايات والوقائع التاريخية أن النبي كان يعد العدة لتوجيه حملة إلى الشمال حيث الدولة البيزنطية إلا أن الموت عاجله سنة ٦٣٢م. وليست الحملات الأولى التي وجهها الخليفة الأول أبوبكر ثم الخلفاء الآخرون إلا متابعة لسعي النبي وتوجهه إلى الانطلاق بالاسلام إلى المحيط العالمي الاوسع.

يمكن أن نخلص من هذا إلى أن الإسلام تميز منذ انطلاقته الأولى بصفة العالمية أو الكونية الأممية، ليس بتوجهه إلى الأمم والشعوب المختلفة فقط، بل بأخذه بفكرة تدرج المعرفة البشرية واستيعاب المرحلة اللاحقة لما قبلها وتخطيها لها، وإيمانه بوحدة العقل البشري ووحدة العالم رغم وجود خصائص تميز الشعوب والأمم. ولا شك في أن هذه الرؤية الإسلامية هي بمثابة خطوة كبرى إلى الأمام ليس بالقياس بما كانت عليه جزيرة العرب فقط، بل بما كان عليه العالم بأديانه المختلفة وفلسفاته المتعددة، ولا يقترب من هذا المـوقف الإسلامي إلا فلسفة أرسطو اليونانية التي نظرت لاستيعاب عالم اليونان للعالم بـأسره كـما يستوعب الجنس ما تحته من أنواع.

٢ ـ وقد حقق الإسلام قفزة نوعية وتحولا فكريا جذريا في جانب آخر من جوانب الفكر العربي والإنساني عامة، مستوعبا ما قبله مضيفـا إليه، وذلـك في ميدان التوحيد، فقد دفع الإسلام بفكرة الوحدة الإلهية والتنزيه الإلهي خطوات واسعة إلى الأمام. فجميع الأديان السابقة بما فيها اليهوديـة، التي هي ديانـة خاصـة ومغلقة، والمسيحية وهي من الأديان القليلة المنفتحة والمشرعة الأبواب، تتأخر عن الإسلام كثيرا في مسألة التوحيد هذه وقد تبين للمستشرقين خاصّة الأهمية البالغة لأبعاد هذه الرؤية الإسلامية للإله الواحد المنزه تنزيها مطلقا، ونكتفي هنا

تمثل واحد نختاره عشوائياً، مأخوذ من المستشرق الشهير جب Gibb، الذي يقول إن رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم «قد اعطت لفكرة الله مضمونا جديدا أكثر تكاملا، حيث طهرته من عناصر الشرك والتعدد التي كانت ما تزال عالقة به، واستبدلت بصورة الله الغامضة والبعيدة الايمان بالذات الإلهية الحقيقية المتعالية»(١).

يحمل مفهوم التوحيد الإسلامي أبعادا تتجاوز مجرد عدم الشرك بالله، مع بقاء قضية الشرك إحدى القضايا المركزية التي يتعرض لها هذا المفهوم. يبدأ التوحيد برفض ما كان يتخذه العرب من آلهة دون الله، فتارة كانت هذه الآلهة بناتٍ لله كما كانوا يزعمون كاللات والعزى، وتارة هي وسائط وبدائل، وفي كلا الحالين كان العرب ينزلون بفكرة الله إلى مستويات لا تليق بالذات الإلهية المتعالية، وقد جاء الإسلام ليقوض هذه التصورات غير التوحيدية وليطرح مفهومًا متكامًلا ومتعالياً، مع تبسيط هذا المفهوم وجعله حقيقة واحدة مباشرة يقف عليها الإنسان كيفما توجه، ومهما كان حظه من الذكاء أو العلم أو الموقع الاجتماعي. وينتقل هذا المفهوم بعد ذلك إلى رفض فكرة تعدد الحقيقة الإلهية، سواء كان هذا التعدد بصورة أقانيم ثلاثة مجتمعة ومتآلفة كما تقول المسيحية، أو بصورة حقيقتين متصارعتين كالظلمة والنور والخير والشر كما تقول الثنوية، أو بأي صورة أخرى.

ويخطو الإسلام بفكرة التوحيد خطوة أخرى إلى الأمام عندما يزيل الوسائط المادية من صور وتماثيل تحمل صفة القداسة، والوسائط الإنسانية مثل القديسين وما شابهم، لما في ذلك من إقامة التباعد بين الله والإنسان من جهة، ولما فيه من تقديس ما ليس مقدسا، ويأخذ من الحقيقة الإلهية ويضعه في غيرها من جهة أخرى. وبهذا تنهار كل الحواجز بين الله والإنسان، ويصبح الله هو تلك الحقيقة التي يجدها الإنسان أمامه ومعه، مع تعالي تلك الحقيقة في آن واحد. ويكفي أن نتصور

---

(١) H. A. R. Gibb, **Mohammedanism : An Historical Survay**, Second Oxford Univ Press "New York, 1962 p 54 "

هنا كيف تفصل الوسائط بين الله والإنسان وكيف تباعد بينهما، وكيف تأخذ تلك الوسائط من الله وتضفيها على نفسها حتى نعرف الأهمية البالغة لمفهوم التوحيد كما طرحه الإسلام.

ويدخل في عداد التوحيد تنزيه الله عن صفات المخلوقين ، وهو ما أدركه المعتزلة على وجه الخصوص من الفرق الكلامية الإسلامية فتمسكوا به وعضوا بالنواجذ عليه، حتى لقبوا بأهل العدل والتوحيد(١). أما العدل فهو أحد أصولهم الخمسة الكبرى، وأما التوحيد فهو أصلهم الأول، وقد جاء قولهم في التوحيد معارضا جميع المجسمين من أصحاب الديانات الأخرى بما فيها اليهودية، وبعض المسلمين الذين تأثروا بتفسيرات الحشوية والمشبهة وجميع المجسمة من اليهود خاصة. فالله ﴿ ليس كمثله شيء﴾ وهي آية محكمة لا يقبل معها أي بعد مادي للصفات الإلهية.

أما التفسيرات التجسيمية التي نجدها شائعة في الأدبيات الإسلامية، وفي الآراء الشعبية فهي في غالبيتها الساحقة من نتائج الإسرائيليات التي تسربت إلى الفكر العربي الإسلامي بشكل عام، وإلى الفكر الإسلامي غير العربي بشكل خاص. وقد رفض المعتزلة، في محاولة منهم لتصحيح مسيرة الفكرالعربي، الاتجاهات التجسمية التي تشبه الله بالإنسان، ومنها وجهة نظر اليهودية في آن واحد، صورة آدم على صورة الله، وما يتبعها من صفات تنسب إلى الله يبالغ المجسمة في بسطها وعرضها. ومنها ادعاؤهم أن لله طولاً وعرضاً ورائحة ولحية، وأنه يجلس على العرش فيحدث دوياً وغير دلك من التصورات التي تبتعد عن مفهوم التوحيد الإسلامي وتخالف روح الرسالة المحمدية أما الصفات الإلهية التي تتردد في القرآن الكريم فهي صفات تختلف عن صفات الإنسان، ولا تشترك معها إلا في التسمية لدواعٍ لغوية إنسانية، فالله عالم وقادر روحي، إلا أن الفرق بين صفات

---

(١) يمكن الوقوف على آراء المعتزلة في كتاب علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، أو كتاب أحمد صبحي في علم الكلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الرابعة ١٩٨٢، أو أي كتاب آخر من كتب علم الكلام

الله هذه وصفات المخلوقين هو أن هذه الصفات هي صفات الله لذاته، أما صفات الإنسان فهي لمعنى خارج ذاته، كما يبين المعتزلة في كتاباتهم الموسعة والمعمقة في هذا الموضوع.

وقد أدركت الدعوة الوهابية أهمية فكرة التوحيد الإسلامية وخطورة ما تسرب إلى الإسلام من ثقافات الشعوب الأخرى ودياناتهم القديمة فعملت على تصحيح المسيرة بالعودة إلى الأصول الإسلامية الصارمة في هذا المجال، والتي لا تقبل بالشرك مهما اتخذ من أشكال وصور بدائل أو وسائط أو تجسيم وتشبيه وحشو.

٣ ـ ويتداخل مع موضوع التوحيد موضوع آخر يشكل ركناً من الأركان التي قامت عليها الثورة الفكرية الشاملة، والتحول الثقافي الواسع اللذان أحدثتهما الرسالة المحمدية، وهو الخطاب العقلاني الذي تميزت به هذه الرسالة ويظهر ذلك اولا وقبل كل شيء في القرآن باعتباره الأساس الأول في هذه الرسالة فالخطاب القرآني خطاب عقلاني، والجدلية المركزية في هذا الخطاب هي جدلية الصراع بين المعقول واللامعقول، أما المعقول فهو التوحيد وأما اللامعقول فهو الشرك فالقرآن يعرض لتاريخ البشرية منذ ظهور الإنسان على الأرض وحتى ظهور الإسلام على أنه تاريخ الصراع بين الشرك والتوحيد، أو بين اللامعقول المتمثل بالشرك والمعقول المتمثل بالتوحيد، «ذلك لأنه لما كان الشرك أي القول بتعدد الآلهة ينطوي في ذاته على تناقض لا يقبله العقل إذ ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ ـ (الأنبياء، ٢٢) فإن نقيض الشرك أي التوحيد، هو وحده المقبول من هنا يقدم القرآن كفاح الأنبياء والرسل على أنه كفاح من أجل نشر خطاب العقل وترجيحه، بل وتسييده على خطاب اللاعقل، الخطاب المكرس للشرك»(١)

ويشكل ظهور نبي من الأنبياء بداية دورة تاريخية ينتصر فيها خطاب العقل ومنطق المعقول، ثم تأخذ الأمور بالتدهور باتجاه اللامعقول حتى تستفحل الأمور

---

(١) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة بيروت، ١٩٨٤، ص ١٣٦

فيستلزم الأمر ظهور نبي جديد يعيد الناس إلى صراط التوحيد وهو الصراط المستقيم أو صراط العقل. هذا هو حال جميع الرسالات السابقة بما فيها اليهودية والمسيحية، الأولى اتخذ اتباعها أحيارهم ﴿أربابا من دون الله﴾ - (التوبة ، ٣١) والثانية غالى اتباعها فقالوا ﴿إن الله هو المسيح بن مريم﴾، (المائدة ،١٧) و﴿قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ (المائدة، ٧٢) وبهذا تحول هؤلاء جميعا من التوحيد إلى الشرك، أو بتعبير آخر من المعقول إلى اللامعقول. وماذا يمكن أن يكون أكثر خروجا عن المعقول وأكثر اغراقا في اللامعقول من تأليه الأفراد والأشخاص من بني البشر واتخاذهم بدائل للذات الإلهية المتعالية.

أما العرب حفدة إبراهيم صاحب الدين الحنيف، فلم يكن حظهم من الإمعان في اللامعقول أحسن من حظ غيرهم من الشعوب والأمم والملل، فقد تخلى هؤلاء عن دينهم الأصيل الأول، فعبدوا الأصنام باعتبارهم «وسطاء وشفعاء إلى الله». وقد توجه القرآن إلى هؤلاء عبر أحياء خطاب إبراهيم العقلاني في مواجهة المشركين من العرب حيث يقول ﴿إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة﴾ ثم يفحص عن هذه الأصنام والآلهة، ويخرج بعد حوارات مطولة بعضها مع نفسه وبعضها مع الآلهة المزعومة بالنتيجة المنطقية التالية وهي أن المشركين إنما هم ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (البقرة ١٧١).

ويستخدم الخطاب العقلي القرآني البرهان الذي أفاد منه الفلاسفة الإسلاميون فيما بعد عندما جعلوا برهان صنع العالم البرهان الأول على وجود الله حيث تتهافت جميع الحجج التي يمكن أن يتقدم بها المشركون. إذ كيف تقوم لهؤلاء أي حجة وجميع ما أشركوا مع الله من أشخاص وأصنام لا يستطيعون أن يخلقوا حتى أبسط الكائنات الحية واتفهها ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ (الحج ، ٧٣) ويكفي الإنسان أن يتفكر في صنع العالم ونظامه حتى يدرك أن كل الأرباب التي تتخذ من دون الله لا تستطيع أن تؤتي بمثل جزء يسير منه.

ولأن الخطاب القرآني هو بالدرجة الأولى خطاب العقل فإن رسالة النبي محمد

صلّى الله عليه وسلّم لم تكن تحتاج إلى أكثر من هذا القرآن نفسه لتأكيد صدقها. فإذا كان الأنبياء عادة يتميزون بمعجزاتهم يثبتون بها صدق نبوتهم، والمعجزة هي لجوء إلى اللامعقول لأنها خرق للقانون الطبيعي المعقول، فإن محمد بن عبدالله لم يجتمع إلى أكثر من القرآن المبين حجة يتقدم بها لخصومه من بني قومه. وعندما يطلب منه هؤلاء أن يثبت نبوته باللامعقول كما هو شأن الأنبياء السابقين إبراهيم وموسى على وجه الخصوص، فإنه يلجأ إلى العقل حيث يرد على معارضيه بأن السابقين عليهم من معارضي الأنبياء كانوا يعـاندون حتى بعـد تقدم الأنبيـاء بمعجزاتهم التي تخرق القوانين الطبيعية العقلية، وأنه يكفيهم خطاب الكلمة وهو خطاب عقلي بالدرجة الأولى، فإذا احتاجوا إلى زيادة فأمامهم خطاب الطبيعة وهو خطاب عقلي أيضاً لأنه خطاب القوانين المنظمة والحكمـة البالغة ويكفي هؤلاء أن يسيروا في الأرض فتكون ﴿لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ (الحج ٤٦).

وعلى هذا يمكن ايجاز خطاب القرآن المعقول بشقين: الأول هو إقامة الحجج العقلية على تهافت الشرك مهما كان شكله، والثاني اللجوء إلى صنع العالم ونظام الكون والقوانين الطبيعية لإقامة الدليل على وجود الصانع. كل ذلك ضمن نطاق الكلمة، والكلمة تخاطب الجانب العقلاني في الإنسان وهي بخلاف المعجزة التي تخاطب الجانب اللاعقلاني عنده. بعد هذا لم يعد النبي عليه السلام بحاجة إلى أي معجزة يرد بها على مجادلات خصومه ومعارضيه.

يضاف إلى ما تقدم أن الإسلام عندما جعل محمداً خاتم النبيين، وأعلن عن انتهاء دور الأنبياء بعده، أفسح المجال أمام العقل الإنساني لأن يلعب دوره في هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم ومقاومة الانحراف والوقوف في وجه الجهل. لقد ترك الإسلام للعقل الإنساني أن يخلف النبوة عندما أوكل إليه القيام بالمهمة التي كان يقوم بها الأنبياء في العصور القديمة. فإذا أضفنا إلى هذا أن القرآن طلب إلى الإنسان أن ينظر ويفكر في ملكوت السمـوات والأرض، وإذا أضفنا إلى هذا وذاك أن القرآن يقر بوجود التحولات الثقافية في الحياة الإنسانية، فإنه

يمكننا الخروج بنتيجة مهمة وهي أن القرآن جعل من العقل أداة أولية في حياة الإنسان بعد أن كانت هذه الأداة هامشية أو ثانوية في الأديان السابقة. هكذا تتحول جميع الحقائق الحياتية المستجدة إلى حقائق دينية مالم تعارض نصاً صريحاً من النصوص القرآنية، بل إن بعض الأصوليين من الفقهاء أباح تعطيل بعض الحدود، في ظروف خاصة أو ضمن شروط معينة، عملاً بمبدأ المصالح المرسلة.

٤ ـ ومن العوامل الأساسية التي هيأت التربة الصالحة لانطلاقة عملية التحول الفكري الواسعة التي أحدثها الإسلام، تأكيد الدين الجديد على العدالة التامة والمساواة المطلقة بين بني البشر، حتى أصبحت العدالة والمساواة من الصفات التي تكاد تختصر هذا الدين فإذا كانت المسيحية تعرف بأنها دين المحبة فإن الإسلام في المقابل هو دين العدالة. إنه لما يلفت النظر حقا أن الدعوة المحمدية لم تفرق بين شعب وشعب (إذ لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)، كما أنها لم تفرق بين المؤمنين فهم جميعهم أخوة مهما كانت فئاتهم الاجتماعية ومهنهم ووظائفهم وأصولهم التي ينحدرون منها.

ويمكن الوقوف على اهتمام الحكم الإسلامي الجديد بمبدأ العدالة هذا من خطب الخلفاء الأوائل المعروفين بالراشدين عند توليهم زمام السلطة السياسية، فقد جاء في خطبة أبي بكر الافتتاحية المشهورة والتي مطلعها «قد وليت عليكم ولست بخيركم» ما يلي: «ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق له». (١). وهو ما نجده يتردد في خطبة عمر بن الخطاب في المدينة بعد توليه الخلافة حيث قال: «ياأيها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه». ولا شك في أن هذه خطوة كبيرة إلى الأمام في مجتمع كانت تتفاضل فيه القبائل بحسبها ونسبها، وتتباعد فيه الفئات الاجتماعية، في مكة على الخصوص، بسبب الغنى الفاحش من جهة والفقر المدقع من جهة أخرى.

---

(١) جمهرة خطب العرب، تأليف: أحمد زكي صفوت، ج ١ ص ١٨٠.

لم يكن المجتمع المكي إبان ظهور الدعوة المحمدية مجتمعا تتحكم فيه الخلافات القبلية فقط، بل كان مجتمعا يكاد يكون طبقيا بالمعنى الحديث للكلمة. فقد كانت مكة مدينة تجارية منهمكة في احتكار مكاسب الطريق التجاري بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، وهي تشبه إلى حد بعيد الحاضرات القديمة تدمر والبتراء وغيرهما، عرف أهلها البحبوحة والرخاء والعلاقات العامة والتجارة والدبلوماسية، واكتسبوا خبرة واسعة في أمور الدنيا، إلا أن جانبا مظلما رافق هذا الازدهار الواسع وقد تمثل هذا الجانب المظلم بالهوة الواسعة التي كانت تفصل بين الأغنياء والفقراء والأشراف والعامة والسادة والعبيد. وقد جاءت الدعوة المحمدية رفضا تاما للمظالم والآفات التي كانت تتحكم بهذا المجتمع، وقد طرحت بديلا يتلخص بالمساواة والعدالة والإخاء بين المؤمنين أتباع الدين الجديد، معلنة الحرب على كل ما ينتمي إلى الثورة المضادة من فلول مجتمع الظلم والطغيان والتمييز بين المواطنين واستعباد (الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً).

تجسدت عدالة الاسلام ومساواته وإخائه بين المؤمنين في العبادات والشعائر الدينية والتشريعات والممارسات، ولا نحتاج هنا إلى استعراض جميع ما يؤكد هذه الحقائق، ونكتفي ببعض الأمثلة القليلة. فعلى صعيد العبادات يتساوى الجميع كأسنان المشط لا يستثنى منهم حتى صاحب الدعوة نفسه، ولا فضل لإنسان على إنسان، يقف الجميع سواسية للصلاة في صفوف متراصة يمكن أن يؤمّها أي فرد من الجماعة، متحملا مسؤولية إمامتها وقيادتها، لا تفضيل لفرد على فرد بالأصل أو اللون أو ما يشبه ذلك من ضروب التمييز. وإذا كان لا بد من معيار يقاس به الرجال فهو العلم والعمل أولا وقبل كل شيء. ولعل ما يبين ذهاب الإسلام بعيدا في هذا المضمار عدم وجود طبقة من رجال الدين تشبه الاكليروس تتمتع بالامتيازات من دون غير أفرادها من المؤمنين.

أما على صعيد التشريعات والممارسات فسلسلة الأمثلة قد يكون لها بداية دون أن يكون لها نهاية. لقد أعاد الإسلام صياغة العلاقات الاجتماعية، ونظم الحياة الاقتصادية والسياسية مراعياً مبدأ العدالة والمساواة، وحدّ من الفروقات بين المرأة

والرجل إلا ضمن نطاق تستدعيه شروط واضحة في المجتمع، فإذا كان للذكر مثل حظ الأنثيين فما ذلك إلا لأن الذكر يتحمل المسؤولية كاملة، فإذا فقدت المرأة بعلها تحمّل الرجل الأقرب من أخ وابن وغيرهما مسؤولية إعالتها، والاخلال بتحمل هذه المسؤولية هو احلال بالشروط التي أباحت له حظين مثل حظها قد يستدعي إعادة النظر في هذا الحق.

لم يقع بعد ظهور الاسلام أي حدث عالمي يمكن قياسه على ما مثله الإسلام على صعيد التغيير الاجتماعي الشامل، وما أحدثه من نتائج عملية كادت تطول العالم بأسره بشكل مباشر، إلا الثورات الكبرى في العالم، الفرنسية والشيوعية بشكل خاص، مع فارق أساسي طبعا، وهو أن الإسلام دين ورسالة سماوية ملهمة جاءت نتائجها على أرض الوقائع تشبه الثورة ثقافيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، في حين أن الثورات الكبرى هى رسالات إنسانية حاولت أن تحل محل الأديان ، بل تحول بعضها إلى ما يشبه الدين عند أصحابها. والإسلام من وجهة نظر أحداث العالم التاريخيه هو ثورة جاءت نتائجها بالنسبة للعالم القديم أوسع وأشمل وأعمق من نتائج الثورة الفرنسية على العالم الحديث، مع فرق زمني يزيد على الألف سنة.

عالمية الرسالة الإسلامية ، وتوجه القرآن والإسلام عموما إلى جميع الشعوب والأمم، والتوحيد الشامل، والتنزيه المطلق الذي أزال البدائل والوسائط بين الإنسان والله منتزعاً طابع القداسة عن اي سلطة إلا السلطة الإلهية، والخطاب العقلاني الذي تميز به القرآن ، وعدم لجوء النبي عليه الصلاة والسلام إلى أي معجزة غير عقلانية يمكن أن تبرر اللامعقول، والعدالة والمساواة والإخاء بين بني الإنسان، المؤمنين منهم بشكل خاص، هى أهم المباديء التي شكلت الأرضية الصلبة الثابتة التي تأسست عليها الثورة الثقافية، بل الثورة الشاملة التي جاء بها الإسلام فيما نرى، وقد عرضنا لهذه المبادىء بكثير من الايجاز لأن الإطالة فيها تخرجنا عن موضوع بحثنا.

انطلق العرب مزودين بهذه المباديء الأساسية مواجهين ثقافات شعوب العالم القديم كما يسمى، ورغم أن أكثر هـذه الشعوب كـانت تبذ العـرب في انجازاتهم المادية والعلمية المعرفية بشكل عام، إلا أن ما أحدثته الثورة الثقافية في داخل الجزيرة، والآفاق الرحبة التي فتحتها أمام حملة الرسالة الجديدة، جعلت هؤلاء لا يشعرون بأي مركب ناقص أمام الثقافات التي واجهوها، واستطاعوا أن يفيدوا منها على نطاق واسع وأن يستوعبوها ضمن اطار ثقافتهم الجديدة. وقد أثمر ذلك مركبا ثقافيا جديدا، سنحاول تلمس معالمه وخصائصه في الصفحات التالية، هو الثقافة العربية الإسلامية التي شكلت الشريحة العليا لمجمـوعة من الشعوب الإسلامية التي استظلت بظل حضارة واحـدة هى الحضارة العـربية الإسلامية. وقد أصبحت هذه الحضارة واحدة من أبرز الحضارات التي عرفها العالم ، والتي لا تتجاوز العشرين حضارة كما يذكر توينبي المؤرخ البـريطاني، وكان لها دور بارز في إمداد أوروبا بالعلوم والمعارف التي قامت عليهـا حضارة أوروبا أو الحضارة الغربية، حضارة العلم والتكنولوجيا التي تكاد تسود العالم، كما أصبحت فيما بعد.

أما أسباب تخلف الحضارة العربية الإسلامية عن مواصلة تقدمها وتطورها فهى كثيرة عرض لها دارسو هذه الحضارة والباحثون فيها. إلا أن من أهم هذه الأسباب التخلي عن المباديء التي كانت اساس الانطلاقة الأولى، فبعد أن كان الإسلام ديناً للعالم أجمع جاءت الخلافات بين العناصر العربية وغير العربية لتنهك قوى الدولة. لقد أثبت الأقوام الذين أخذوا بالدين الجديد أن العالم لم يكن مهيأً لدعوة عالمية أو أممية فتكاثرت مظاهر الخلافات العصبية بين العناصر غير العربية والعنصـر العربي. وبعـد أن أزال الإسلام كـل سلطة إلا سلطة الحقيقة وهى الكلمة الإلهية استبدت القوى الحاكمة، وتحول التوحيـد والتنزيـه إلى مبادىء جامدة، وبعد أن كان الخطاب القرآني خطابا عقليا فسره الفقهاء وشرحوه على طريقتهم أصبح عقيدة مصبوبة في قوالب جامدة، وبعد أن كان الإسلام دين

العدالة والمساواة رحبت به الشعوب الداخلة في الإسلام تحول الحكام إلى طغاة ومستبدين وظالمين، ومن المعروف أن «الظلم مؤذن بخراب العمران» كما يقول ابن خلدون، إلا أن لهذا حديث -اخر.

(٢) نحو مركب ثقافي جديد:

وافت المنية النبي عليه السلام وهو يعد العدة للانطلاق بجيوش المسلمين لمواجهة العالم الواسع خارج الجزيرة العربية، وكانت تتنازع سيادة العالم في ذلك الحين دولتان عظميان: الأولى هي دولة الروم التي كانت تستظل بنفوذها أوروبا الجنوبية، واكثر مناطق ما يسمى بالشرق الأوسط اليوم، إضافة إلى شمال افريقيا حتى المحيط الاطلسي، والثانية هي دولة الفرس التي كانت تمتد سيطرتها لتشمل معظم القارة الآسيوية. وكان كل من هاتين الدولتين ذا تاريخ عريق، ومجد أثيل وحظ من التقدم والعلم والحضارة يفوق حظ العرب. وقد كان على هؤلاء عندما عزموا على الانطلاق والمضي فيما كان قد شرع فيه النبي صلى الله عليه وسلم، تعلم الكثير من خصومهم والإفادة منهم على أوسع نطاق ممكن. وكانت نتيجة هذا التزاوج الثقافي انتاج مركب ثقافي جديد، يمكن القول إنه جمع أحسن ما كان عند العرب مع أحسن ما كان عند أصحاب الحضارات التي احتك بها العرب، ولا سيما الروم والفرس.

وكان أمل ما أخذه العرب عن خصومهم هو فن الحرب، فقد كانت خبرتهم القتالية والعسكرية ضعيفة ومحدودة بالقياس بما عند الروم والفرس. ولم يكن أخذ العرب في هذا الميدان دون ثمن باهظ دفعوه إبان اشتباكاتهم الأولى خارج الجزيرة عندما حاولوا فتح بلاد الشام لأول مرة. وعندما عاودوا الكرة بعد بضع سنوات كانوا قد أعدوا الجيوش المتطورة مستفيدين من خبراء عسكريين التحقوا بهم بعد أن جذبهم الدين الجديد. وكانت دهشة الروم كبيرة عندما حاصر العرب دمشق بجيوشهم المجهزة بالآلات المتطورة مستخدمين الخطط العسكرية التي لم

يستخدموها قبلاً، ليس لأنهم لم يعرفوها فقط، بل لأنهم لم يكونوا بحاجة إليها في حروبهم الداخلية القائمة على الكر والفر. بعد ذلك أثبت العرب قدرتهم على الابداع في الميدان العسكري، جامعين بين تراثهم القتالي وبين ما أخذوه عن غيرهم، مضيفين إليهما مجددين فيهما.

ويأتي فن السياسة بعد فن الحرب، فقد أثبتت القيادة العربية قدرتها على اكتساب صناعة الإدارة والسياسة على عجل، تماما كما أثبتت ذلك في ميدان صناعة القتال. وقد تلخصت الخطوط العريضة للإدارة والسياسة العربيتين في : احترام عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها وتقاليدها، وتخييرهم بين الدخول في الإسلام، أو دفع ضرائب هى على كل حال أقل مما كان يدفعه الرعايا للحكام فى الدول المغلوبة، وعدم حمل الأمم والشعوب المغلوبة على اعتناق الإسلام تحت التهديد المباشر أو المعاملة بالرفق والانصاف كما تؤكد الأحداث والوقائع التاريخية المتعلقة بفتح العرب للقدس على يد عمر بن الخطاب، أو لغزة ومصر على يد عمرو ابن العاص. فقد كان أهم ما تعلمه العرب في هذا الميدان أهمية رفع الظلم عن الرعايا واكتساب ثقتهم وعدم تهديدهم في حياتهم وأرزاقهم، واعتبارهم أخوة لهم إن لم يكن في الدين ففي العلم والمعرفة بالله الواحد والتشارك في الإنسانية.

وكان العرب بعد أن يستتب لهم الأمر في مجتمع من المجتمعات يستعينون بأبناء ذلك المجتمع ويفيدون من خبرتهم وثقافتهم وتراثهم السابق، وقد نهجوا هذا النهج في ميدان الإدارة والسياسة فاستعانوا بالكتبة والمستشارين والوزراء، فجاءت أصولهم في الحكم والإدارة والسياسة عموما تأليفا جديدا يضم تراث العرب الإسلامي وما قبل الإسلامي إلى جانب ما أخذوه واقتبسوه من تجارب غيرهم، تجد فيه طرفا من هذا وطرفا من ذاك، إلا أنك تجد فيه أولا وقبل كل شيء التجديد والابتكار. ولأن العرب كانوا يفيدون من تجارب وخبرات المجتمعات التي انتقلوا إليها، فقد جاءت تجربتهم في الحكم أيام الدولة الأموية التي استعانت، بالدرجة الأولى بعناصر بيزنطية، مختلفة عنها أيام الدولة العباسية

التي استعانت أكثر بالعناصر الفارسية، كما جاء حكمهم في المشرق عموما مختلفا عنه في المغرب وفي الأندلس لإفادته من أبناء مجتمع مختلف ومع ذلك فقد كان هناك ما يضم جميع هذه التجارب أو يردها إلى أصول مشتركة عربية إسلامية.

وترجع بعض الدراسات فكرة الملكية الوراثية التي أخذ بها معاوية إلى تأثره بنظم الحكم البيزنطية. ومهما يكن من أمر فإن تنظيم الدولة العربية لم يقف عند هذه الحدود المختلف في أمرها من التأثر بأنظمة حكم الشعوب التي حكموها، فعندما تولى الرشيد أمور هذه الدول اهتم بتنظيم وسائل الاتصال مع الأمصار التي كانت تابعة إليه وبصورة خاصة مع الولاة الذين كانوا يمثلونه في الولايات النائية. واهتم الرشيد إضافة إلى ذلك بتنظيم أمور الشرطة وإدارة الدولة التي كانت مؤلفة من أربعة دواوين رئيسة، أهمها الديوان الذي يُعنى بتنظيم مالية الدولة، ولا يضاهيه في الأهمية إلا ديوان الجند، وكانت جميع القرارات تسجل في سجلات الوقائع، وكان المرجع الرئيس في أمور هذه الدواوين الوزير الأول. وجميع هذه التنظيمات الإدارية جديدة على الحياة العربية مستقاه من نظم الحكم لدى البيزنطيين والفرس وغيرهم.

كان القرن الأول بعد الهجرة فترة انشغل فيها العرب بالتوسع وبسط سلطانهم على مناطق جديدة من العالم حتى باتت دولتهم تمتد من الهند إلى المحيط الأطلسي، ومن القفقاس إلى الخليج العربي، وكانت تتضمن هذه الدولة جزءاً مهماً من أوروبا يشتمل على كل إسبانيا. وفي القرن الثاني انتقلت السلطة السياسية من الأمويين إلى العباسيين، واستمرت الفتوحات حتى بلغت مداها، وانصرف الفاتحون إلى تنظيم أمور دولتهم، ووجهوا اهتمامهم إلى ميدان الثقافة والحضارة مباشرة، وأخذوا يقتبسون عن اليونان وغيرهم، فما أن انقضت فترة قصيرة من الزمان حتى نهضت الفنون والعلوم والصناعات واتسعت رقعة الزراعة ونشطت التجارة، وقبل أن ينقضي القرن الثاني للهجرة كان العرب قد أخذوا يتربعون على عرش الثقافة في العالم، يصنعون حضارة سيكون لها فاعلية كبرى في مستقبل

البشرية، شكلت فيما بعد الأرضية التي قامت عليها نهضة أوروبا وما تبعها من تطورات عالمية. وقد كان عصر خلفاء العباسيين الأوائل بمن فيهم هارون الرشيد وابنه المأمون عصر الازدهار الثقافي والحضاري في كافة الميادين، وقد تكلل هذا كله بانتاج مركب جديد سنحاول عرض خطوطه العريضة من خلال أمثلة من العلوم والفنون والصناعات. إلا أنه لا بد قبل ذلك من استعراض المعالم الرئيسة لأخذ العرب عن المجتمعات التي انتقلوا إليها.

لما كانت البلاد التي فتحها العرب وأقاموا عليها دولتهم مترامية شاسعة تضم مجتمعات مختلفة ثقافيا وحضاريا، ومتفاوتة في درجة تقدمها وحظها من التطور، فقد كان من الطبيعي أن تكون التأثيرات المتبادلة بين العرب وشعوب هذه المجتمعات مختلفة ومتفاوتة أيضا. ويلمس الدارس لحضارة العرب وتاريخها هذه الحقيقة كلما تقدم في دراسته. وهذا ما وقف عليه غوستاف لوبون كما يؤكد في كتابه **حضارة العرب** حيث يقول: «تشتمل حضارة العرب التي دامت ثمانية قرون على درجات كثيرة خلافا لما ذهب إليه المؤرخون الذين تعودوا البحث في حضارة العرب أن ينظروا إليها من خلال أمة واحدة ودور واحد، وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجات تطور مختلفة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان العرب، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية ما دام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، ولكن وحدة اللغة والدين لا تعني وحدة حضارة العرب في مختلف البلدان التي خضعت لشريعة محمد(١) صلى الله عليه وسلم». فجوانب هذه الحضارة مختلفة في أشكالها، متباينة في مظاهرها، متفاوتة في درجاتها يصدق عليها ما يصدق على المجتمع العربي اليوم، الوحدة في التنوع والتنويع في الوحدة.

كانت سورية، أو بلاد الشام كما فضل العرب أن يسموها، أول الأمصار

---

(١) وقد قام عادل زعيتر بترجمة هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان: **حضارة العرب**، طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة (د. ت.) ص ١٥٠.

التي أخذها العرب من بيزنطة دولة الروم، وكانت الثقافة والحضارة البيزنطيتين قد رسختا أقدامهما في تلك البلاد بعد حكم دام سبعة قرون تقريبا، وبعد فترة قصيرة من الركود،أعقبت فتح العرب،عادت بلاد الشام للازدهار الذي عرفته في تاريخها السابق، فقد اهتم العرب بها أيما اهتمام لما وجدوه فيها من الغنى في أمور كانوا بأمس الحاجة للعناية بها والإفادة منها، فقد أبدى هؤلاء رغبة حثيثة في دراسة كتب اليونان والرومان فأسسوا المدارس التي درسوا فيها وأفادوا منها قبل أن يصبحوا أساتذة فيها. وكان أول ما اكتسبه العرب من سورية صناعة الحرب وصناعة السياسة، وكان ذلك قبل فتحهم لتلك البلاد وبعده مباشرة. أما بعد ذلك فقد تتلمذوا على أهل البلاد في فن المعمار وغيره من الفنون. وإذا كان العرب قد استخدموا المهندسين والصناع المحليين في تشييد المساجد والأبنية في المرحلة الأولى، فجاءت هذه الأبنية كثيرة الملامح البيزنطية، فإنهم سرعان ما فرضوا ذوقهم الخاص في ميدان المعمار حتى أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ما صار يتعذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يرى شيء من الأثر البيزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعه على طابعه العربي(١) كما يلاحظ في جامع عمر أو مسجد قبة الصخرة الذي يذكّرنا بالطراز البيزنطي، والمسجد الأقصى الذي ما زال يحمل بعض الملامح البيزنطية رغم كثرة الأيدي التي تداولت عليه.

وكان من الطبيعي ألا يقف تأثر العرب بالحضارة البيزنطية عند حدود الهندسة والمعمار، وأن يمتد هذا التأثير إلى ميدان الأفكار مباشرة. وهذا ما يرجح أن يكون قد حدث بالنسبة للمناقشات التي دارت حول مسألة الجبر وحرية الإرادة الإنسانية ، صحيح أن الخوارج كانوا قد طرحوا هذه القضية في مرحلة مبكرة من الحياة الفكرية الإسلامية، إلا أن توسع المناقشات وتعمقها حول هذا

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٦

الموضوع جاء مباشرة بعد احتكاك العرب المسلمين بالأديرة ومراكز تواجد الرهبان المسيحيين في بلادالشام أولا، وفي العراق ومصر بعد ذلك. ولا شك في أن الاتصال بين الطرفين أسهم في تطوير أفكار المسلمين حول قضية الجبر والاختيار التي كانوا المسيحيون قد اشتغلوا بها لفترة طويلة من الزمان(١).

وعندما انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، استعان أهل الحكم بخبراء ومستشارين من بلاد فارس وقد ظهر تأثير هؤلاء في ميدان إدارة الدولة كما ألمعنا. إلا أن ما يلفت الانتباه اهتمام رجال الدولة بأمر التعليم وانشاء المدارس واستدعاء الأساتذة من شتى الأقطار، فنشطت البحوث والدراسات واتسعت دائرة المعرفة في شتى الميادين، وجاءت النتائج ثمرات يانعات. فسرعان ما أدخل العرب علم ومعرفة الشعوب الأخرى في مركبهم الثقافي الجديد، وانتقلوا بذلك العلم وتلك المعرفة إلى ميادين رحبة مستثمرينها في صناعات وفنون وآداب جديدة، فامتدت رقعة الزراعة، واتسعت دائرة الصناعة، وظهرت اكتشافات جديدة في علم الفلك، وآراء مستجدة في الفلسفة، ونظريات جديدة في الرياضيات، واقتحم العرب ميادين مباحث لم يكن لهم عهد بها، وأظهروا من الحماس ما يدهش حتى بلغوا درجة رفيعة من الثقافة، ومرتبة عالية من الحضارة.

تابع العرب نشاطهم العلمي والعملي، وقادوا المسيرة الحضارية مواصلين المهمة التي قامت بها الشعوب التي أخذوا عنها فأضافوا إلى ما أخذوه، وجددوا وابتكروا، فاجتذب ذلك العلماء والحكماء وأهل البحث والنظر ورجال الفن والأدب من جميع الأصقاع، فكان بينهم السريان والفرس والأقباط المصريون والهنود والكلدان وغيرهم. ولم يكن العرب ليستطيعوا أن يرتقوا المرتبة العالية التي ارتقوها لولا استعارتهم من علم غيرهم وإفادتهم من معرفة من تقدم عليهم.

---

(١) Majid Khadduri **The Islamic Conception of Justice**, The Johns Hopkins Univ Press, Baltimore and London, 1984, p. 23

وقد انشأوا مؤسسات خاصة لنقل علوم هذه الشعوب أشهرها بيت الحكمة ببغداد، وأشادوا المكتبات، فاتسع نطاق النقل وامتد على مدى قرنين من الزمان فكان ذلك أساسا من الأسس التي قامت عليها نهضة العرب الكبرى(١).

وقد لخص غوستاف لوبون هذا في عبارة موجزة حيث قال : «إن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعيبين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان(٢)»

تختلف التأثيرات المتبادلة بين العرب والشعوب التي اتصلوا بها وتفاعلوا معها باختلاف الظروف وعوامل القوة والضعف التي كانت تسود ثقافة وحضارة هذه الشعوب. فعندما تكون ثقافة شعب ما متماسكة ومتقدمة، ولم تطرأ عليها علائم الوهن والضعف، فإن تأثيرها في غيرها من الثقافات يكون أشد وأظهر ، وقد يكون هذا التأثير محدودا كما رأينا عندما ألمعنا إلى تأثير البيزنطيين بالعرب في بلاد الشام ولا سيما في ميدان الحرب والقتال وفن المعمار. وقد يتسع هذا التأثير فيتضمن الفلسفة والأدب إضافة إلى جوانب من الحياة الاقتصادية والسياسية والإدارية، كما أشرنا الى أن تأثر العرب بالفرس أوسع من تفاعلهم مع البيزنطيين، ولا يقف التفاعل بين العرب والفرس عند حدود هذه التأثيرات على أهميتها البالغة، فالواقع أنه بعد أن تم النصر للعرب على دولة بني ساسان الفارسية في مرحلة مبكرة من انطلاقهم من جزيرتهم ، وجدوا أنفسهم أمام حضارة عريقة في تاريخها قوية متماسكة في واقعها فاقتبسوا منها وأخذوا عنها وأفادوا منها الشيء الكثير.

حكم العرب بلاد فارس حكما مباشراً لمدة ثلاثة قرون قبل أن تخرج من الحكم

---

(١) للتوسع في موضوع النقل يمكن الرجوع إلى كتاب رشيد حمد حسين الحميلي· حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، طرابلس- ليبيا، ١٩٨٢

(٢) غوستاف لوبون حضارة العرب ص ١٧٩

المباشر إلى الحكم غير المباشر، وكان من الطبيعي أن يكون الأخذ والعطاء قويين خلال فترة الحكم المباشر على الأقل. أخذ الفرس عن العرب الدين الجديد، وأصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والأدب والفلسفة إضافة إلى الدين طبعا، دون أن تصبح اللغة الشعبية لمعظم أهل البلاد. وفي المقابل أخذ العرب الكثير عن الفرس ولا سيما في المرحلة الأولى من احتكاكهم بهم، وقد أسهم ذلك في تكوين مركب ثقافي عربي جديد ليصبح هذا المركب بعد ذلك هو الثقافة الأولى، وهو الثقافة المتقدمة التي تصب فيها جهود المثقفين العرب وغير العرب ممن يدورون في فلك الثقافة العربية.

تروي كتب التاريخ «أن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح العربي كانت على جانب عظيم من الزخرف والزينة، وأن الفرس كانوا يعرفون إقامة القباب، وأنهم كانوا يعلمون كيف يكسون المباني بالميناء، وأن العرب رضوا في دور الفتح بفن العمارة الفارسي مع قليل من التبديل، وأن اهم ما اقتبسه العرب من متفنني الفرس في ذلك الدور الأول هو جزئيات الزخرف واستعمال الميناء على الخصوص، لاطراز البناء الذي استعاروه في البداءة من البيزنطيين في سورية ومصر على الأقل(١)». ومما لا شك فيه أن لفن العمارة الفارسي خصوصية استمرت وظهرت في أشكال الأبنية التي شيدها خلفاء العرب في بلاد فارس، وقد ظهرت هذه الخصوصية في بعض الآثار القديمة المتبقية في مسجد همذان ومدينة مشهد حيث امتزج الطراز العربي بالطراز الفارسي، أما الطراز العربي فيظهر في الأعمدة الرفيعة الهيفاء التي تحمل عادة بعض المتدليات، وأما الطراز الفارسي فيتجلى في المآذن المخروطة وفي الزخرف والزينة والألوان وفي استخدام الميناء على الخصوص. وقد شكل الجمع بين هذين الطرازين نكهة خاصة لا نجدها في فن العمارة العربي في المناطق الأخرى.

---

(١) غوستاف لوبون ـ حضارة العرب، ص١٨٢

لقد تمكن فن العمارة الفارسي من الصمود والبقاء أسوة بغيره من المظاهر الثقافية الفارسية، وقد ظهر هذا الصمود وذلك البقاء بشكل خاص مع الدور المغولي في الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن المغول لم يأخذوا من العرب إلا دينهم تقريبا، أما ما تبقى فأخذوه عن الفرس والهنود، وجميع آثار سمرقند وهي عاصمة الدولة المغولية تشهد بالمؤثرات الفارسية في فن العمارة الإسلامي هناك.

والواقع أن التأثير العربي الأقوى، في بلاد ما وراء النهرين، كان في أمور الدين واللغة، أما الدور الفارسي فكان أقوى في المظاهر الثقافية والحضارية الأخرى، ومنها فن المعمار وهو أحد الأدلة على محافظة الفرس على ثقافتهم بعد دخولهم في الإسلام. وقد حاولوا إحياء هذه الثقافة مجدداً منذ أيام الشاه عباس وحتى أيام الشاه رضا بهلوي، وما زال هذا الأمر موضع زهو وافتخار عند الإيرانيين حتى أيامنا هذه.

وما حدث في بلاد فارس حدث في بلاد الهند أيضا، فقد ظهر العرب في الهند منذ السنوات الأولى للهجرة، ثم خرجت بعد ذلك الأساطيل العربية من عمان والبحرين ،وأبحرت بعيدا في بلاد الهند حتى وصلت إلى مصاب السند، وقد فتح العرب مملكة السند سنة ٧١١ ميلادية فخضعت اكثر بلاد الهند لنفوذهم المباشر.

وكانوا كلما توغلوا في هذه البلاد الواسعة ذات الحضارة القديمة يكتشفون أن حضارتها أعرق مما كانوا يظنون ويعرفون. وقد أفادوا من هذه الحضارة على نطاق واسع واخذوا منها الشيء الكثير، وقد شاركهم الفرس في التفاعل مع حضارة الهند وثقافتها. وقد أخذ العنصر الفارسي يحل تدريجاً محل العنصر العربي، فجاء التأثير الإسلامي في الهند عربيا في البداية فارسيا بعد ذلك، دون أن يقلل هذا من أهمية ما أعطاه العرب للهند وما أخذه عنها خاصة. فقد أخذ العرب عن الفرس في ميدان التصوف وفي ميدان العلوم ولا سيما الحساب، ولا أدل على ذلك من أخذ العرب للصفر والحساب العشري عن الهنود استخدامهم للأرقام الهندية بدلا من أرقامهم التي أعاروها لأوروبا التي لم تكن تعرف إلا الأرقام اللاتينية.

وإذا كان تأثر العرب بالفرس والهنود اذ ذاك قويا، فما ذلك إلا بسبب تماسك الثقافة الفارسية والثقافة الهندية عند فتح العرب لبلاد فارس والهند. أما في مصر فيختلف الأمر ، فقد جاء تأثير المصريين بالفاتحين العرب ضعيفا، وذلك بسبب ضعف الثقافة المصرية وتفككها إبان فتح العرب لمصر. فقد كانت مصر قد استسلمت للغزاة قبل أن يفتحها العرب بقرون طويلة أربت على عشرة قرون، وكان هذا الاستسلام قد جعل ثقافتها خليطاً من حضارة الفراعنة القدامى وحضارة اليونان ثم الرومان بعد ذلك، وكان الوهن قد أخذ يدب فيها بعد الانقسامات التي أصابت الدولة الرومانية. وعندما جاء العرب أعطوا للمصريين دينهم وحضارتهم فتوارت تدريجياً بقايا المزيج الحضاري الذي كان ظاهرا في بعض المدن عندما دخلها العرب، ومع ذلك فقد أثرت مصر تأثيراً حسناً في العرب الفاتحين يظهر ذلك من كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب، الذي يصف فيه أحوال مصر قائلاً: «فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، فإذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء». وفي نفس الخطاب يقترح عمرو بن العاص على الخليفة الثاني أن يصرف ثلث مدخول مصر على بناء الجسور والترع، « فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال(١)». ولعل الأثر الأقوى الذي تركته مصر في ثقافة العرب وحضارتهم كان ما شاهدوه وما عرفوه وما سمعوه عن مدينة الإسكندرية وماضيها المجيد. ولا شك في أن الإسكندرية عندما دخلها العرب كانت لا تزال تحمل بعض ملامح مجدها القديم ، فكانت ضخامة المدينة، واستقامة شوارعها، والآثار الباقية فيها من قصور ومراكز صناعة ومعابد، مثل معبد نبتون وغيره، إضافة إلى مكتبة الإسكندرية الشهيرة، والنصب ، والتماثيل، وغير ذلك كثير.

---

(١) نفس المصدر، ص٢١٢.

كانت مصر أرضا خصبة عرفت حضارات عريقة، منها الحضارة الفرعونية التي ما زالت تدهش العالم في خصوصياتها وفي دقة انجازاتهـا ودرجة تـطورها بالنسبة للزمان الذي ظهرت فيه، وعندما بدأ العرب تشييد ثقافتهم وحضارتهم ساروا على نفس المنوال الذي ساروا عليه في دمشق وبغداد متأثرين بالعنـاصر والمؤثرات الأجنبية، إلا أنهم سرعان ما تخلصوا من هذه العناصر والمؤثرات بحيث يمكن القول إن الآثار العربية في مصر على العموم والقاهرة على الخصوص تعتبر الأكثر تعبيراً عن روح الحضارة العربية، فقد أصبحت مصر قلب الدولة العربية الخافق وما زالت حتى اليوم مركز الاستقطاب الاول في العالم العربي. ففي مصر يمكن الوقوف على المباني العربية الأولى التي شيدت في الدور العربي، كما يمكن الوقوف على جميع التحولات التي حدثت وتحققت في الأدوار اللاحقة وقد ظلت مدينة القاهرة منذ أيام عمرو بن العاص حتى اليوم مدينة عربية تمثل المـاضي والحاضر وتحمل وعود المستقبل.

ويشبه ما حدث للعرب في مصر ما حـدث لهم في افريقيـا الشماليـة، فقد أصبحت مركزا عربيا أساسيا مع فرق أساسي وهو المقاومة العنيفـة التي لقيها العرب على يد البربر بقيادة ملكتهم الكاهنة التي اذاقت العرب الأمرين، وألقت الذعر والهلع في نفوس الرجال، وقد استطاعت أن توحد فروع البربر لكبرى القبائل في الجزائر، والطوارق في الصحراء، والشلوح في المغرب، وكان من نتائج ذلك ان هزمت العرب هزيمة نكراء. وعندما عاود هؤلاء الكرة كادت تلحق بهم الهزيمة مرة أخرى، وكانت عندما تنسحب لتعاود الهجوم تهدم القرى والمدن، وهذا ما فعلته في المنطقة الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة قبل أن تقتل في إحدى المعارك، وهو الأمر الذي أدى إلى تحول مهم في طبيعة المعارك فانقلبت هزيمة العرب إلى نصر كبير.

استولت على شمال افريقية شعوب كثيرة قبل العرب كان لها آثار مختلفة في

درجة شدتها وضعفها، منها القرطاجيون والرومان والوندال الـذين جاؤوا من إسبانيا، والقوط الذين جاؤوا من إسبانيا أيضاً، والبيزنطيون وقد تحولت افريقية الشمالية إلى المسيحية لفترة طويلة كما حدث مع المصريين، ولكن لأن شمـال افريقية لم تكن تحمل ثقافة متقدمة كما كان الحال مع أهل بلاد الشام وبلاد فارس مثلا، فإن تأثير البربر في ثقافة العرب وحضارتهم كان ضعيفاً جداً، دون أن يعني هذا أن البربر قد تخلوا عن تراثهم وثقافتهم رغم تقدمها، وقد كانت هذه الثقافة أحد أهم عوامل صمود البربر أمام التقدم العربي، ولم يتمكن العرب من تحويل الولايات الإفريقية إلى مراكز عربية كما حدث في مصر إلا بعد تدفق موجات كثيفة من العرب قدرت إحداها بمليون نسمة وقدرت اخرى بربع المليون من البشر.

وقد كانت افريقية الشمالية طريق العرب إلى الأندلس وإسبانيا، فهناك أقاموا دولة مزدهرة لعدة قرون كانت ميدانا فسيحا للتفاعل الثقافي والحضاري، وكانت إحدى المحطات الكبرى التي ساهمت في انشاء المركب الثقافي الجديد الذي حققه العرب بفعل أخذهم عن الثقافات والحضارات الأخرى وتمثل ما أخذوه لإعادة انتاجه مركباً ثقافياً بالغ الأهمية كان حلقة أساسية من حلقات التاريخ الحضاري للعالم.

دهش العرب بسهولة فتحهم إسبانيا إذ لم يستغرق إلا شهورا قليلة، وكان من الطبيعي أن يدهشوا لذلك، وقد استغرقهم فتح شمال افريقيا والسيطرة عليها زهاء نصف قرن من الزمان. إلا أن ما أدهش العرب أكثر من ذلك كان الغنى الذي لاحظوه فيها، والخصب الذي عرفوه في تربتها اضافة إلى المناخ الطيب والهواء العليل، فقد وجدوا أنها تجمع أحسن ما في الشام واليمن والهند والأهواز والصين وعدن كما جاء في رسالة لموسى بن نصير إلى الخليفة الاموي «شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها». (١) وقد

---

(١) نفس المصدر ص٢٦٥

أحسن العرب معاملة أهل المدن الإسبانية التي فتحوا أكثرها صلحا دون مقاومة، وتركوا لهم ممتلكاتهم وأموالهم كما فعلوا مع أهل الشام وأهل أرض النيل، كما تركوا لهم حرية التعبير في كنائسهم وحق المقاضاة أمام قضاتهم، ولم يفرضوا إلا ضرائب خفيفة كانت خفيفة على كواهل المستحقين فرضوا بها وأدوها دون كبير تذمر. وقد دعم العرب وجودهم في إسبانيا الإسلامية بالتزاوج من سكان البلاد الأصليين فازداد عددهم وازداد ارتباطهم بالبلاد، ونشأ عن ذلك مزيج فريد من السكان اختلط فيه القوطي بالعربي واللاتيني بالبربري، تماما كما نشأ مركب ثقافي فريد امتزجت فيه عدة عناصر ثقافية في ظل الإمامة الثقافية العربية.

استمرت دولة العرب في إسبانيا لمدة ثمانية قرون كانت عنوان التسامح الديني، وأمثولة التفاعل الثقافي بين المسلمين واليهود والمسيحيين، ورمز الرخاء والازدهار والتقدم. فبعد فترة قصيرة من استتباب الأمور للعرب في إسبانيا بدأت رسالتهم الثقافية والحضارية فيها، فأقاموا المدن والحاضرات المزدهرة، وأشادوا القصور والمباني الفخمة، وزرعوا البساتين والحدائق، وأناروا الشوارع والساحات، ووصلوا إسبانيا بالعالم تجاريا وعلميا وثقافيا، وأنشأوا المدارس والجامعات، وعمروا المكتبات، وانصرفوا للحياة بعلومها وفنونها وآدابها أكثر مما أخذوا، وحولوا إسبانيا إلى واحة ثقافية وحضارية ارتاح الزمان في أرجائها عدة قرون، وغدت مدنها ولاسيا قرطبة أرقى مدن الأرض، وكانت زراعتها من أخصب الزراعات حيث أثبت العرب براعتهم في هذا الميدان، وأضحت تجارتها وصناعتها من أوسع التجارات والصناعات في عالم تلك الأيام.

وكانت إسبانيا طريق العرب إلى صقلية وايطاليا الجنوبية، ومنها اتصلوا بفرنسا عبر غارات متتالية. وقد نظم العرب صقلية وقسموها إلى ثلاث ولايات بحسب طبيعتها الجغرافية، وطوروا كافة وجوه الحياة فيها، وجروا فيها مجراهم من التسامح الديني الذي ساد إسبانيا الإسلامية، فقد تركوا لمسيحيي صقلية قوانينهم الدينية والمدنية وتنظيم أمورهم الادارية، ولم يأخذوا من الأهالي إلا ضرائب يسيرة على الأغنياء، وتساهلوا مع أبناء الطبقات الوسطى فلم يأخذوا إلا نصف

قيمة الضرائب المفروضة على الأغنياء، ولم يأخذوا من الفقراء إلا ربع قيمة الضريبة الأصلية، وهي على كل حال أقل مما كان يدفعه هؤلاء للروم البيزنطيين، وقد أعفوا رجال الدين والنساء والأطفال من الضرائب باعتبارهم من غير المنتجين وقد كانت صقلية حقل خبرة واسعا أفاد منه العرب كما كان الحال في إسبانيا، وقد نشطت في أيامهم الزراعة فعرفت صقلية ضروبا من الزراعة ليس لها بها سابق عهد، وعرفت الصناعة واستخراج المعادن والموارد الطبيعية من فضة وحديد وكبريت ورخام، وازدهرت صناعة الحرير، وتطور فن المعمار، وشيدت المدارس والمكتبات، وانتعشت الحركة العلمية، كل ذلك بفضل إفادة العرب من تجارب غيرهم من الشعوب وتمثله واستيعابه، وإعادة صياغته ضمن اطار مركبهم الثقافي الجديد الغني والمتنوع كما لاحظنا حتى الآن.

ونحن إذ نكتفي بهذه الصورة البانارامية السريعة لاتصال العرب بالشعوب الأخرى وأخذهم عنهم وإفادتهم منهم وتفاعلهم معهم، وهو ما أدى إلى انتاج مركب ثقافي جديد متنوع ومختلف باختلاف طبيعة الاتصال مع ثقافات هذه الشعوب، ننتقل الآن لنعرض لتجليات هذا التفاعل من خلال أمثلة من الفنون والصناعات والعلوم.

[٣] تجليات المركب في ميدان الفلسفة

تتهم الفلسفة العربية، وهي تلك التي أسهم فيها فلاسفة من أصول إسلامية مختلفة، إلا أنهم كتبوا بالعربية وشاركوا في انتاج فكر فلسفي يشكل جزءا مهما من المركب الثقافي الذي هو موضوع حديثنا، تتهم هذه الفلسفة بأنها خلطت بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو وقدمتهما في صورة لا تتعارض مع الإسلام، وأنها بذلك قد ارتكبت خطأين: الأول أن فلسفة أرسطو تتعارض مع فلسفة أفلاطون، والثاني أن كلتا الفلسفتين تتعارض مع الإسلام باعتبار أن الفلسفة عقلية والإسلام نقلي. والواقع أن التأليف بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو والجمع بين العقل والنقل هو أهم ما تميزت به الفلسفة العربية بدءا من الكندي حتى ابن

رشد، مروراً بالفارابي وابن سينا وابن باجه وابن طفيل وغيرهم. والواقع أيضا أن الثقافة العربية هي التي نقلت إلى مدارس أوروبا الوسيطية الاتحاد الخصب بين النظر والوحي، أو العقل والنقل باعتبار أنهما وجهان لحقيقة واحدة. وقد استطاع الفلاسفة العرب والمسلمون أن يقوموا بهذا الجمع لأن الإسلام هو دين عقلي، أي أن خطابه هو خطاب عقلي بخلاف الديانات الغنوصية التي تغيّب العقل وتدفع إلى إقالته.

صحيح أن بعض النقلة وبعض فلاسفة العرب الأوائل قد خلطوا بين أفكار الحكيمين اليونانيين، وأن بعض أعمال غيرهما قد نسبت إليهما، وأن في هذا الخلط بعض التشويه وإن كان يمكن تبريره، إلا أن ما كان يهم الفلاسفة العرب أولاً وقبل كل شيء لم تكن نسبة كتاب ما إلى فيلسوف بالذات، وإنما كون الفلسفة عموماً، وحكماء اليونان خصوصاً،يعبرون عن الحقيقة الواحدة بطرائقهم الخاصة، فكأنهم جميعاً مصوّرون يقدمون صوراً لشيء واحد كلّ من زاويته الخاصة، وفي حالة من هذا النوع ما يهم ليس هو الصور وإنما مقدار تعبير هذه الصور عن الموضوع. ومن جهة أخرى، إذا كانت الحقيقة واحدة فما يهم هو معرفة هذه الحقيقة والوصول إليها، سواء كان ذلك بطريق نقلي أو بطريق عقلي، وسيّان تم ذلك بواسطة النبي أم الفيلسوف. صحيح أنه يمكن المفاضلة بين هذا الطريق أو ذاك، إلا أن هذه المفاضلة لا تتعلق بالهدف نفسه وإنما بأسلوب الوصول إليه.

لم يصدر فلاسفة العرب في موقفهم هذا عن جهل أو قصور، وإنما صدروا عن رؤية خاصة هي من نتاج ثقافتهم. لقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض خصائص الدين الإسلامي التي مكّنت العرب من الانطلاق إلى أرجاء العالم الواسعة، وذكرنا عامل التوحيد كأحد هذه الخصائص، والواقع أن عامل التوحيد هذا هو الذي يقف وراء موقف الفلاسفة العرب من وحدة الحقيقة وتعدد طرق الوصول إليها. ليس فقط لأن الإسلام يقول بحقيقة واحدة هي مصدر مصداقية كل حق وكل صدق، بل لإن الإسلام إضافة إلى ذلك يعترف بتعدد صور التعبير

عن هذه الحقيقة، فلكل قوم نبي يعبر بلغة قومه عن الحقيقة عينها التي يعبر عنها الآخر، والأديان الرئيسة متمم بعضها لبعض، فدين إبراهيم ودين موسى ودين عيسى جميعها رسائل من مصدر واحد وصور تعبر عن حقيقة واحدة، ولولا بعض التشويه الذي طرأ على بعض هذه الصور بفعل الزمان لكانت جميعاً صالحة لا يفرق بينها إلا مقدار تعبيرها عن الحقيقة.

وما يصدق على الأديان المتعددة يصدق على كل سعي لبلوغ الحقيقة، فلقد كان بإمكان فلاسفة العرب أن يجمعوا بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو لأنهم كانوا يمتلكون القاعدة التي تمكنهم من ذلك والمحور الأساسي الذي يتيح ذلك. إنه محور التوحيد الذي يمكن أن تردّ إليه كل الرؤى الأساسية عن الحقيقة، وهو محور ذو شقين، فهو من جهة يفيد أن الله واحد متعال يحيط بالكون بأسره، وهو من جهة أخرى يتضمن أن كل ما هو موجود بالضرورة صادر عن الله الموجود الأول. فكل ما في العالم من كثرة يرتد إلى وحدة هي مصدره الأول، وكل ما في الوجود يتوقف وجوده على واجب الوجود. لقد عبر فلاسفة العرب عن هذا الموقف بطرائق مختلفة، فتحدث الكندي والفارابي عن مصدر الحقيقة الواحدة سواء أكانت فلسفة أم ديناً، وقال ابن سينا بفكرة واجب الوجود وهو الله، في مقابل كل ماعداه وهو ممكن الوجود أي الموجودات، وأتى ابن باجه بطريق للترقي من أدنى الموجودات صعوداً إلى أعلاها موحداً بين عالمي المادة وما وراء المادة.. وهكذا. وإذا كان العرب قد أخذوا الخطوط العريضة لهذا المبدأ الفكري من ما ورائيات أفلوطين، فإن هذا المبدأ في الحقيقة هو مبدأ إسلامي قرآني أفاد منه العرب في صياغة موقفهم الفلسفي ضمن اطار وضع مركبهم الفكري. (١)

كان منهج أفلاطون منهجاً تأملياً استبطانياً، فهو يرى أن عالم الحقيقة هو عالم المثل، وأن النفوس كانت تعيش في عالم المثل هذا، وأن هبوطها إلى العالم الأرضي

---

(١) قارن ـ Titus Burckhardt : **Moorish Culture in Spain**, translatd by Alisa Jaffa, Mcgraw - Hill, New York, 1972, P 129

عـالم الوهم والخيـال جعلها تنسى عـالم الحقيقـة، وأن الفـلاسفـة هم الـذين يستطيعون ادراك الحقيقة عبر عملية التذكر، أما أرسطو فقد مـال إلى استقراء الواقع، وقد أوصله هذا الاستقراء إلى أن العالم أشبـه ما يكـون بالهـرم، وأن الدرجة العليا من درجات الهرم تستوعب ما تحتها، فالعالم مكـوَّن من أجناس متعددة، وكل مجموعة أجناس تندرج في نوع ما، وهذه الأنواع هي بمثابة أجناس لنوع أعلى. . وهكذا، حتى نصل إلى نوع لا نوع له يستوعب العالم بأسره. ورغم التعارض الظاهر بين هذين النهجين وهاتين الفلسفتين فقد وجـد العرب أنهما وجهان لحقيقة واحدة، وعلى هذا فهما مختلفان إلا أنهما ليسا متعارضين، تماماً كما أن الإسلام، وهو وجه أساسي من وجوه الحقيقة، لا يمكن أن يتعارض مع هذين الوجهين.

أفاد العرب من فلسفة أفلاطون المثالية كما أفادوا من فلسفة أرسطو ونظرته إلى العالم، وقد دمجوا الفلسفتين مع غيرهما من مذاهب اليونان الفلسفية مستعينين بمبدأ التوحيد الإسلامي كما أسلفنا وقـد يكون من المستحيـل تقديم صـورة ملخصة عن هذا المركب الفلسفي الجديد، الذي يشتمل على عشرات الأسماء اللامعة إذا لم نقل المئات، إضافة إلى مئات المؤلفات إذا لم نقل الآلاف، إلا أن هذا يجب أن لا يثنينا عن تقديم صورة موجزة تمثل جانباً أساسياً من جوانب هذا المركب، ومهما يكن من أمر فذلك أكثر نفعاً وأعم فائدة من ترك المحاولة.

أ ـ نبدأ بالجانب الأبستمولوجي حيث تلخصت المسألـة الرئيسـة في طبيعة العلاقة بين معرفة الفيلسوف ومعرفة النبي، أوالعلاقة بـين المعرفـة العقلانيـة والمعرفة التي تتكشف عن طريق الوحي والإلهـام. وقد أجمـع أرباب الفلسفـة العربية على أن الأنبياء والفلاسفة وحدهم هم الذين يستطيعون الاتصال بالعقل الأول، وهو الوجه الفلسفي لله، وبالتالي هم وحدهم الذين يستطيعون الوقوف على الحقيقة كاملة. الأنبياء بطريق الوحي، وهو طريق هابط من الله إلى أنبيائه ورسله عبر جبريل أو الوحي أو الكشف، والفلاسفة بطريق العقل، وهو طريق صاعد من العقل الإنساني إلى العقل الأول عبر العقول المفارقة. وقد كان المبدأ

الأساسي الذي جعل الفلاسفة يعترفون بمناهج أخرى لإدراك الحقيقة، المبدأ الذي أشرنا إليه قبلاً، وهو مبدأ التوحيد كما فهمه المسلمون، والذي أفاد منه الفلاسفة وخرجوا بموقف جديد هو من خصائص الفلسفة العربية.

ومن الطبيعي أن يطرح هذا الموقف السؤال حول أفضلية إحدى المعرفتين على الأخرى، وقد جاءت الأجوبة متقاربة مع بعض الاختلافات، بعضها جاء غامضا وبعضها جاء أقل غموضا وأكثر صراحةً ووضوحاً، مع ميل عام عند الفلاسفة إلى تفضيل المعرفة العقلية على المعرفة الكشفية، لأن المعرفة العقلية تشتمل على المقدمات والوسائط والنتائج، في حين أن المعرفة الإلهامية لا تتضمن إلا النتائج دون المقدمات. إلا أن المجتمع عادة أكثر حاجة إلى المعرفة الكشفية الإلهامية، لأن الفلاسفة هم الخاصة، وهم قلة لا يجود بهم الدهر كثيراً، لهذا لم تقم المدن الفاضلة التي يحكمها العقل عبر الفيلسوف العاقل، واشتدت الحاجة إلى الأنبياء والشرائع وهي هبة وفضل من الله لعباده، وإذا كان هذا الموقف قد ظهر عند الكندي والفارابي، إلا أنه أخذ يتضح تدريجاً حتى تكشف صريحاً عند ابن باجه(1). أما ابن طفيل فقد عرض للموقف الفلسفي من حلال قصته الفلسفية حي بن يقظان حيث يتمكن حي الذي ينمو وحيدا في جزيرة نائية من الوصول عبر عقله إلى الحقيقة الفلسفية كاملة، وهي نفس الحقيقة التي يقدمها الوحي والدين الإسلامي على وجه الخصوص

أما الأفراد فيتفاضلون في معرفتهم بمدى قربهم من الحقيقة أو بعدهم عنها، وينتج عن ذلك ثلاث أو أربع درجات أعلاها درجة أهل اليقين، وأدناها درجة العوام وبينهما أهل الظن

ب ـ بعد موضوع المعرفة أو الابستمولوجيا ننتقل إلى موضوع الوجود. يقسم الكون إلى قسمين رئيسين، ماتحت فلك القمر، وما فوق فلك القمر. الأول هو

(1) انظر معن زيادة، الحركة من الطبيعة الى ما بعد الطبيعة، دار إقرأ، بيروت، ١٩٨٥ ص٣٨ ومابعدها وانظر أيضاً كتاب تدبير المتوحد لابن باجه الأندلسي، تحقيق معن زيادة، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨

العالم المادي ، والثاني هو العالم السماوي . ويشتمل عالم المادة على جميع الموجودات المادية بدءاً بأبسطها وأدناها وانتهاء بأعقدها وأعلاها . والإنسان من حيث هو جسم موجود في العالم هو جزء من هذا العالم ، وإن كان يتميز عن غيره من الموجودات المادية بالعقل الذي يستطيع أن يرتفع به إلى خارج حدود العالم المادي . وجميع موجودات هذا العالم مركبة من أربعة عناصر رئيسة تجتمع وتفترق بنسب مختلفة ، وهذه العناصر هي : الماء والهواء والنار والتراب ولكل عنصر من هذه العناصر خاصية معينة ، وجميع هذه العناصر وبالتالي جميع الأجسام المادية خرجت من مادة أولى هي الهيولي ، وعندما تجتمع المادة مع شكل أو هيئة معينة هي الصورة يتميز الجسم ويتحدد . وعلى هذا فلكل جسم علتان أو سببان المادة والصورة . ويضاف إلى هذين السببين سببان آخران هما العلة الفاعلة وهي ما يخرج الشيء من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ، والعلة الغائية وهي الغرض أو الهدف من وجود الشيء ، وعلى هذا فلكل جسم موجود أربع علل أو أربعة أسباب : المادة والصورة والفاعل والغاية .

ويقابل العالم المادي أو عالم ما تحت القمر ، العالم السماوي أو عالم ما فوق فلك القمر ، وهو مكون من تسعة أو عشرة كواكب سيارة رئيسة ولكل كوكب عقل ونفس . أما أعلاها فهو العقل الأول وهو المحرك الأول الذي لا يتحرك ، وهو يقابل الصانع أو الخالق . وهذا العقل الأول هو عقل محض ومن تعقله يخرج عقل آخر ونفس أولى ، ومن هذا العقل وتلك النفس يخرج عقل جديد ونفس ثانية ، وهكذا دواليك حتى تبلغ العشرة عدداً يتكون منها عالم السماوات واحدة فوق الأخرى .

أما الإنسان فهو حلقة وسطى بين هذين العالمين . فهو من جهة جسم مادي ينطبق عليه ما ينطبق على كل جسم مادي ، وهو من جهة أخرى يتميز بأن النفس هي كمال وجوده ، ولا سيما العقل وهو الجزء الأرقى من النفس . فالإنسان يدرك العالم الخارجي بحواسه الخمس ، وهنا تتدخل قوى النفس الأخرى وتحول هذا العالم الخارجي إلى عالم داخلي . وأول هذه القوى النفسية الحس المشترك ، ثم

المخيلة، ثم الذاكرة، وأعلاها العقل، وهو ما يميز بين الخطأ والصواب. وهذه القوى النفسية تراتبية، شأنها شأن موجودات العالم المادي من جهة، وعقول العالم السماوي من جهة أخرى، فالدرجة الأعلى تستوعب ما تحتها من درجات. وأهمية هذه الصيغة التراتبية التي يمكن التعبير عنها بدوائر ذات مركز واحد بعضها يستوعب البعض الآخر، إنها تبين لنا بشكل مبسط أن العقل يستوعب قوى النفس الأخرى، فدائرته هي أوسع الدوائر وهي على هذا تستغرق الدوائر الأخرى التي تمثل قوى النفس، لأن العقل يستطيع أن يدرك القوى الأخرى أما هي فلا تستطيع أن تدركه. وهكذا فالعام يستوعب الخاص والأكثر حرية يستوعب الأقل حرية، والمطلق يستوعب ما عداه. هذه الصيغة تبين بنفس الشكل المبسط كيف أن الله المستوي على عرش الكون يستوعب كل ما عداه، فإذا كانت دائرة عرش الكون هي أكبر الدوائر وأوسعها فإن كل الدوائر الأخرى التي تمثل درجات الوجود المختلفة متضمنة أو مستغرقة في الدائرة الكبرى. فصيغة الدوائر المختلفة الأحجام ذات المركز الواحد تنطبق على العالم المادي، وتصور لنا تركيب الإنسان النفسي، كما تصور لنا الكون بأسره بما فيه عالم المعقولات. فإذا كانت درجات الوجود ثلاثة: مادية ونفسية وعقلية، فإن صيغة الدوائر المشار إليها تصدق على مراتب الوجود المختلفة كلٌ على حدة من جهة ومجتمعة من جهة أخرى.

وقد لا تكون هذه الصيغة متفقة مع العلم الحديث، ولا يفترض فيها أن تكون كذلك، كل ما في الأمر أنها تصور لنا إحدى محاولات الإنسان الرئيسة لتقديم صورة متكاملة عن الإنسان والعالم والكون بأسره، وهي بلا شك تبرهن لنا أن المعرفة الإنسانية تتطور مع العصور، وقد كانت المعرفة في العصور الوسطى تقوم على تجربة إنسانية أضيق من تجربتنا اليوم، وكانت هذه التجربة تقف عند حدود أن الجانب المادي في الإنسان يشد الإنسان إلى أسفل في حين أن العقل يسمو به إلى أعلى، وأن الإنسان موزع بين ثنائية لا مفر منها إلا بتخليص العقلي من المادي أو سيطرته عليه سيطرة كاملة. إلا أن هذه الصيغة تعود بنا إلى مبدأ الوحدانية

الذي ارتكز إليه الفلاسفة في توحيدهم بين فلسفتي أفلاطون وأرسطو وبين هاتين الفلسفتين والمفهوم الإسلامي، فالله يستوعب العالم بأسره بحكم كونه مصدر هذا العالم، وكلما اقتربت درجة الموجودات من المصدر كلما ارتقت مرتبتها وازداد سموها. فعالم المادة هو أدنى العوالم وفيه درجات، وعالم السماء هو أعلاها وفيه درجات، والإنسان يجمع بين الأثنين، وقد يكون أقرب إلى عالم المادة، كما قد يكون أقرب إلى عالم العقل، بحسب قدرته على أن يحكم العقلي فيه المادي.

والصيغة موضوع الحديث تخضع لبعض التعديلات الطفيفة بحسب ميل الفيلسوف. فقد يرى أحدهم أن الدوائر المستغرقة بعضها ببعض هي دوائر مستقلة في الواقع، وأن الرسم يبين لنا التضمن الصوري أو المنطقي بعضها لبعض، وهذا ينطبق على رؤية أرسطو للعالم والكون، فالجنس يستوعب عدة أنواع، والنوع يستوعب العديد من الأفراد وكل منها يمثل دائرة مستقلة، في حين أن الرؤية الأفلاطونية تجعل هذه الدوائر يتصل بعضها مع بعض عبر شعاع، أو أكثر يذهب من المركز إلى المحيط ويعود من المحيط إلى المركز في حركة جدلية صاعدة هابطة. والتعديل في الرسم يحدد مدى قرب هذا الفيلسوف أو ذاك من أفلاطون أو من أرسطو. فنظام أرسطو تراتبي إلا أنه تراتب صورى ومنطقي لا يجعل وجود الموجودات متصلاً مباشرة بالمصدر عبر الشعاع، في حين أن تراتبية أفلاطون ترمز إلى ارتباط الموجود بالمصدر وتحدد خيرية هذا الموجود بحسب قربه أو بعده عن المصدر. إلا أنه يمكن ضم هاتين النظريتين في كل موحد، كما فعل ابن‌سينا وابن‌باجه وغيرهما من أرباب الفلسفة العربية، مع إدراكهم للاختلاف بين فلسفتي الفيلسوفين اليونانيين

ولا يبتعد المتصوفون عن هذا التصور كثيراً، وخاصة المتصوفون المتفلسفون من أمثال ابن‌عربي، وقد ظهر ذلك في أفكاره النظرية كما في رياضاته الروحية. ومما يجدر ذكره هنا أن رقص الدراويش المولوية اتباع الشيخ محى‌الدين‌بن عربي، وهو رقص يبدأ بالدوران حول‌الذات، ثم يرافق هذا الدوران حول الذات دوران حول دائرة يتوسطها الشيخ أو المريد، وتتسارع دورات الراقص حول الذات وحول

الشيخ في وقت واحد، في محاولة لدفع النفس إلى الخروج والتحليق في حركة دائرية توازي حركة الأفلاك السماوية، ساعية إلى التوازي معها أولاً ثم الاتصال بها. فهذا الدوران الرمزي يهدف إلى نقل حركة الأجرام السماوية التي تسيرها العقول إلى النفس الإنسانية،أو الإنتفاع بالنفس الإنسانية إلى مجاراة حركة الأجرام السماوية سعياً إلى الاتصال بها والاتحاد معها.

جـ - أما في ميدان الفلسفة الأخلاقية، فقد جمع أرباب الفلسفة العربية بين النظريات الأخلاقية عند فلاسفة اليونان والفضائل الأخلاقية كما قدمها الإسلام، وقد نتج عن ذلك تداخل الأقوال والأمثال والمفاهيم، مثل «اعرف نفسك بنفسك»، وهو قول ينسب إلى سقراط، ويقال إنه كان مكتوبا على مدخل معبد دلفي، وقد عرف عند العرب بصيغة «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، ومثل «خير الأمور الوسط»، أو «خير الأمور أوساطها»، وهو مفهوم ارسطي ردده العرب بصيغ مختلفة، وغير ذلك كثير. ولا عجب أن تظهر هذه الأقوال والأمثال في صورة أحاديث نبوية، فقد كان ذلك يعطيها قوة لم تكن لتحظى بها لو أنها لم توضع في هذه الصيغة. وقد أفاد العرب من غير اليونان أيضاً إلا أن ذلك لم يظهر في ميدان الفلسفة إلا في حدود ضيقة جداً، وقد ظل تأثير الفلسفة اليونانية أوسع وأعمق حتى ظهرت الفلسفة العربية وكأنها شرح أو نقل لفلسفة اليونان، إلا أنها في واقع الأمر تتعدى ذلك إلى إعادة صياغة الفلسفة اليونانية والخروج بمركب فلسفي جديد.

ولم تقف حدود المركب الفلسفي الجديد الذي صاغه العرب مستفيدين من بعض المبادىء الإسلامية ومن تجارب اليونان الفكرية خاصة عند هذه الحدود، إلا أننا حاولنا أن نقدم صورة تكاد تكون جامعة لرؤية هؤلاء الفلاسفة للعالم والكون والوجود. إضافة إلى نظرية المعرفة ومبحث الأخلاق. ولاشك في أن هذه الصورة المختصرة والسريعة لا يمكن أن تكون صورة وافية إلا أنها قد تفي بالغرض هنا.

[٤] في ميدان الطب والصيدلة

لا شك في أن العرب قد أبدعوا في ميدان التطبيب والتداوي، حتى إنه يمكن القول إنهم كانوا المرجع الأول والأخير في هذا الميدان على مدى عدة قرون تمتد من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان، ويكفي العودة إلى بعض المصادر والمراجع حول هذا الموضوع للتأكد من هذا الأمر، كما يكفي ذكر بعض الأسماء اللامعة واستعراض مؤلفاتها للاقتناع بدور العرب الكبير في الطب والعلاج، فالرازي وكتابه **الحاوي** إضافة إلى كتاب **الفصول**، وابن سينا وكتابه **القانون في الطب**، وعلي بن العباس **كامل الصناعة**، وقد عرف باسم **الكتاب الملكي**، وابن النفيس ووصفه الدقيق للدورة الدموية، وغير ذلك كثير... شواهد على تقدم العرب في هذا الميدان. إلا أن مايهمنا هنا ليس استعراض تاريخ الطب العربي، ولاماقدمه العرب في ميدان الطب، ولاذكر القصص المدهشة عن ريادة العرب، وإنما كيف أفاد العرب من العلوم الطبيّة عند غيرهم وكيف استوعبوا هذه العلوم وأعادوا صياغتها ضمن اطار مركبهم الثقافي.

والواقع أن الطب العربي والطب اليوناني يمثلان نهجاً واحداً من الناحيتين النظرية والعملية، فهما يعتمدان أسساً فلسفية وطبيعية واحدة، وضعها في صيغتها الأساسية أبقراط الطبيب اليوناني المشهور، وطورها جالينوس، ثم جاء أطباء العرب كحلقة مركزية تصل بين طب اليونان والطب الحديث. ونهج الطب اليوناني- العربي يختلف عن نهج الطب الفرعوني الذي يعتمد نظريات وتطبيقات مختلفة، أو الطب الصيني الذي يقوم على أسس فلسفية وعلاجية مختلفة كما هو معروف وقائم حتى اليوم. و «الواقع أن الأطباء العرب لم يحاولوا أن يغيروا من الأسس الفلسفية والطبيعية التي قام عليها الطب اليوناني(١)». صحيح أن الرازي وابن الهيثم وغيرهما من الأطباء ينتقدون أبقراط وجالينوس حيث

(١) دكتور محمد كامل حسين «في الطب والاقرباذين» في كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٧٠، ص٢٦٥

تستدعي الحاجة، إلا أن هذا لا يعني أن طبهم لم يكن استمراراً لطب اليونان والإغريق تماماً، كما أن الاطباء اليونانيين لم يغيروا في أسس علومهم الطبيعية على مدى القرون التي جاءت بعد أبقراط.

وإذا كان البعض يرى أنه ليس في الطب العربي من جديد، وهي دعوى يمكن الرد عليها بالحديث عن الكشوف الطبية العربية، فإن البعض الآخر يبالغ في الحديث عن الطب العربي، ناسباً إلى العرب كل الفضل في إبداع الطب الذي أخذه الغرب وطوره حتى أصبح الطب على ما هو عليه اليوم. والواقع أن فضل الرازي يكمن في التفاصيل لا في الأصول، فقد أبدع الرازي في ميدان الطب العيادي او الإكلينيكي، وما سجله في كتابه الحاوي يؤكد صلوعه في الطب العملي وتحليقه بما لم يسبق إليه من قبل. أما كتاب الفصول فهو محاولة لإعادة صياغة القواعد والنظريات الطبيعية كما قدمها أبقراط وجالينوس، مع إضافات تساهم في تطوير هذه النظريات وقد سار علي بن العباس المجوسي تلميذ الرازي على طريق أستاذه، وكان يمكن أن تكون شهرته أوسع مما كانت لولا ظهور ابن سينا المعروف بالشيخ الرئيس الذي طبقت شهرته الآفاق في ميدان الفلسفة والطب، فقد كان كتابه القانون في الطب هو المرجع الأول على مدى عدة قرون، وهذا الكتاب هو في الواقع إعادة صياغة وتنسيق للعلم الطبي اليوناني مع إيضاحات واضافات. وجميع الكشوف الطبية العربية لا تتجاوز كونها كشوفاً ضمن إطار هذا الطب، إنها ليست طباً جديداً، وليس في هذا ما يقلل من أهميتها، وليس في هذا أي خير للطب العربي، فالعلم تراث إنساني تتعاقب على ريادته الأمم والشعوب.

عرف العرب طب أبقراط وجالينوس عن طريق الأطباء والمترجمين السريان الذين تجمعوا في مدينة جند يسابور هرباً من اضطهاد البيزنطيين لهم بسبب مذهبهم النسطوري، وكان العرب قد أعدتهم ثقافتهم الخاصة وعلومهم ومنهجهم «لاستقبال العلوم التي لم يكن لهم بها عهد، والتي تقوم في جوهرها على

تفكير قريب جداً من تفكيرهم. ومن هنا كان النجاح الذي أحرزته الفلسفة والطب والعلوم اليونانية لدى العرب(١)» . أخذ العرب هذا الطب في ترجماته الأولى إلا أنهم سرعان ما أدركوا الحاجة إلى العودة إلى الأصول اليونانية وهي مهمة قام بها رجل من أهل الحيرة، وهي مدينة أخرى غير جنديسابور كانت مركزاً من مراكز العلم، هو حنين بن إسحاق الذي عهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة. وقد قام بترجمة كتب أبقراط وجالينوس ترجمة جديدة ونجح في ذلك نجاحاً كبيرا. وقد كانت هذه الكتب الأساس الذي انطلق منه الأطباء العرب بعد ذلك.

ولفهم الأسس الفلسفية والطبيعية للطب العربي لا بد من العودة إلى النظرية اليونانية في الخصائص الطبيعية للعناصر الأربعة التي تتكون منها الاجسام، وهي الماء والهواء والنار والتراب كما أسلفنا، وهذه الخصائص هي البرودة للماء، والرطوبة للهواء، والحرارة للنار، واخيراً اليبوسة للتراب. إلا أنه يمكن اعتماد ترتيب يجعل العناصر تجمع أكثر من خاصية واحدة ، فالماء يجمع بين البرودة والرطوبة، والهواء يجمع بين الرطوبة والحرارة، والنار تجمع بين الحرارة واليبوسة، والأرض تجمع بين اليبوسة والبرودة. ويقابل هذه العناصر الأربعة التي هي أركان الطبيعة، أربعة أمزجة يعتبرها الأطباء العرب، جرياً على عادة الاطباء اليونان، الأسس الأربعة التي يقوم عليها بناء أجسام الكائنات الحية والتي تتكون منها طبائع هذه الأجسام. وهذه الأمزجة هي المزاج الصفراوي والسوداوي والبلغمي، وهي على صلة مباشرة بأخلاط أربعة هي، الدم والبلغم والسوداء والصفراء. وهذه الأخلاط هي نتاج الكيلوس، وهو ما يستخرجه الجسم من الطعام بعد طرحه للفضلات، وهي موجودة في الدم وان كان بعضها يتجمع في بعض الأعضاء أكثر من بعضها الآخر، كالصفراء والسوداء فإنها تتجمعان في الغدد المقابلة لها والدم هو أساس الأخلاط جميعاً، أما البلغم فيقوم

(١)المرجع السابق ،ص٢٧١

بمهمة تجميد الدم، في حين أن الصفراء فتزيده، أما السوداء فترسبه. وينتج عن دور هذه الأخلاط ومقدار كميتها في الدم، وبالتالي في الجسم، أمزجة مختلفة. منها المزاج الدموي الغضبي الحار في حال ازدياد كمية الدم بالنسبة للأخلاط الأخرى، ومنها المزاج البلغمي الكسول في حال ازدياد البلغم، ومنها المزاج الصفراوي والمزاج السوداوي في حال ازدياد الصفراء أو السوداء في الدم على التوالي. فهذه الأخلاط توجد جميعا في الجسم الواحد، وان كان أحدها يسيطر على الأخر، وذلك ما يحدد مزاجية الإنسان. وتتوقف صحة جسم الكائن الحي على توازن هذه الأخلاط في الجسم، فالصحة هى نتاج تكاتف العناصر الأربعة وتوازن خصائصها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة. أما سيطرة البرودة مع الرطوبة فتحدث الانبساط في الجسم في حين أن هيمنة البرودة مع اليبوسة تحدث الشدة فيه، وفي هاتين الحالتين يسيطر الزاج البلغمي أو السوداوي، وعلى العكس من ذلك فإن ازدياد حرارة الجسم مع اليبوسة تؤدي إلى غلبة المزاج الصفراوي، في حين أن ازدياد الحرارة مع الرطوبة يؤدي إلى غلبة المزاج الدموي.

وإذا كانت هذه الأخلاط يمكن أن تزيد أو تنقص في الجسم ضمن حدود معينة، حيث يلعب العمر وفصول السنة دوراً في زيادتها ونقصانها، دون أن يؤدي ذلك إلى خلل مرضي بالضرورة، فإن الإسراف في زيادة أو نقصان أحد هذه الأخلاط، بما يؤدي إلى سيطرة مزاج ما سيطرة مفرطة، يعني وجود الخلل أو المرض. وعلى هذا فإن مهمة الطبيب هى مساعدة الطبيعة على الاحتفاظ بالتوازن اللازم للحياة السوية، وهو أمر يمكن تحقيقه بإضافة العنصر الناقص إلى الجسم، أو تقليل أثر العامل المسيطر أو المهيمن، بواسطة الأدوية التي من شأنها أن تزيد عامل التبريد في حين الإفراط في الحرارة، أو عامل الرطوبة في حال الإفراط في اليبوسة... وهكذا. وهنا يأتي دور الأغذية والأطعمة والنباتات والأعشاب. وإذا كان الطب العربي يعتمد على التداوي بالاعشاب، فما ذلك إلا لأن هذه الأعشاب والنباتات تحمل من الخصائص ما يمكن بواسطته إعادة الجسم إلى حال من التوازن يزيل الخلل الناشىء.

تطورت معرفة العرب بخصائص الأعشاب والنباتات تطوراً كبيراً، وانتقل ذلك من المشرق إلى بلاد الأندلس، واشتهرت بعض الأسماء مثل الحسن بن جلجل طبيب الخليفة هشام الثاني، وهو الذي شرح كتاب العقاقير لديوسقوريدس الذي أمر الخليفة عبد الرحمن الثالث بترجمته إلى العربية، وابن مفرج الصقلي المعروف باسم النباتي، وتلميذه الشهير ابن البيطار الذي وضع قائمة بأكثر من ألف وأربعمائة دواء، وأبو جعفر الغافقي الذي أصبح مرجعا في الأدوية البسيطة، وهى الأدوية النباتية، وقد أخذ عنه الكثير من المشتغلين بالطب والعلاج(١). وهذه الأدوية تصنف عادة بحسب خصائصها من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة، فالتين مثلاً يجمع بين الحرارة والرطوبة ، من الدرجة الأولى، وهو يفيد في مداواة الكليتين، إلا أنه قد يؤدي إلى السمنة لما فيه من مواد سكرية، وهو أمر يمكن التخفيف منه بإضافة الخل إليه، والخوخ أو البرقوق هو أميل إلى البرودة من الدرجة الأولى، وهو أفيد ما يكون في تسهيل الأمعاء. أما العدس فهو بارد ويابس من الدرجة الثانية، وأحسنه الاحمر، وخاصيته أنه يقلل نسبة الاسيد في الدم ويقوي الأمعاء في وقت واحد. أما الخردل فإنه حار وجاف من الدرجة الثالثة وهو يفيد في معالجة النقرس، إلا أن الاكثار منه قد يؤذي الدماغ ويمكن التخفيف من أذاه هذا بجرعات من الخل واللوز. . . وهكذا. وهذه ليست إلا أمثلة قليلة ما يمكن أن نقرأه في كتب المداواة العربية. وهذا لا يعني أن العرب لم يعرفوا الأدوية المركبة وهى المسماة بالترياق، إلا أنهم كانوا يفضلون الأدوية البسيطة، وكان من نظرياتهم الطبيّة أن الجسم السليم في الغذاء الصحيح، وهى من النظريات الطبيعة التي حظيت بالاهتمام في السنوات الأخيرة. وكان العرب لا يلجأون إلى الأدوية المركبة إلا في الحالات الإستثنائية، تماماً كما كانوا يفضلون معالجة الجسم على إجراء العمليات الجراحية، التي كانوا يلجأون إليها بعد نفاذ وسائل المعالجة بالأدوية.

(١) قارن Titus Burckhardt : **Moorish Culture** مرجع مذكور سابقا، ص٦٩.

وإذا كانت نظرية العناصر الأربعة التي انطلق منها الطب اليوناني- العربي هى نظرية قد ثبتت بدائيتها مع الأيام ، إلا أن ما تتضمنه من تأكيد لوحدة الجسم الحي وتكامله وأهمية التوازن فيه تخفف من سذاجة نظرية العناصر الأربعة. يضاف إلى ذلك أن نظرية الغذاء- الدواء ، والجسم السليم في الغذاء المتوازن، ما زالت من النظريات المعمول بها، بل إنها تكتسب أهمية متزايدة ولا سيما في الطب الوقائي. وعندما نعلم من كتب تاريخ الطب العربي أن التداوي بالأعشاب والنباتات كان ناجحا إلى حد بعيد، فإنه لا يمكننا إلا أن نؤكد أنه على الرغم من بعض الثغرات فان الطب العربي يقوم على قواعد راسخة، والواقع أن أكثر الأدوية في زماننا الراهن مستخرجة من مواد طبيعية بطرق معقدة، وهو أمر لم يكن متيسراً للأطباء العرب، ومن هنا كان اعتمادهم على الأدوية البسيطة والمفردة. وعلى كل حال فاننا إذا أخذنا فكرة الخصائص الأربعة على أنها عوامل الانبساط والقبض والانفراج والشدة، فإن الانبساط يعني السرور والفرح، في حين أن القبض يعني القلق والحزن ، ومن جهة أخرى فإن النفس تضيق وتعاني من الشدة، وهذا يعني توازي العناصر المادية مع العناصر النفسية وقيام تكامل بين هذين الطرفين. من هذا كان اصطلاح الأمزجة يجمع بين معنى الأخلاط التي تشير إلى التركيب المادي للجسم والخصائص أو الحالات النفسية المترتبة على سيطرة أحد الأمزجة على ما عداه، وقد كان الاصطلاح يشير إلى طرفين ويجمع بينهما في آن.

بعد هذا العرض الموجز يمكن القول إن الأطباء العرب لم يخرجوا عن إيمانهم بالكليات الطبيعية كما تصورها اليونان، ومع هذا يمكن القول إنهم قد استقلوا عنهم بخبرتهم وتجاربهم وآرائهم مع بقائهم داخل الاطار الفلسفي العام الذي وضعه أطباء اليونان. والواقع أن تفوّق العرب كان في ميدان الطب العملي والعقاقير الناجحة في معالجة الأمراض، فمجد الرازي مثلا يقوم على اتساع خبرته وكثرة مشاهداته كطبيب وكأستاذ للطب خاصة، وقد عرف عنه عنايته

بأحوال المريض المختلفة، وقد أبدع في ميادين لم يسبقه أحد إليها من قبل كالطب العيادي والتشخيص المقارن وتفريقه بين الحصبة والجدري وغير ذلك كثير. وكما تفوق الأطباء العرب في مجال الطب العملي تفوق الصيادلة في الكشف عن خصائص الأعشاب، وكان للمشتغلين بالعقاقير من أهل الأندلس ريادات وابداعات، فقد جاب العشابون الأمصار والأقطار «يصفون النباتات وخواصها. وكتبت كتب جديدة في الاقربازين أشهرها ما كتبه ابن البيطار وداود الأنطاكي ومع أن الطب العربي لم يتقدم كثيرا بعد ابن سيناء وكتابه إلا أن فن العلاج في البيمارستانات ظل يتقدم وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات وعي بها الأمراء والأطباء فبلغت مبلغاً تحدث به الرحالون(١).

والخلاصة أن العرب استوعبوا الطب اليوناني واعتمدوا عليه، ثم انطلقوا في تجربتهم الخاصة، ولم يكن باستطاعتهم أن يعطوا ما أعطوا لو لم يفيدوا من علم غيرهم، وقد كانت هذه الإفادة ركنا أساسياً، بل كانت الركن الأساسي الذي بنى عليه العرب طبهم، لأنهم لم يخرجوا عن الأطر النظرية للطب اليوناني. صحيح أنهم أضافوا إليه وأعادوا ترتيب أصوله كما أعادوا صياغتها، إلا أنهم لم يبدأوا من العدم. وهذا هو حال كل معرفة تقريباً، ولم تخرج المعرفة الطبية عن هذه القاعدة. وعندما أخذ الغربيون عن العرب، لم يبدأوا من الصفر ايضاً، بل قد بالغوا في هذا الأخذ حتى إنهم نسبوا إلى أنفسهم الكثير من أفضال العرب وتقدمهم، فقد اقتنع الأطباء العرب أن النظريات وحدها لا تكفي للنهوض بالعلوم الطبية، وأنه لا بد من اجراء التجارب وتسجيل المشاهدات ومقارنة الملاحظات، وهو ما يسمى بالمنهج التجريبي الذي ينسب عادة الى باكون Bacon، وإن كان علماء العرب قد سبقوه إليه بل ومنهم من تفوق عليه، إلا أن هذا كله في ذمة التاريخ.

---

(١) محمد كامل حسن: «في الطب والاقربازين» مرجع مذكور سابقا، ص٢٨٣.

الفصـــل الخـــامس

محـاولـة الخـروج من بحـر الظـلمات

١ـ البداية. . . والحكاية

مهما قيل في شخص محمد علي ومهما قيل في عصره، فإن محمد علي والي مصر وحاكمها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هو الذي أدخل مصر والبلاد العربية في العصور الحديثة. أنشأ دولة وحكومة ثابتة وطيدة مستقلة شملت في بعض الحالات معظم البلاد العربيـة، وهو الـذي أنبت ثقافـة جديـدة وفكرا جديدا. لقد أنشأ من العدم ، أو ما يشبه العدم، جيشا ضخما حـديث العدة والإعداد وبنى أسطولا قويا واجه الدول الكبرى وحقق انتصارات باهرة. وهو الذي أصلح الإدارة والاقتصاد فضاعف الأراضي المزروعة مرتين ونيف، وهو الذي شيد «المستشفيات حيث كانت الأمراض تفتك بالأهلين، وشق الترع وأقام الجسور حيث كانت مياه النيل تذهب هدرا دون أن تنتفع منها الأراضي، وأسس البعثات وأقام المصانع والمباني العامة[1].

إلا أن أهم ما فعله محمد على بعد أن حرر البلاد من المماليك والإقطاعيين، وبعد أن تصدى لتدخلات الدول الاجنبية وواجه القوات البريطانية وهزمها في مطلع عهده سنة١٨٠٧، هو أنه أدخل مصر والعرب في عصر التصنيع، الباب الواسع للدخول في الحداثة والخروج من التخلف. لقد أدرك هذا الحاكم «المستبد العادل» ، أن بناء الجيش الحديث ، وقد كان ذلك همّه الأول، لا يكون إلا في المجتمع الحديث. فإذا أردنا الحصـول على هـذا الجيش للتصدي للهجمـات ومواجهة التحديات المفروضة علينا، كان لا بد لنا من الأخذ بنهج الحداثة في كافة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٢ ، ص ٥٥٩

حياتنا ومرافق مجتمعنا. فالحداثة نهج متكامل، لا ينجح في ميدان في غياب الميادين الأخرى، فلا يقوم الجيش الحديث إلا بصناعة واقتصاد حديثين، ولا يكون ذلك إلا بتعليم وثقافة حديثتين، ولا يكون ذلك إلا بإدارة حديثة . . وقس على ذلك.

حمل محمد علي مشروعاً نهضوياً كبيراً، ومضى فيه، وحقق في عقود قليلة من الزمان ما يثير الدهشة والإعجاب، وما يثبت أن أحوج ما تحتاجه الشعوب لتحقق المعجزات هو الإدارة الحازمة والإرادة الصادقة. ومشروع محمد علي النهضوي هو المشروع النهضوي العربي الأول، أو قل هو الأساس والقاعدة للمشروع النهضوي العربي الذي عبّر عنه مفكرون كثيرون، وسعت إليه الشعوب في أرجاء الوطن العربي الكبير.

تكونت خلال فترة الاحتلال الفرنسي لمصر في مطلع القرن التاسع عشر، نواة قيادة شعبية وحركة وطنية مصرية. وعندما حل الإنكليز محل الفرنسيين الذين لم يدم احتلالهم طويلاً، ظهرت الطلائع الأولى لهذه الحركة ، وذلك أن الإنكليز كانوا منذ بداية معارضتهم للوجود الفرنسي في مصر ، يتطلعون إلى احتلال بلاد النيل تمهيدا لبسط نفوذهم في بلاد العرب. وقد تنبهت القيادة الشعبية والوطنية لدسائس الإنكليز ومؤامراتهم وطمعهم في أرض النيل، خاصة عندما حاول الإنكليز الإفادة من المماليك فشجعوهم وحموهم حتى اصبح هؤلاء أداة التخريب الأولى التي تستخدمها بريطانيا، وقد تدخل الإنكليز أكثر من مرة لمنع إلحاق الهزيمة النهائية بالمماليك وابادتهم. وعندما خرج الإنكليز من مصر بعد فترة وجيزة من دخولهم، وفق شروط معاهدة الصلح التي ابرمت سنة١٨٠٢ بين الإنكليز وفرنسا، أخذ الإنكليز معهم بعض عملائهم من قادة المماليك بانتظار الظروف المناسبة لإعادتهم إلى العمل في مصر لمصلحة بريطانيا

وعندما ظهر محمد علي على ساحة العمل العسكري والسياسي في مصر، وجدت القيادة الشعبية والوطنية فيه ضالتها المنشودة. فإثر اشتداد الصراع بين

المماليك الذين تحميهم وتشجعهم بريطانيا بقيادة محمد الألفي، والمماليك الذين تحميهم وتشجعهم فرنسا بقيادة عثمان البرديسي، وجد المصريون فرصتهم المناسبة فأعلنوا ثورتهم الشعبية على المماليك سنة ١٨٠٤، وهي ثورة وطنية تضامن فيها الحرفيون والتجار مع العمال وعامة الناس، بدأت الثورة بامتناع السكان عن دفع الضرائب وقتل الجباة، وتحولت إلى مواجهة مباشرة دارت فيها معارك ضارية بين الوطنيين المصريين والمماليك انتهت بهزيمة المماليك وفرار زعمائهم إلى خارج القاهرة. وكان محمد علي بوصفه قائدا للكتيبة الألبانية في مصر قد تدخل في نهاية القتال لصالح الوطنيين المصريين، فانحاز إلى الثوار بعد أن رأى ميزان القوى يميل لصالحهم، وسارع إلى الأزهر خاطبا في الناس معلنا نفسه حاميا لحقوقهم مؤكدا إرسال كتيبته لمحاربة الإقطاع المملوكي. وعندما حاصر المماليك القاهرة بعد ذلك قاد محمد علي الدفاع عن المدينة فضمن بذلك تأييد الشعب المصري له، حتى إذا ما خشيت الأستانة فيما بعد من طموحات محمد علي وطلب منه الباب العالي العودة من مصر، ثار المصريون في وجه فرمان إعادة محمد علي وسيروا المظاهرات، وأعلنوا الإضراب الذي بلغ حد العصيان المدني، فاضطر السلطان إلى التراجع عن قراره.

استمر محمد علي في تدعيم مواقعه في مصر، فطارد قوات المماليك، التي كانت ترعاها بريطانيا، في الوجه القبلي من بلاد النيل، وازداد التصاقا بالمصريين، حتى نصبه هؤلاء زعيما لهم، وعندها اتيحت الفرصة وثار المصريون مجددا ضد الإنكشارية العثمانيين هذه المرة سنة ١٨٠٥، نادى مجمع الشيوخ في القاهرة بمحمد علي حاكما على مصر، فاضطر السلطان العثماني سليم الثالث إلى الرضوخ لإرادة المصريين والاعتراف بمحمد علي واليا على مصر. وهكذا تقلد محمد علي ولاية الحكم بإرادة شعبية وبموافقة ودعم القيادة الوطنية المصرية(١).

---

(١) يمكن الوقوف على مزيد من التفاصيل في كتاب عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت (د. ت.)، الجزئين الثاني والثالث. وفي الجزء

واستمرت الزعامة الشعبية والقيادة الوطنية إلى جانب محمد علي طيلة السنوات الأولى من حكمه ، حيث خاضت إلى جانبه معارك متعددة ضد دسائس السياسة البريطانية ، ومحاولات المماليك استعادة سلطتهم ونفوذهم ، وعدم رضى السلطان عن طريقة وصول محمد علي إلى سدة الحكم في مصر .

وكان عمر مكرم ، وهو أكبر زعماء مصر الوطنيين منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، يقف إلى جانب محمد علي ويدعمه معبرا بذلك عن إرادة الحركة الوطنية المصرية . وكان محمد علي يرجع إلى زعماء الشعب ويستشيرهم فيما يستجد من أحداث وتطورات ، لإنه كان يعرف حاجته إليهم ودورهم في تنصيبه واليا على البلاد وفي استمراره في هذا المنصب . وكان من نتائج تحالف محمد علي مع القادة الوطنيين تمكن التحالف من الصمود في وجه كل القوى المعارضة ، المماليك والإنكليز والسلطان وغيرهم . ومع مرور كل سنة جديدة من حكم محمد علي كانت أقدام التحالف تزداد رسوخا ، فتعاظم دور محمد علي في الحياة المصرية وأصبح للقادة الوطنيين نفوذاً عظيماً في إدارة دفة البلاد . وكان عمر مكرم ، وهو الذي رسخ أقدام محمد علي في مصر ، الراعي الأول لهذا التحالف حيث حوّل كل تاييد الشعب المصري له لتأييد محمد علي وحكمه وتثبيت قواعده . وقف إلى جانبه في حروبه مع المماليك ، وضد محاولات العزل المتعددة التي جربتها الآستانة ، وضد دسائس الإنكليز التي لم تتوقف ، والتي كانت ذروتها الحملة الإنكليزية على مصر سنة١٨٠٧ . وقد واجهها المصريون بزعامة محمد علي ودحروا القوات الغازية فأصبح محمد علي زعيم البلاد لا يشاركه في هذه الزعامة إلا السيد عمر مكرم ورفاقه من قادة الحركة الوطنية .

إلا أن بنى الحركة الوطنية المصرية في ذلك الحين لم تكن لتمكنها من التلاؤم مع

= الثاني من كتاب عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، دار المعارف بمصر ، ٥٥ ـ ٨ وكتاب عبد الرحمن الرافعي أيضًا عصر محمد علي ، دار المعارف بمصر ط ٤٠ ، سنة١٩٨٢ وكتاب لونسكي · تاريخ الأقطار العربية الحديثة ، ط٨ ، سنة١٩٨٥ .

التطورات المستجدة في البلاد ومع مشاريع محمد علي وطموحاته الكبرى، ويمكن القول إن دورها قد توقف عند حدود مواجهة القوى الخارجية بدءاً بالمماليك وانتهاءً بالإنكليز، وإن مشروعها لم يتجاوز حدود رفع الظلم وتحقيق الاستقلال السياسي. أدرك محمد علي هذا كله، وعرف أنه يستطيع أن يمضي قدما في تحقيق مشروعه منفردا، وأنه ليس بحاجة لزعماء وطنيين ليس لديهم مشاريع وطنية، وأن هؤلاء قد يحدون من حركته ويعرقلون عمله. وكان من الطبيعي ألا يروق لسياسي متمرس مثله أن يكون عمر مكرم رقيباً على أعماله وتصرفاته، وأن يكون شريكاً له في السلطة يتمتع بالنفوذ العظيم ولا يتحمل من أوزار الحكم إلا النزر اليسير، وكانت اعتراضات عمر مكرم على تفرد محمد علي بالرأي تزداد كلما أمعن محمد علي في التخلي عن مشورته لزعماء الحركة الوطنية. وكان أن انتهى الأمر بمواجهة بين الرجلين أبدى فيها كل منهما من الصلابة والقوة الشخصية وتنوع المزايا الشيء الكثير. وانتهى الأمر بنفي عمر مكرم، بعد عزله عن نقابة الاشراف، الى دمياط ثم طنطا لمدة عشر سنوات عاد بعدها إلى القاهرة، ثم نفي مجددا إلى طنطا سنة ١٨٢٢، وانفرد محمد علي بالسلطة، وكان قبل ذلك قد استخدم الخديعة في القضاء على بقايا المماليك، فأبادهم وقضى على فلولهم بعد مذبحة القلعة الشهيرة، متفرغاً بعد ذلك لتوطيد استقلال مصر ونهوضها، ساعيا إلى إقامة دولة عربية كبرى، عبر ضم معظم البلاد العربية إلى نفوذه. بلدا بعد بلد، وقطراً بعد قطر.

٢ـ تحديث الجيش تحديث المجتمع

ورث محمد علي عن السلاطين العثمانيين فكرة أن إصلاح أمور الدولة يبدأ بإصلاح الجيش، إلا أن محمد علي استطاع، خلافا للسلاطين العثمانيين، أن يتجنب المصير المأساوي الذي لاقاه أكثر الذين تصدوا لهذه المهمة قبله، حيث رفض عسكر الإنكشارية السعي لإصلاح الجيش، وانقضوا على السلاطين وصرعوهم. وكان آخر هؤلاء السلاطين الذين لاقوا المصير الأليم أيام محمد علي

السلطان سليم الثالث، الذي سقط صريعا إلى جانب مصطفى باشا بيرقدار، أحد رجال الإصلاح من السياسيين الأتراك.

أدرك محمد علي أن الجيش هو طريقه إلى القضاء على خصومه، وبسط نفوذه، والتصدي لتدخلات الدول الأجنبية الكبرى ذات الأطماع الاستعمارية. وكان محمد علي قد عرف أهمية الجيش الحديث عند اتصاله بالقوات البريطانية التي سعت لإخراج الفرنسيين من مصر، ثم احتكاكه بهذه القوات التي سعت إلى الإطاحة به عبر الدسائس أولا، ثم المجابهة العسكرية بعد ذلك. إلا أن محمد علي سرعان ما أدرك، وهو يسعى لتأسيس جيش أوروبي الطابع حديث العتاد، أن إصلاح الجيش لا يكون دون إحداث إصلاحات شاملة في كافة الميادين والمجالات. فكان طريقه لإصلاح الجيش هو نفس طريقه لإصلاح المجتمع، وقد سار بناء الجيش جنبا إلى جنب مع اصلاح كافة مؤسسات الدولة في ميادين الإدارة والاقتصاد والتعليم والزراعة. وكان هذا كله يسير جنبا إلى جنب مع ترسيخ دعائم الاستقلال، والقضاء على بذور تفكك الدولة من الداخل، وصد محاولات تقويضها من الخارج.

شرع محمد علي في بناء الجيش الحديث منذ اللحظة الأولى التي تسلم فيها مقاليد الأمور، إلا أن محاولات تطويق سلطته كانت تحد من نشاطه وتعيق حركته في هذا المضمار، ومع ذلك فقد مضى في مشروعه بخطوات وئيدة، وكان يؤجل اتخاذ خطوات كبرى تجعل من جيشه جيشاً حديثاً بمعنى الكلمة منتظراً الفرصة المناسبة. ولم يبدأ بتجنيد الفلاحين المصريين إلا بعد حملته على الجزيرة العربية بين سنتي ١٨١١ـ ١٨١٩، وكانت قلة الكوادر وندرة الأسلحة تعيقانه عن الانطلاق بمشروعه الكبير لبناء الجيش الحديث. وجاءت محاولته الأولى سنة ١٨١٥ أي بعد عشر سنوات من تسلمه ولاية مصر وقد ذكرها الجبرتي على الشكل التالي: «أمر الباشا لجميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم والرماحة... وأخذوا في الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود على طريقة الإفرنج وذلك من قبيل

الفجر إلى الضحوة، . . وأشيع ان الباشا قصده احصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الإفرنج، ويلبسهم الملابس المقمطة ويغير شكلهم(١) . . . إلا أن الجند تمردوا على ذلك وحاولوا الاطاحة بمحمد علي الذي عالج الأمر بالحلم والأناة ورجاحة العقل منتظرا الفرصة المناسبة للبدء بمشروعه في انشاء جيش حديث العدة والإعداد.

وجاءت الفرصة ملائمة في سنة ١٨٢٠ بعد أن فرّق محمد علي الجيش القديم وأرسل بفرقه إلى الثغور والبلاد البعيدة كي لا تقوم هذه الفرق بالتمرد ضده فيكون مصيره كمصير أولئك الذين حاولوا تحديث المؤسسة العسكرية في الدولة العثمانية. وكانت الخطوة الأولى افتتاح الكلية الحربية في أسوان التي زودها محمد علي بالضباط والمعلمين ممن تشبعوا بالنظام العسكري الجديد، وكان من أهم من ساعد محمد علي في إنجاز الخطوات الأولى في مشروعه الكولونيل الفرنسي سيف Seves الذي عرف فيما بعد باسم سليمان باشا الفرنساوي. وقد تولى سليمان الفرنساوي هذا قيادة الجيش المصري بعد ذلك، وهو صاحب الفضل الأول في إعانة محمد علي على تأسيس جيش حديث، صار فيما بعد يضارع الجيوش الأوروبية المتطورة عدة وعددا وفعالية.

كانت الخطوة الأولى إذن تأسيس الكلّية الحربية في أسوان، وقد أعد فيها ألف ضابط في مدة ثلاث سنوات شكلوا النواة الأولى للجيش المصري الحديث. وقد تم ذلك كله بعيداً عن الأنظار لأسباب كثيرة، منها: عدم استثارة حفيظة الجيش القديم، وعدم جرح شعور العامة الذين لم يكن يروقهم أن يتدرب ضباطهم على أيدي ضباط ومعلمين من الأوروبيين، بل إن طلاب الكلية الحربية أنفسهم لم يكن يروقهم ذلك، وقد حاولوا أكثر من مرة اغتيال سليمان الفرنساوي دون جدوى، وكان شخصية هذا القائد من القوة بحيث تغلب على جميع الصعوبات، وبنى الجيش وحاز على احترام ضباطه وجنوده الذين أحبوه وأجلّوه.

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي . تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ،دار الجيل ، بيروت ، الجزء الثالث ، ص٤٨١ .

وبعد توفر الكادرات اللازمة أخذ محمد علي بحشد الجنود وتنظيم صفوفهم، وكانت أول قافلة تضم عشرين ألفا من المجنـدين السودانيـين، ثم بدأ تجنيـد المصريين على نطاق واسع. وعندما توفر بعض النجاح لمسعى محمد علي انطلق في مشروعه، فأنشأ المستشفى العسكري الأول، ثم مدرسة الطب، ثم المـدرسة الحربية للمشاة، وبعد ذلك مدرسة أركان الحرب بالخانكة. وقد دعم محمد علي تدريب جيشه بإرسال فرقة إلى ميادين القتال المختلفة في الجزيرة العربية والسودان وبلاد اليونان. وقد أثبت الجنود المصريون كفاءة عالية في القتال رغم الصعوبات الأولى التي اعترضت تجنيدهم وتدريبهم وادخالهم في نظام جديـد يختلف كل الاختلاف عما عرفوه وألفوه.

كانت بُنى المجتمع المصـري لا تساعـد محمد عـلي على الإسـراع في تحقيق مشروعه في بناء جيش حديث، وكان عليه أن يعمل بتؤدة وصبر، وبنـوع من السرية في كثير من الحالات، خوفا من ثورة الجيش القديم، وانتقادات الأهالي الذين لم يرقهم تقليد الإفرنج في الهيئة واللباس، واتخاذهم مدرسين في معاهد الجيش ومؤسساته. وقد رأينا كيف ثار الجند سنة ١٨١٥. وكانت مواقف الاهالي سلبية تجاه ما يحدث، وكانت أقاويلهم تعبر عن ذلك. وقد قدم لنا الجبرتي نماذج من هذا كله. وكان على محمد علي أن يهيىء التربة الصالحة لمشروعه وعبر إحداث تغييرات شاملة في المجتمع، كالإصلاح الزراعي وبناء تعليم حديث، وتوسيع رقعة الصناعة، وقد صب هذا كله في خدمة مشروع بناء جيش حديث وساعد على المضي في المشروع قدما. فقد أدرك محمد علي من خلال خبرته وتجربته، أن النهضة لا تكون في ميدان من ميادين الحياة في المجتمع دون غيره، وأنه لابـد لنجاح التحديث في أحد الميادين من رفده بتحديث في الميادين الأخرى، وهذا ما سيتبين لنا شيئا فشيئا.

في مطلع عام ١٨٢٤ تألفت الكتائب الست الأولى في الجيش النظامي وكان ضباطها ممن تخرجوا من مدرسة أسوان الحربية. وقد اختبر محمد علي اعداد هذه الفرق بنفسه، واغتبط بالنتائج التي أشعرته أن مشروعه آخذ في النجاح، فأنشأ

معسكرا كبيرا للجيش في الخانكة كان يضم ما يقرب من ٢٥ ألفًا من الجنود النظاميين، ثم اتسعت دائرة التجيد بعد ذلك، فاستقدم محمد علي طائفة من كبار الضباط الفرنسيين لمعاونته في اعداد الجيش، كما أرسل طائفة من الشبان المصريين إلى أوروبا لاتمام دراستهم الحربية هناك. وقد أخذ هؤلاء فيما بعد يحلون محل المدربين الأوروبيين. وكان من النتائج المباشرة لإرسال البعثات بدء تحديث التعليم، وكان ذلك خطوة ضرورية لابد منها لدعم إنشاء الجيش الحديث.

وتابع محمد علي مهمة استحداث المدارس والمعاهد والمؤسسات العسكرية، فبعد مدرسة أسوان ومدرسة المشاة التي أشرنا إليهما أسس النظام المصري الجديد مدارس مشابهة في أنحاء مختلفة من البلاد مثل دمياط وأبي زعبل، ورفد ذلك بمدرسة للفرسان في الجيزة ومدرسة للمدفعية في طرة، وقد تولى إدارتها الكولونيل الإسباني أنطونيو دي سيغيرا Seguera، وكانت تضم أول أمرها ثلاثمائة من خريجي مدرسة قصر العيني، ثم توسعت مدرسة المدفعية هذه فيما بعد وأصبحت من كبريات المؤسسات العسكرية، وألحق بها مستشفى خاصا بعد أن جهزت بكل ما تحتاجه من مدافع وذخائر ومعدات وغير ذلك لتكون من أحدث المدارس العسكرية، ثم اتبع ذلك كله بإنشاء مدرسة موسيقا الجيش والمدرسة البحرية بالإسكندرية. وفي هذه الأثناء «ترجمت الأنظمة العسكرية الداخلية الفرنسية إلى اللغة العربية لكي تكون متوفرة لدى وحدات الجيش. وكانت كافة تنظيمات الجيش على شاكلة جيش نابليون تماما. فالقوات كانت مجهزة بالمدفعية. وقد كتب أحد مشيري نابليون عنها قائلا: يمكن مقارنة هذه المدفعية الممتازة بمدفعية الجيوش الأوروبية. وعند النظر إليها يعجب المرء دون إرادة منه بقدرة السلطة التي جعلت من الفلاحين جنودا صالحين إلى هذه الدرجة». (١)

وكان لابد لهذا الجيش الحديث من أسلحة وذخائر تصنع محليا، إذ لا يمكن الاعتماد على التسليح الخارجي. وقد رأى الباشا، وهو اللقب الذي اشتهر به محمد علي، أن جلب السلاح من الخارج غير مضمون، وهو يعرض المشاريع

(١) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي، بيروت، ط ٩، ص٦٧ و٦٨

العسكرية لخطر جسيم، إضافة إلى الكلفة الباهظة التي يحتاجها، وقد كان يرغب بتوسيع دائرة التحديث والنهوض بالمجتمع في كافة الميادين، وتدعيم استقلاله وقوته، فأنشأ أول الترسانات العسكرية في القلعة وكانت تحت إشراف إبراهيم أدهم بك (باشا لاحقاً) قائد المدفعية آنذاك، وقد تطورت هذه الترسانة تدريجيا، وكان قد وقع فيها حريق هائل سنة ١٨٢٤، وبعد تجديدها تحولت إلى ترسانة هامة وخاصة بدءاً من سنة ١٨٢٧ حيث عظمت عدة وعددًا، وكان بها ما يقرب من الألف عامل وكانت تنتج شهريا أكثر من ستمائة بندقية إضافة إلى ضروب أخرى من الأسلحة والعتاد والذخائر، وقد قسمت إلى عدة مصانع، أولها للسلاح، وثانيها للذخيرة، وثالثها للحديد والنحاس الذي تحصى به البواحر، ورابعها للحقائب وغير ذلك كثير مما يحتاجه الجيش. وقد أضيف إلى هذه الترسانة مصنع خاص أصبح له أهمية كبرى في إمداد الجيش بالسلاح، وهو معمل صب المدافع وصنعها، وكان ينتج من ثلاثة إلى أربعة مدافع شهريا، وقد صنعت فيه مدافع الهاون من الأحجام المختلفة، ومع توسع الترسانة وازدياد مصانعها ازداد عدد العمال فيها ونشأت على هامشها عدة صناعات هامة كصناعة الفحم والحديد وغيرهما.

ولم يكتف محمد علي بترسانة القلعة التي أمدت الجيش بالبنادق والمدافع والذخيرة، فأنشأ إلى جانبها مصانع أخرى مثل مصنع البنادق في الحوض المرصود سنة ١٩٣١، ومصنع البارود بطرف جزيرة الروضة وتوالت المصانع بعد ذلك. أما مصنع الحوض المرصود فقد تطور في خلال سنوات قليلة حتى أصبح يضم بعد ست سنوات من تأسيسه أكثر من ١٢٠٠ من العمال والفنيين، وكان ينتج شهريا قرابة الألف بندقية من مختلف الأنواع بحسب فرق الجيش. ومع تطور المصانع وتعددها بلغ الإنتاج المحلي مع نهاية العقد الثالث من القرن الماضي حوالي ٣٦ ألف بندقية سنويا، إضافة إلى المدافع والطبنجات وغيرها، وكانت مصانع الذخيرة تؤمن حاجة الجيش، وقد بلغ حجم انتاج مصانع البارود المختلفة في سنة ١٨٣٣ أكثر من خمسة عشر ألف قنطار وعلى وجه الدقة ١٥٧٨٤ قنطارا، وهو

انتاج لا يستهان به بالقياس إلى طبيعة الصناعة وحجمها في النصف الأول من القرن الماضي.

كانت ثلاثينات القرن الماضي بمثابة العصر الذهبي للحيش المصري الحديث، فقد اتسع حجم هذا الجيش اتساعا عظيما، كما اتسع حجم الإنتاج والصناعة العسكرية، وقد دخل الجيش في تجارب اكسبته من الخبرة الشيء الكثير وأثبتت كفاءته وأهليته العالية. ففي سنة ١٨٣٣ ضم الجيش النظامي المصري ٣٦ فوجاً من المشاة قوام كل منها ثلاثة آلاف جندي، و١٤ فوجا من الحرس بلغ تعدادها العام ٥٠ ألفاً، و١٥ فوجاً من الخيالة المسلحين، وخمسة أفواج من المدفعية ضمت أكثر من ألفي جندي. فإذا أضيف إلى هذا القوات الرديفة والجنود غير النظاميين بلغ التعداد العام للجيش أكثر من مائتي الف جندي. أما في سنة ١٨٣٩ فقد بلغ التعداد العام للجيش المصري ما يقارب ربع المليون جندي وعلى وجه التحديد ٢٣٥٨٨٠ من جنود البر، فإذا أضفنا إلى هذا الرقم جنود البحرية التي كانت شبه مستقلة كان عندنا ربع مليون جندي أو أكثر، وهو رقم عظيم جداً بالقياس إلى جيوش الدول العظمى في ذلك الزمان. وقد أورد عبدالرحمن الرافعي في كتابه عصر محمد علي احصاءً مفصلاً بالفرق وأماكن تواجدها في مصر واليمن والحجار وبلاد الشام والسودان وكريت وغيرها (١)

وإضافة إلى الجيش البري اهتم محمد علي بالأسطول والبحرية، وكان قد بدأ بتشكيل نواة أسطوله منذ سنة ١٨١٠ حيث أنشأ العمارة البحرية الأولى في ترسانة بولاق، وظل يعتمد على هذه الترسانة إلى أن شيد ترسانة الإسكندرية الحديثة. وقد أشار الجبرتي إلى ترسانة بولاق في أكثر من مناسبة، وأوضح طبيعة العمل فيها، وذكر أن الأخشاب كانت تأتي إليها من مصر وبلاد الشام وغيرها، حيث كانت تصنع السفن الكبيرة، ووصف إدارة الترسانة وتنظيمها وأعطى صورة متكاملة عنها. ولما كان أكثر هذه السفن مخصصا لنقل الجند اضطر محمد علي لشراء بعض السفن الحربية من أوروبا، إلا أنه كان يدرك أنه لا يستطيع الاعتماد

---

(١) عبد الرحمن الرافعي · عصر محمد علي، ص ٣٥٤، وما بعدها

على المصادر الخارجية، وأنه لابد له من تشييد صناعة حربية بحرية على غرار ما فعله في الصناعة الحربية البرية.

وقد سار تطور بناء الأسطول وتطور الصناعة الحربية البحرية متلازما مع تطور الجيش ومع تطور الصناعة عموما فبعد واقعة نافارين البحرية الشهيرة قرر محمد علي تشييد أسطول جديد بأيد مصرية صرفة حتى لا يكون أسطوله رهن الإرادة الأوروبية، فصرف جهده إلى تشييد ترسانة كبرى في الإسكندرية مخصصة لبناء السفن الحربية وقد بدأ العمل فيها سنة ١٨٢٩، وكان للحاج عمر وهو من أهالي الإسكندرية، اليد الطولى في تأسيس تلك الترسانة وتطويرها حيث كان رئيس المعماريين فيها. وفي غضون سنتين من الزمان أنجزت الترسانة انشاء بارجة حربية مزودة بمئة مدفع، وما هي إلا سنوات حتى كان لمصر أسطول بحري عوضها عما خسرته في موقعة نافارين بأحسن منه.

تحولت ترسانة الإسكندرية إلى واحدة من أعظم المنشآت الحربية، وكانت تصنع فيها السفن والبوارج دون أي حاجة إلى استيراد أي شيء على الإطلاق، فقد كانت صناعة متكاملة فيها أقسام متخصصة لصنع كل ما يتعلق بالسفن البحرية بدءاً من صنع الحبال، وانتهاءً بصنع البوصلات مرورا بصنع الحديد اللازم للسفن وصنع السواري وصنع الدهان وصنع مخازن الذخائر إضافة إلى معهد خاص لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وصيانتها وكل ما يتعلق بها من آلات. وقد اضطرت إدارة الترسانة إلى تعميق البحر قريبا من الترسانة وإعداده لرسو أكبر السفن الحربية. ومع نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر بلغ عدد العاملين في الترسانة أكثر من ثمانية آلاف عامل بينهم أكثر من ألف وستمائة فني متخصص.

لم يتيسر ذلك لمحمد علي دون صعوبات كبيرة كان يذللها واحدة بعد الأخرى، فمن جهة أزعج تشييد الترسانة البيوت التجارية والصناعية الأوروبية التي وجدت في الترسانة خسارة لها، فكانت تسعى بكل الوسائل لعرقلة مسيرة العمل في الترسانة، وقد نجحت أكثر من مرة في إثارة الشغب والفتن في بعض

الورش فكان ذلك يسبب خللا في العمل ومن جهة أخرى كانت خبرة المصريين بالأعمال الفنية الدقيقة قليلة وكان تعليمهم يتطلب التصحيات المالية وغيرها. إلا أن الإرادة الحازمة والرغبة الجادة في الاستقلال والنهوض كانتا هما المنتصرتين في النهاية كما أكدت الوقائع والأحداث.

وقد بنيت في هذه الترسانة بوارج ضخمة مثل مصر وعكا وهما بحجم السفن البحرية ذات السطوح الثلاثة، وكان كل سطح منها يحمل عشرات المدافع زادت على المئة، وبنيت فيها أربع بوارج ذات المئة مدفع، وعشرات البوارج ذات مدافع أقل، وقد عدد المؤرخون العرب والأجانب أسماء هذه البوارج، وذكروا خصائص ومزايا العمل في ترسانة الإسكندرية فأشاروا إلى توحيد السفن الحربية الكبرى، وهو أمر كان يطالب به خبراء الصناعة الحربية البحرية في ذلك الزمان. وقد ذكر كلوت بك أن المصريين قد سبقوا الفرنسيين في بعض أمور هذه الصناعة حيث قال: «من المستطاع التحقق من أن قسما من التنسيقات والترتيبات المرعية في بناية السفن الحربية الفرنسية وجدت في السفن التي أنشئت بالقطر المصري قبل وجودها في فرنسا بزمان طويل. أي أن ترسانة الإسكندرية سبقت ترسانات فرنسا إلى الوسائل الحديثة في بناء السفن». (١)

والواقع أن العمال والفنيين المصريين الذين أفادوا من التقنية الأوروبية ومهروا فيها، استطاعوا أن يضيفوا إلى ما أخذوه إضافات مبدعة. وقد ساهم في ذلك كله المعاهد المتخصصة، مثل المعسكر البحري للتعليم برأس التين، وكان مخصصا لتدريب الجنود على الأعمال البحرية، وقد ألحق به مستشفى خاص، إضافة إلى مستشفى الترسانة في الإسكندرية. وقد أرفد هذا المعسكر بمدرسة بحرية لتخريج الضباط على ظهر إحدى السفن الحربية، ثم توزعت هذه المدرسة إلى مدرستين. ومع ذلك فقد استمر محمد علي في ارسال البعثات البحرية إلى الخارج، إلى جانب البعثات الأخرى، للوقوف على أحدث التطورات العلمية والتقنية، وقد لمعت أسماء كان لأصحابها دور كبير في النهوض بالبحرية العربية المصرية كعثمان نورالدين وغيره.

---

(١) نقلا عن عبد الرحمن الرافعي. عصر محمد علي، ص ٣٧٥

كانت صناعة السفن عامة وصناعة السفن والبوارج الحربية خاصة إحدى البوابات الكبرى التي دخلت منها مصر ومعها العالم العربي إلى عالم الصناعة الحديث. وكان للإرادة الوطنية الصادقة اليد الطولى في تهيئة الظروف الملائمة. وقد ساهمت البعثات والمدارس والمعاهد والكفاءة المحلية في تحقيق قفزات نوعية كبرى، حطمت أسطورة التفوق الأوروبي أو كادت، وأثبتت أن الشعوب تستطيع أن تفعل المعجزات. ويعلق لوتسكي على ترسانة الإسكندرية مؤكداً «أنه هيئت في وقت قصير الكوادر الوطنية من العمال المهرة. واكتسب العرب بسرعة الاختصاصات التقنية. إن الثمانية آلاف عامل ممن كانوا يشتغلون في دار السفن كانوا كلهم تقريبا من المصريين. وكتب بهذا الخصوص مشاهد أوروبي فقال: إن دار بناء السفن في الإسكندرية، التي كان العرب يقومون فيها بكافة الأعمال، والتي كان باستطاعتها أن تنافس كل دور بناء السفن في العالم، تشير بوضوح إلى ما يمكن عمله بهذا الشعب. وقد لا يتمكن الأوروبي أبداً من بلوغ مثل هذه النتائج المدهشة بمثل هذه المدة القصيرة» (١)

وقد قامت على هامش هذه الصناعة الكبرى صناعات أخرى وتوسعت دوائر النشاط الصناعي والتجاري والاقتصادي عموما. فعلى سبيل المثال، تطلبت صناعة البوارج الحربية الكبيرة توسيع الميناء وتعميقها، وتطلب ذلك الكراكات الكبيرة وعندما تم توسيع الميناء تمكنت السفن التجارية من الرسو في الميناء، فنشطت الحركة التجارية، وتطلب ذلك بناء الأرصفة والأحواض الجديدة والمخازن والمستودعات وغيرها. لما كثرت السفن الحربية والتجارية كان لابد من حوض لترميم السفن مما لا تقوم المرافىء الكبرى بدونه، وقد تم تنفيذ ذلك سنة ١٨٤٤، فكانت كل خطوة جديدة تمهد لخطوة تأتي بعدها. . وهكذا.

٣ ـ عسكرة الدولة : الصناعة والتجارة والزراعة في خدمة الجيش

كان همّ محمد علي الأول هو بناء الجيش الحديث، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن الجيش الحديث لا يكون دون صناعة حديثة وزراعة حديثة وبالتالي دون

(١) لوتسكي : مرجع مذكور سابقا، ص ٦٨ و٦٩

اقتصاد حديث من هنا يمكن القول إن اهتمامات محمد علي الاقتصادية من صناعية وزراعية وتجارية كانت اهتمامات عسكرية، أو على الأقل ذات أبعاد عسكرية. وقد رأينا كيف أن إعداد الجيش الحديث اقتضى تشييد العديد من المصانع الكبرى التى تدار بالآلات والتي أدخلت مصر إلى عالم الصناعة من أبوابها الكبرى، وقد قامت على هامش الصناعات العسكرية صناعات متعددة، وشيد العديد من المصانع الكبيرة والصغيرة اليدوية والتي تدار بالآلات. فعلى هامش دار بناء السفن في الإسكندرية وعلى مقربة منها قامت عدة مصانع بعضها لصب الحديد وغيرها من المعادن، وبعضها للأقمشة والأشرعة وغيرها، وبعضها للحبال، وبعضها لغير هذا وذاك مما تتطلبه الصناعات الثقيلة من الصناعات الخفيفة.

وكنا قبل ذلك قد وقفنا على أن صناعة الأسلحة والذخيرة ولاسيما ترسانة القلعة قد تطلبت تطوير صناعة صب الحديد. وقد قامت على هامش صناعة الأسلحة مصانع للبارود ونترات البوتاس، ومصانع للقطن والكتان والأجواخ وجميع أنواع الأقمشة لسد حاجات الجيش من الملابس ومن أشرعة السفن، وذلك قبل أن يأمر محمد علي بالتحول من صناعة السفن الشراعية إلى السفن البخارية. وأنشئت مصانع للسكر والألبان وتصنيع بعض المواد الغذائية ومصانع للطرابيش وغيرها.

وقد تطورت صناعة الغزل والنسيج تطوراً ملحوظاً، وذلك لأسباب عسكرية من جهة، واقتصادية تجارية من جهة أخرى. وكان أول مصانع الغزل والنسيج التي انشأها محمد علي مصنع الخرنفش سنة ١٨١٦. وقد بدأ المصنع بصناعة الحرير أولا، ثم تحول إلى غزل القطن وصناعة الأقمشة. وكان فيه أكثر من مئة دولاب تدير مئات المغازل، إضافة إلى سبعين آلة ومئات المناول. وقد أنشىء إلى جانب المصنع مصبغة لصبغ الأقمشة إضافة إلى ورش للحدادين والنجارين وغير ذلك مما تتطلبه صيانة المصنع من صناعات. وبعد هذا المصنع أنشأت الحكومة مصنعا آخر في بولاق أكبر من المصنع الأول، وقد قام بالقرب منه أكثر من ثمانين

ورشة منها ورش للحديد والفحم وأفران تعمل على مدار الساعة وغير ذلك. وبعد ذلك تعددت المصانع وتنوعت وتطورت الصناعات الملحقة بها فبعد أن كانت لوازم المصانع من الآلات وأمشاط الغزل تستورد من الخارج أصبحت تصنع محليا. وأدخلت تدريجاً الآلة البخارية إلى المصانع وازدهرت الصناعة على نطاق واسع وخصوصا في ثلاثينات القرن الماضي مع تطور الجيش والبحرية وازدهارهما.

وبعد أن كان الهدف الأول لصناعة الغزل والنسيج تأمين حاجات الجنود من الملابس، وتأمين متطلبات الجيش من الأشرعة والخيم وغيرها محليا، توجهت الجهود لتطوير الصناعة وإعداد المنتوجات الصناعية للتصدير. فقد كان تشييد المصانع يرهق الخزينة، وكان لابد من تطوير هذه الصناعة لرفد خزينة الدولة والتخفيف من الأعباء، وإن كان مجرد تأمين الحاجات المحلية والاكتفاء الذاتي هو بحد ذاته عمل مربح لأنه يخفف أعباء الاستيراد. وفي هذه الفترة أرسلت السلطات المصرية بعثات من العمال الفنيين للاطلاع على أحوال الصناعة في أوروبا، واكتساب الخبرات اللازمة لتطوير الصناعة الوطنية، كما استقدمت بعض الخبراء القلائل مما كان لابد منه لتعجيل تطوير هذه الصناعة الوطنية. وكان من أهم المصانع التي شيدت في هذه الفترة مصنع الجوخ ببولاق ومصنع للحرير بالخرنفش، وقد تطلبت صناعة الحرير الاعتناء بغرس أشجار التوت وتطوير مصانع الأصبغة والألوان لتزيين الملابس بالرسومات الجميلة.

وبالاضافة لصناعة الغزل والنسيج التي تطورت حتى أصبحت تنتج ما يقارب الخمسة عشر ألف رطل من الخيوط يوميا، تطورت صناعة سبك الحديد وصناعة ألواح النحاس وصناعة المواد الغذائية كالسكر والألبان، وقد تطلب ذلك العناية بزراعة قصب السكر والشمندر من جهة، والعناية بالماشية والأبقار من جهة أخرى. ونشأت صناعات جديدة وتطورت أخرى مثل صناعة النيلة التي كانت تصدر إلى الخارج، وصناعة الصابون والورق والزجاج والصيني والشمع وغير ذلك كثير.

ومع ازدهار الصناعة، اتسع نطاق التجارة وازداد حجم الصادرات، ولاسيما من القطن، وقد وفر ذلك الاعتمادات اللازمة لتطوير الصناعة وبناء الدولة وقد ساعد الأسطول التجاري، الذي أنشأته السلطات المصرية إلى جانب الأسطول الحربي، في توسيع رقعة التجارة والاتصال مع العالم، فازدهرت التجارة ازدهارا لا يقل عن ازدهار الصناعة حتى بلغ حجم التجارة حوالي خمسة ملايين جنيه سنويا. وقد اقتضى ذلك تطهير البحر الأحمر وجميع طرق المواصلات البحرية من القراصنة الذين كانوا يتهددون السفن التجارية، كما اقتضى ذلك أيضا العناية بالطرق الداخلية بين القاهرة والسويس والقاهرة والإسكندرية وغيرها.

وكان من النتائج المباشرة لازدهار الصناعة والتجارة وتوفر الاعتمادات أن توجهت الجهود إلى المشاريع العمرانية، كبناء القناطر ودور الحكومة، وشق الطرقات، وتشييد المستشفيات والمحاجر الصحية، وبناء المدارس، وغير ذلك كثير مما تقتضيه الحياة العصرية، ومن ذلك البدء بإنشاء سكة حديدية، وإنشاء الخطوط التلغرافية، وتنظيم أمور البريد وتدريب السعاة، وشق الترع وحفر القنوات وإنشاء الدفترخانة أو دار المحفوظات التي تحفظ فيها الوثائق والسجلات، والاهتمام بالنظافة العامة . إلخ.

وقد رافق تطور الصناعة والتجارة تطور الزراعة، بل إن مشاريع محمد علي الإصلاحية في ميدان الزراعة كانت قد سبقت مشاريعه الأخرى وتقدمت عليها. والواقع أن إصلاحات محمد علي الزراعية تعود إلى بداية تسلمه مقاليد الولاية في مصر، فقد بدأ ولايته بكفاحه ضد الإقطاع المملوكي، وعندما هزم الإنكليز، أتيحت له الفرصة للتخلص النهائي من المماليك، فشرع بتطبيق الإصلاح الزراعي في سنة ١٨٠٨، أي بعد سنوات قليلة من ولايته، حيث صادر أملاك المماليك، وفي السنة التالية وضع يده عليها نهائيا. ثم ألغى نظام الالتزام برمته، وحرر الفلاحين من تبعيتهم للملتزمين، وصار الفلاحون يدفعون الضرائب مباشرة للدولة لا للملتزمين. وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر أصبح النظام الزراعي مختلفا عما كان عليه في العقد الأول من ذلك القرن، فبعد إلغاء

نظام الالتزام وتوزيع الأراضي على الفلاحين وصاروا يعملون لحسابهم وحساب الدولة، انقلب وضع الفلاحين رأسا على عقب، إلا أن ذلك لم يدم إلا عقدين من الزمان. فقد عاد قسم كبير من الاراضي الميرية إلى أيد خاصة من أقارب الباشا وكبار الموظفين والضباط والأعيان

ومع نهاية العقد الأول وبداية العقد الثاني من القرن، ضمت الدولة أراضي الأوقاف إليها، وأخذت على عاتقها أمر الإنفاق على شؤون الأوقاف ودفع أجور أئمة المساجد ورجال الدين ومهمة صيانة المساجد وغيرها. وكان من الطبيعي ألا يروق ذلك لرجال الدين خاصة، وقد رأينا كيف تمت المواجهة بين عمر مكرم ومحمد علي، وكيف انتهت الأمور لصالح هذا الأخير الذي كان قد عقد العزم على بسط سلطته وتنفيذ مشروعه.

بدأ محمد علي باصلاحاته الزراعية إذن منذ تسلمه السلطة، ففي السنة التالية من ولايته بدأ تشييد سد ترعة المنوفية، وكان ذلك باكورة إصلاحاته الزراعية. وجاء بعد ذلك شق ترعة المحمودية التي أحيت الكثير من الأراضي الرراعية في مديرية البحيرة، وقد عمل فيه مئات الآلاف من العمال، مات كثير منها أثناء العمل. وقد عادت هده الترعة بالخير العميم على البلاد، فقد سهلت المواصلات البحرية، ومكنت السفن من بلوغ جهات قاصية في داخل البلاد، إضافة إلى توسيع رقعة الأراضي الزراعية والتخلص من مسافات من الصحراء وقد تكاثر شق الترع في عهد محمد علي في كافة المديريات، إضافة إلى بناء الجسور المتعددة، وتشييد القناطر وإصلاحها، ولاسيما القناطر الخيرية التي اعتبر مشروع تشييدها من أكبر مشاريع الري في العالم قاطبة في ذلك الزمان وقد كان من شأن تشييد هذه القناطر توسيع رقعة المناطق الزراعية. فبعد إتمام بنائها «وكنتيجة لهذه الإجراءات، ازدادت مساحة الأراضي المروية بحوالي مئة ألف فدان، كما ازدادت كافة مساحة الأراضي المزروعة من مليون فدان سنة ١٨٢١ إلى ٣ مليون فدان في عام ١٨٣٣»(١) أي بزيادة تفوق الضعفين.

(١) لوتسكي . ص ٧٠

وكان من نتائج الإصلاحات الزراعية أن تقدمت الزراعة تقدما سريعا، فازدادت المحاصيل بأنواعها، وعلى الخصوص من المزروعات المعدة للتصدير، كالقطن والنيلة والأرز وغيرها. وأدخلت إلى البلاد أنواع جديدة من المزروعات، وتوسعت أنواع أخرى كانت ضرورية للصناعة كالنيلة والكتان والقنب، وغرست أشجار التوت لصناعة الحرير، كما غرست أنواع متعددة من الأشجار لاستخدام أخشابها في صناعة السفن وسائر أعمال العمران.

وكان القطن المعروف في مصر حتى سنة ١٨٢١ هو من النوع الرديء الذي لا يشجع على التصدير، فأدخل محمد علي تحسينات على زراعة القطن، وشجع زراعة نوع من القطن النادر الذي كان يزرع في الحدائق كالأشجار وهو طويل التيلة ناعمها، فأحدث ذلك انقلابا في ميدان زراعة القطن كان من نتائجه اتساع رقعة التصدير وازدياد الطلب على القطن المصري. وكانت الحكومة تحتكر بيع القطن وتصديره فجنت من ذلك الأرباح الوفيرة التي وظفتها في المشاريع العسكرية والصناعية والعمرانية.

وكنتيجة لاتساع رقعة الأراضي الزراعية ازداد دخل الدولة من الضرائب التي كانت تأخذها من الفلاحين إضافة إلى احتكارها البيع والتصدير كما أشرنا، إلا أن أحوال الفلاح المصري لم تتحسن كثيرا، فقد حلت الدولة محل الإقطاعيين والملتزمين. وقد كان من شأن هذه الإجراءات الجذرية أن تضع البلاد على أبواب تحول كبير، ليس في ميدان ازدياد فعل الدولة فقط، بل في ميدان التحول الاجتماعي والارتفاع بمستوى الفلاح المصري إلى درجات جديدة تتلاءم مع التطورات النهضوية والعمرانية التي أخذت بها البلاد، إلا أن مجمل هذه التطورات النهضوية والعمرانية والعسكرية كانت على حساب الفلاح.

لم تكن أحوال العمال أحسن كثيرا من أحوال الفلاحين، فمع كثرة المصانع ازداد عدد العمال ودخلت البلاد في طور التصنيع المتقدم، ولم تكن الهوة بين مصر وغيرها من الدول الكبرى، في ذلك الحين كبيرة جدا، إلا أن العمال كانوا

يعيشون في ظروف صعبة جداً أسوأ من تلك التي كان يعيشها العمال الأوروبيون، والتي كانت موضع تذمر وقلاقل وثورات. كان النظام داخل المصانع أشبه بالنظام العسكري، فقد كان العمال موزعين على كتائب وفرق، وكانوا يعيشون في الثكنات ويخضعون للتدريبات العسكرية. ولا يتقاضون من الأجور إلا زهيدها، وإذا كان ذلك من عوامل إسراع النهوض والعمران وازدياد القوة العسكرية المصرية، إلا أنه كان من عوامل السقوط بعد ذلك. فعندما تضافرت القوى الأوروبية على مصر النهضة والمشروع العربي المرتبط بها، لم تكن جماهير العمال والفلاحين مهيئة للدفاع عن تلك النهضة لأن مكاسبها فيها كانت ضئيلة جدا.

أدرك محمد علي بفطرته وتجربته وذكائه أن إنشاء الجيش الحديث وتأسيس الدولة الحديثة لا يتم إلا عبر التعليم ونشر المدارس وتشييد المعاهد، وكانت الخطوة الأولى استقدام المدرسين الأجانب وإرسال البعثات إلى الخارج. فكان ذلك المدخل الطبيعي والفعال لبدء نهضة علمية وثقافية، ساهمت إلى جانب ما فعله محمد علي في الميادين الأخرى، إدارة الدولة والجيش والاقتصاد، في إحداث نهضة علمية واسعة وتكوين فكر عربي جديد.

بدأ ذلك كله بإعداد كوادر من المتعلمين تعليماً عالياً يستعين بهم على تسيير أمور الدولة، وإنشاء الجيش الحديث، وإدخال البلاد في نهضة وعمران جديدين. فطريق محمد علي إلى تحقيق مشروعه الكبير بدأ بخطوة صحيحة دون شك، وهي خطوة إعداد البنى الأساسية اللازمة للتحديث والنهوض في المرافق والميادين الرئيسة في المجتمع

وإذا كان محمد علي قد بدأ باختيار بعض المتخرجين من الأزهر لإمداد المدارس العالية، التي اختار لها مدرسين أجانب، بالطلاب، ولتشكيل البعثات إلى الخارج، إلا أنه اختار طلاب الدراسات العليا بعد ذلك من المدارس العلمانية التي أسسها فيما بعد. وقد أثبت بعض خريجي الأزهر قدرة على التكيف والتطور تثير الدهشة، وأصبح الكثير منهم في غضون سنوات قليلة أساتذة بارزون في

ميادين جديدة كالجغرافيا والهندسة والطب والجراحة والميكانيكا وصنع الأسلحة وصب المدافع والملاحة والإدارة وغيرها مما كانت مشاريع محمد علي العسكرية بحاجة ماسة إليها، كما أصبح بعضهم من كبار المفكرين ورواد النهضة الفكرية مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وغيرهما.

ولما كان هم محمد علي الأول هو الهم العسكري، فإن أول ما أختاره عندما قرر إنشاء المدارس العالية هو مدرسة الهندسة أو البوليتكنيك، التي يمكن أن تمد الجيش ومؤسساته الصناعية بالمهندسين والفنيين اللازمين، وقد تأسست مدرسة الهندسة أو المهندسخانة كما عرفت في عهده في القلعة سنة ١٨١٦، وكان لها مدرسون من الوطنيين مس أمثال حسن أفندي الدرويش إضافة إلى بعض الأجانب كما يؤكد الجبرتي في تأريخه لأحداث تلك السنة الموافقة لسنة ١٢٣١هـ. وكان طلاب المدرسة العالية الأولى يتقاضون رواتب شهرية وتؤمن لهم حاجاتهم ولوازمهم المختلفة بما فيها الثياب. وعندما ازدادت الحاجة إلى مهندسين، ولم تعد مدرسة المهندسخانه في القلعة تفي بحاجة البلاد إلى المهندسين وعندما توفرت الشروط اللازمة، انشأت السلطات المصرية مدرسة عالية جديدة للهندسة في سولاق، وكانت غالبية المدرسين فيها من خريجي البعثات التي أرسلت إلى الخارج، وقد كان لهذه المدرسة الفضل في تخريج العشرات من المهندسين الذين عملوا في الميادين المختلفة.

وفي سنة ١٨٢٧ أسست الحكومة مدرسة للطب، وكان مقرها في أبي زعبل حيث يوجد المستشفى العسكري، وقد اختير لهذه المدرسة مائة منن خريجي الأزهر وطلبته، وكانت تدرس فيها علوم التشريح والجراحة والصحة والصيدلة إضافة إلى العلوم المساندة من طبيعيات وكيمياء ونبات ولغات. وقد كان التعليم في المدرسة باللغة العربية عبر المترجمين، وكان المترجمون من خارج الطلاب، وعندما ألمَّ الطلاب باللغة الفرنسية خفت الحاجة إلى المترجمين من خارج المدرسة، وأصبح أكثر المترجمين من الطلاب أنفسهم. وقد ألحق بالمستشفى حديقة لزرع النباتات الطبيعية لاستخراج العقاقير منها. وبعد خمس سنوات من تأسيس

المدرسة تخرجت الدفعة الأولى من الأطباء، وقد أرسل بعضهم للتخصص في الخارج، كما استبقي بعضهم في المدرسة للمساعدة في التدريس، وقد ازداد عدد الطلاب في السنوات التالية وتوزعت الدراسة إلى قسمين، قسم لتخريج الاطباء وقسم لتخريج الصيادلة، وقد ألحقت بالمدرسة بعد ذلك مدرسة خاصة للقابلات والولادة، كما ألحق بالمستشفى مستشفى خاص للنساء.

وكان من المعاهد العليا المتخصصة مدرسة الألسن التي تولى نظارتها رفاعة الطهطاوي، وقد كان لها شأن كبير في النهضة الفكرية المصرية والعربية عموما. فقد كانت النهضة العلمية والثقافية بحاجة ماسة إلى مترجمين ينقلون من اللغات الأجنبية أحدث التطورات العلمية ويقيمون جسرا بين الثقافتين الغربية الحديثة والعربية، وقد سميت المدرسة حين إنشائها سنة ١٨٣٦ بمدرسة الترجمة، ثم اصبحت بعد ذلك مدرسة الألسن. وكانت تضم في أول عهدها قرابة الخمسين طالبا ثم ارتفع عدد الطلاب فيها حتى جاوز المائة والخمسين طالبا. وكان الطهطاوي يهتم بهم ويرعاهم ويسهر على نجاحهم. وكانت هذه الكلية أو المعهد العالي عبارة عن مؤسسة ثقافية متطورة تدرس فيها اللغات الأجنبية المختلفة كالفرنسية والإيطالية والإنكليزية، إضافة إلى التركية والفارسية، كما كانت يدرس فيها التاريخ والجغرافيا والشرائع والآداب وغيرها. وقد وصفت المدرسة في أكثر من مناسبة بأنها أشبه ما تكون ببيت الحكمة أيام العباسيين.

وقد ألحق بالمدرسة معاهد مختلفة للمحاسبة والإدارة وغيرها فكانت أشبه ما تكون بجامعة مصغرة، وقد تخرج من هذه المدرسة نخبة من المترجمين نقلوا عشرات الكتب إلى اللغة العربية وقد عدد الدكتور جمال الشيال هذه الكتب وأسماء مترجميها ومزاياها في رسالة جامعية أعدها نشرت فيما بعد تحت اسم **تاريخ الترجمة والحركة الثقافية**(١)

وازداد عدد المدارس أو المعاهد العالية سنة بعد سنة، وكانت ثلاثينات القرن

(١) قارن جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥١

الماضي هي العصر الذهبي لهذه المدارس والمعاهد، فقد بدأت النهضة تتكامل في هذا العقد في كافة الميادين. فبالإضافة لمدرسة الألسن والمعاهد الأخرى شيدت في سنة ١٨٣٤ مدرسة المعادن في مصر القديمة، ثم مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب في سنة ١٨٣٧، ثم مدرسة الفنون والصنائع أو مدرسة العمليات سنة ١٨٣٩. وذلك إلى جانب مدرسة الزراعة بنبروه أولا، ثم بشبرا بعد ذلك، ومدرسة الطب البيطري في رشيد ثم في أبي زعبل ثم في شبرا. إضافة إلى مدرسة الصيدلة بالقلعة وغيرها. ولا نذكر هنا المدارس والمعاهد الحربية والبحرية فقد سبقت الإشارة إليها عند حديثنا عن إنشاء الجيش والبحرية. كما أننا لا نذكر المدارس الابتدائية والإعدادية والتجهيزية ولعلها مدارس حديثة تدرس العلوم المختلفة والآداب والفنون وفق المناهج العصرية التي كانت سائدة قبل قرن ونصف من الزمان، وكان تقسيم المدارس إلى ابتدائية وثانوية وعليا وفق التقسيم الحديث الذي لم يكن معروفا في الكتاتيب التقليدية قبل ذلك.

وكان محمد علي قد افتتح في نهاية العقد الثاني من القرن داراً للطباعة في بولاق وقد أمدت هذه الدار المدارس ومؤسسات التعليم بما تحتاجه من الكتب والمؤلفات. وكان الباشا قد أرسل نقولا مسابكي سنة ١٨١٦ للتخصص في فن الطباعة في إيطاليا، وقد تولى هذا الأخير إدارة المطبعة في سنواتها الأولى. وقد ساهمت هذه المطبعة في النهضة العلمية والثقافية العربية الحديثة وصدرت عنها مئات الكتب، وكانت الأداة الرئيسة في توسيع دائرة الترجمة والتأليف، حتى اتسعت تلك الدائرة وامتدت خارج نطاق الفئات المحفوظة إلى سائر طبقات الشعب، وكان محمد علي يرعى الترجمة والتأليف والطباعة، وكان يجزل العطاء للكتاب ويستحث العلماء والمؤلفين على الإنتاج ويأمر بطبع ما ينتجونه. وكان محمد علي يطلع على هذه المؤلفات مع أنه تعلم القراءة في وقت متأخر عندما بلغ الخامسة والأربعين. وكان قبل ذلك يقود دفة الحكم وهو لا يعرف المبادىء الأولية للكتابة، إلا أنه استدرك ذلك وأخذ يقرأ ويكتب ويقف على أحداث العالم من خلال تتبعه للصحافة الأجنبية.

وكانت جريدة الوقائع المصرية وهي الجريدة الرسمية الأولى في مصر والبلاد العربية تطبع في هذه المطبعة، وقد صدر عددها الأول في نهاية سنة ١٨٢٨، وكانت تصدر بالعربية والتركية أولا، ثم اقتصرت على العربية بعد ذلك، وقد تولى الطهطاوي الإشراف عليها فترة من الزمن(١). وقد قامت إلى جانب هذه المطبعة مطابع أخرى صغيرة إلا أنها لم تبلغ درجة مطبعة بولاق التي كانت ومازالت أشهر المطابع التي ساهمت في صياغة الثقافة العربية الحديثة والفكر العربي الجديد.

والواقع ان وراء نجاح المطبعة ونجاح حركة التعليم الحديث بكل مراحلها، ولاسيما المرحلة العليا، كانت تقف تلك الطائفة من أفراد البعثات والإرساليات العلمية التي أوفدها محمد علي إلى أوروبا لضمان حصوله على البنى الأساسية اللازمة لعملية التحديث. وكان مما جناه هؤلاء، إضافة إلى العلم الذي نقلوه وأعطوه لتلامذتهم بعد أن أضافوا إليه، وقوفهم على طبيعة الحياة في العالم الحديث بكافة مرافقها وتحولهم إلى نوع من الجسور تربط الحياة الثقافية والفكرية العربية بما يجري في المجتمعات الحديثة المتطورة والمتقدمة من تطورات. وقد لا يكون هذا هو قصد محمد علي الأساسي من إرسال البعثات، فقد كان همه الأول الحصول على الكفاءات اللازمة لتحقيق مشروعه الكبير. إلا أن مجرد فكرة إرسال البعثات إلى الخارج وعدم خوف محمد علي من النتائج الجانبية التي يمكن أن يؤدي إليها إرسال هذه البعثات، وكون محمد علي هو أول حاكم شرقي يفكر في ذلك وينفذه حقا تبين مدى جدية هذا الحاكم الذي بدأ ولايته أمياً في الانتقال بدولته من حال الى حال.

---

(١) يرى د ابراهيم عبده الذي كتب تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ أن لإنشاء المطبعة علاقة مباشرة باهتمام محمد علي بإنشاء الجيش، لنشر القوانين والتعليمات العسكرية ولطبع الكتب اللازمة لتعليم أفراد الجيش وضباطه.
قارن بـ لويس عوض المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث، الجزء الثاني في الفكر السياسي والاجتماعي، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٣، ص٨١

بدأ محمد علي إرسال البعثات إلى الخارج ـ أوروبا ـ حوالي سنة ١٨١٣، وقد غلب على البعثات الأولى التي وجهت إلى إيطاليا أو غيرها طابع الفنيين الذين كانت المؤسسة العسكرية بحاجة ماسة إليهم لنقل الفنون العسكرية وبناء السفن، وكان من هده البعثات نقولا مسابكي الذي أشرنا إليه في حديثنا عن مطبعة بولاق. وقد بلغ عدد هؤلاء ٢٨ مبعوثا كان من أشهرهم عثمان نورالدين الذي أصبح أميرالاً للأسطول المصري فيما بعد.
أما البعثات الكبرى فقد وجهت إلى فرنسا على وجه الخصوص، وقد بلغ العدد الإجمالي لطلاب الدراسات العليا الذين أرسلهم محمد علي إلى أوروبا ٣١٩ مبعوثا، وهو رقم كبير بالقياس بأوضاع التعليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكان محمد علي يهتم بأفراد البعثات ويكاتبهم مما يدل على عنايته بالموضوع وما كان يتوقعه من نتائج بعد عودتهم. وقد نقل إلينا الطهطاوي نماذج من مكاتبات محمد علي إلى طلاب البعثات. والواقع أن جهود محمد علي لم تذهب سدى فقد كان لأفراد هذه البعثات اليد الطولى في نهضة مصر والنهضة العربية عموما في كافة المجالات العلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

ضمت البعثة الكبرى الأولى التي أرسلت سنة ١٨٢٦، ٤٤ طالبا وجهوا للتخصص في الإدارة والحقوق والعلوم السياسية والفنون الحربية والملاحة والهندسة والطب والزراعة وهندسة الري والميكانيكا وغيرها، وكان من أهم أعضاء البعثة رفاعة الطهطاوي الذي كان له شأن كبير في النهضة الفكرية العربية، وقد تلت هذه البعثة بعثة أخرى سنة ١٨٢٨ ضمت ٢٤ طالبا تخصص أكثرهم في الهندسة بأنواعها، وبعثة ثالثة سنة ١٨٢٩ وهي بعثة يغلب على أفرادها التخصص في الصناعات، وقد ضمت ثمانية وخمسين طالبا أرسل بعضهم إلى فرنسا وبعضهم إلى بريطانيا وقليل منهم إلى النمسا أما البعثة الرابعة فقد ضمت ١٢ طبيبا من خريجي مدرسة الطب بأبي زعبل وكانت البعثة الأخيرة في عهد محمد علي سنة ١٨٤٤ وكان فيها علي مبارك وبعض أنجال محمد علي وأحفاده إلى

جانب طلاب بلغ عددهم أكثر من سبعين طالبا.(١)

٤ ـ اشعاعات التجربة المصرية في بلاد الشام

يمكن اعتبار الإصلاح إرثاً عثمانياً، فقد قام عدد من السلاطين العثمانيين خلال القرن الثامن عشر بمحاولات إصلاح كانت تصطدم بعسكر الإنكشارية التي كانت تجد في الإصلاح تهديدا لمصالحها، كما تصطدم ببنى اجتماعية غير مؤهلة لتلقي الإصلاح والتجارب معه. ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حاول عدد من الولاة والحكام استغلال ارتباك السلطة المركزية في الآستانة وضعفها وعجزها عن الإمساك بالأطراف، وقاموا بمحاولات استقلالية رافقها خطوات إصلاحية من نوع الإرث العثماني، لم يكتب لها النجاح الطويل. وكان على هؤلاء أن ينتظروا نجاح التجربة المصرية، لتكون حافزا لهم من جهة، وسندا وضمانا من جهة أخرى.

من جملة هذه المحاولات محاولة بشير الثاني في لبنان، فقد سعى هذا الأمير الشهابي إلى وضع حد للانهيار التام والتفكك والتشرذم والصراع في ظل الاقطاع واستغلاله البشع والنزاعات الدامية حول السلطة والمال. فقد خاض بشير الثاني النضال من أجل الإصلاح والاستقلال، ساعيا إلى استبدال اللامركزية والتفكك بنوع من الوحدة تخفف من هدر الطاقات في الصراع من جهة، وتتيح المجال لتشييد دعائم الاستقلال من جهة أخرى، وكان همه تخليص البلاد من الإقطاع لتأمين الشروط اللازمة للنهوض والتقدم. ويمكن وصف مجموع أعماله وجهوده بصفة التقدمية عموماً، رغم ما عرفت به هذه الأعمال والجهود من طابع البطش. فقد اشتهر هذا الأمير بإثارة الذعر والرعب في قلوب خصومه وأعدائه، ذلك أنه، في سعيه إلى القضاء على الإقطاع وما كان يشيعه من فوضى في البلاد، لم يكن مستعدا للتساهل والتسامح مع الإقطاعيين، وكان كثيرا ما يصادر أراضيهم ثم يستغلها لحساب سلطته عن طريق تأجيرها للفلاحين بأجور يسيرة،

(١) يمكن الوقوف على التفاصيل المتعلقة بهذه البعثات في كتاب عبدالرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص٤٠٧ ومابعدها

وكان يقوم بتشجيع الفلاحين على زراعة التوت وغزل الحرير تنشيطا للاقتصاد، فتنفس هؤلاء الصعداء في عهده بعد أن كانت ترهقهم الضرائب، ونعم التجار بالهدوء، والأمان اللذين لم يعرفوهما قبلا بعد أن شن حربا لا هوادة فيها على قطاع الطرق ورجال العصابات.

إلا أن هذا كله لم يدم طويلا، فقد كان الإقطاع الإقليمي أقوى من ارادة حاكم محلي، فقد ابتاع أحد الملتزمين حقوق الالتزام في ولاية عكا وشرع الوالي يضيق الخناق على لبنان، فاضطر الأمير بشير إلى الهرب من لبنان، وكان عليه أن ينتظر حماية محمد علي باشا له ولأعماله لاستئناف جهوده الإصلاحية ضد الاقطاع. وهكذا أعاد محمد علي الأمير بشير إلى لبنان، حتى قبل حملته على بلاد الشام، فنكل الأمير بالإقطاعيين الذين عادوا إلى استغلالهم للشعب وعبثهم بالمصالح العامة. واستمر بشير الثاني في إصلاحاته في ظل حماية محمد علي. وعندما قام إبراهيم باشا بحملته على سوريا تمتع بشير الثاني بنفوذ واسع باعتباره أحد حلفاء محمد علي، فرسخ سلطته ودعمها طيلة ثلاثينيات القرن الماضي إلى أن اضطر مجددا إلى مغادرة لبنان بعد تطويق الدول الأوروبية لمحمد علي ومحاصرته وإجباره على الارتداد إلى مصر.

لم يكن الأمير بشير وحده هو الذي حاول الإفادة من التجربة المصرية قبل دخول المصريين إلى بلاد الشام، فقد شجع النجاح الذي حققه محمد علي في مصر الحكام والولاة أن يحذوا حذوه ويجروا مجراه. ولعل أكثر هؤلاء قرباً من تجربة محمد علي داود باشا في العراق، بل إن أوجه الشبه كثيرة بين الرجلين وبين التجربتين بشكل يثير الدهشة حقا. فقد بدأ داود باشا التقرب من رجال الدين ومن الزعماء الشعبيين حتى انتزع لنفسه لقب الباشوية والسلطة بعد أن كان من المبعدين وغير المرغوب فيهم من قبل السلطة العثمانية المركزية.

بدأ داود باشا ولايته محاولا تصفية نظام الامتيازات الذي كان يشبه نظام الالتزام، والذي كان يرهق كاهل المواطنين والتجار المحليين، وكان الفرس يلعبون دورا مشابها لدور المماليك في مصر، فمن جهة كانوا يساهمون في استغلال

العراقيين بما يتمتعون به من امتيازات، ومن جهة أخرى كانوا أدوات للقوى الخارجية يتعاونون مع الإنكليز كوكلاء لشركة الهند الشرقية. سار داود باشا بخطوات وئيدة، متعاوناً مع القوى الوطنية، وبعد أربع سنوات من حكمه وبالتحديد سنة ١٨٢١ وجه ضربته لأصحاب الامتيازات وجردهم من كل امتيازاتهم وجعلهم في مساواة التجار العراقيين. وكان من الطبيعي أن لا يروق ذلك لشركة الهند الشرقية، كما كان من الطبيعي أن تحاول إنكلترا استغلال هذه التطورات والأحداث لمصلحتها أو مصلحة المتعاونين معها. وهكذا تحرك أسطول الشركة الاستعمارية وعطل المواصلات بين البصرة وبغداد في محاولة لإرغام داود باشا على التراجع عن إجراءاته، إلا أن داود باشا واجه تلك الإجراءات بمصادرة بضائع الشركة وتطويق مقرها في بغداد دون أن يؤدي ذلك إلى الحد من نفوذ الشركة وتأمين مصالح التجار العراقيين.

وكمحمد علي حاول داود باشا تصفية الإقطاع وبسط سلطته المركزية على العراق بأسره، وواجه التمردات المحلية والقبلية إلى أن تم له ما أراد. ثم انصرف بعد ذلك إلى تكوين جيش نظامي حديث إلا أنه، بعكس محمد علي، اعتمد على المدربين الإنكليز دون الفرنسيين، وجهز جيشه تجهيزا حديثا وزوده بالمدفعية الثقيلة، ودعم ذلك كله بتشييد ترسانة تؤمن حاجات جيشه من الأسلحة والذخيرة. وقد اضطره ذلك كله إلى تنشيط الزراعة والتجارة والاقتصاد عموما لدعم الجيش الحديث، وادخال زراعة القطن وقصب السكر، وحاول الحصول على أسطول تجاري يساعده على تسويق المنتوجات المحلية سائرا على خطى محمد علي في مصر.

وقد حاول داود باشا، تقليد محمد علي في انتزاع استقلال كامل للعراق مستفيداً من هزيمة الأتراك في حربهم مع روسيا سنة ١٨٢٨ - ١٨٢٩، واستعد للدخول في حرب مع الدولة العثمانية إلا أن الظروف لم تكن في صالحه، فقد أباد الطاعون جيشه وقضى على كل آماله.

وفي سنة ١٨٣١ بدأت الحملة المصرية الأولى على بلاد الشام. ومنذ بدء

المعارك العسكرية بين المصريين والأتراك كان التفوق العسكري المصري واضحاً، وماهي إلا أسابيع قليلة حتى كانت قوات إبراهيم باشا ـ ابن محمد علي ـ قد توغلت بعيدا باتجاه الشمال. وفي السنة التالية استطاع إبراهيم باشا أن يهزم الجيش التركي، وأن يتوغل في داخل تركيا نفسها. ورغم أن القوات التركية كانت ضعف القوات المصرية فقد استطاع ابراهيم باشا أن يخرج من المعركة ظافرا، مثبتاً تفوق الجيش الحديث حتى عندما تكون المعركة على أرض المدافعين الذين فاق عددهم ضعفي المهاجمين، وهكذا تقدمت القوات المصرية في بلاد الأناضول حتى وصلت إلى قوينا ثم إلى بروسا فأصبحت الآستانة نفسها مهددة بالخطر بعد ان قضى الجيش المصري على ماتبقى من القوات العثمانية.

إلا أن هموم إبراهيم باشا كانت عربية على مايبدو، ولم يكن يرغب في احتلال الأراضي التركية بقدر رغبته في تأسيس دولة عربية، فقد كانت الخطط التي وضعها مع والده تشير إلى هذا التوجه، وكان إبراهيم باشا قد نشأ في بيئة عربية صرفة، وكانت مشاعره عربية كما تؤكد الوقائع والاحداث. وفي هذا يقول لوتسكي إن خطط محمد علي وابنه كانت بعيدة المرمى «إذ كان يحلم كلاهما بتكوين دولة عربية مستقلة كبيرة». ويقتبس لوتسكي عن بالمرستون فيما يتعلق بإبراهيم باشا مؤكدا أن «هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تضم كل الأقطار العربية التي تتكلم بلغة الضاد». ويضيف لوتسكي إلى هذا أن البارون بوالكمت المعتمد الفرنسي لدى إبراهيم أبلغ «أن هذا الأخير لايخفي مقاصده، فهو يرمي إلى بعث الوعي القومي العربي، وإحياء الأمة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب، والتعاون معهم إلى اقصى حد في إدارة الإمبراطورية القادمة. وبث إبراهيم بنشاط فكرة البعث القومي في نداءاته وكان غالبا مايذكر بمجد الشعب العربي في التاريخ القديم. وأثر بحماسه على قواته وأحاط نفسه بأناس كانوا يشاطرونه أفكاره ويعملون من أجل بثها». (١)

إلا أن إبراهيم ووالده محمد علي كانا يدركان أن الشروط اللازمة لطرح

(١) لوتسكي: ص ١٣١.

مشروع الدولة العربية الموحدة لم تكن قد توفرت، وأنه لابد قبل ذلك من القضاء على الإقطاع، وانتظار قيام برجوازية وطنية تكون مؤهلة لقبول الفكرة والمشاركة في تحقيقها، من هنا توجهت جهود محمد علي، حتى قبل الحملة على بلاد الشام، إلى محاربة الإقطاع ومحاولة تصفيته عبر دعم رجال حكم من أمثال بشير الثاني وغيره. وبعد استتباب الأمور في بلاد الشام لمحمد علي ونجله إبراهيم أصبح بالإمكان الإنطلاق في الخطوات العملية لتحقيق المشروع خطوة خطوة. وكانت الخطوة الأولى هي ضرب الإقطاع تمهيدا لإصلاح الإدارة والاقتصاد، وتطوير التعليم وإعداد البنى الأساسية اللازمة لمشروع سياسي وحضاري من النوع الذي كان يفكر فيه الرجلان.

ولم تكن المهمة صعبة جدا، فقد كان عرب المشرق خارج مصر على تفاعل مع الأحداث في القطر المصري، وقد عبرت عن ذلك اصلاحات بشير الثاني ومحاولة داود باشا السير على نهج محمد علي كما أشرنا. ومن جهة أخرى فإن الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها السلطات المركزية في الآستانة لتغطية نفقاتها الحربية كانت ترهق كاهل المواطنين، وكان التذمر قد بلغ مداه الأقصى قبل دخول القوات المصرية، ومن هنا فقد لاقت هذه القوات الترحيب الكامل من قبل الجماهير التي نظرت إلى هذه القوات على أنها قوات تحرير من نير السلطان وتعسف الملتزمين.

قام إبراهيم باشا بعدد من الخطوات الإصلاحية تمهيدا لوضع بلاد الشام على عتبة التحديث على غرار ماجرى في مصر، أوقف تدهور الزراعة التي كان نظام الإقطاع يدفع بها إلى الوراء، واتخذ عدة خطوات تشجيعية مثل اعفاء الأرض البكر المحروثة من الضرائب لفترة طويلة من الزمان، وتخفيف الضرائب ووضع حد نهائي للابتزاز والاستغلال والتعسف. فنشأت قرى جديدة، واستصلحت مساحات واسعة من الأرض، وحرثت الأرض البكر، فتضاعف حجم الأرض المزروعة في غضون سنوات قليلة. وساعد الأمن والاستقرار على تطوير الصناعة والتجارة. وظهرت الطلائع الأولى لبرجوازية وطنية لم تعد تخاف أن تظهر

مالديهامن رأسمال وأن توظفه، بعد أن منعت السلطات الجديدة تعديات الباشاوات والملتزمين، ونشطت التجارة الخارجية فازدهرت المدن، ولاسيما المدن الساحلية مثل طرابلس وبيروت وصيدا والمدن التي تقع على خطوط المواصلات الدولية مثل دمشق وبغداد، وقد أدى هذا كله إلى مضاعفة الإنتاج الصناعي وحجم التجارة مع الخارج، إضافة إلى تحسين الزراعة وتطويرها فازداد الد ـل الوطني والفردي.

تعاون إبراهيم باشا مع الأمير بشير الثاني في لبنان وآل عبد الهادي في فلسطين وأمثالهم في المناطق الأخرى، وأعاد تنظيم البلاد على النمط المصري وقسمها إلى مديريات على رأس كل مديرية مسؤول، وعين في كل مدينة مسؤولا آخر ينوب عن السلطة المركزية أشبه مايكون بالمحافظ يباشر الأعمال في المدينة والقرى المجاورة التي كان على رأس كل منها شيخ أو مايشبه ذلك. وشكل المجالس الشوروية ممن يمكن اعتبارهم نواة البرجوازية الوطنية. وانشأ المحاكم وتولى الإشراف عليها مباشرة.

إلا أن أهم ما يعنينا هنا إصلاحات إبراهيم باشا في ميدان التعليم والثقافة عموما، فمن جهة افتتحت المدارس الابتدائية والثانوية وفق الأنظمة الحديثة في جميع أنحاء البلاد الشامية، ومن جهة أخرى شيدت أول مطبعة في لبنان سنة ١٨٣٤ فبدأت معها حركة التأليف والترجمة والنشر، ودخلت البلاد في مرحلة فكرية جديدة كانت المدارس التي أنشأها إبراهيم باشا على غرار المدارس المصرية تخضع للانضباط العسكري. وكانت السلطات تقدم للتلاميذ والطلاب الطعام واللباس بالإضافة لمصاريف أخرى. وكان التعليم عربيا موجها، فهو باللغة العربية أولا، وهو يحاول إحياء هذه اللغة وبث روح التجديد وغرس الوعي القومي العربي في نفوس الطلاب وعقولهم كما يؤكد جورج انطونيوس في كتابه **يقظة العرب**

في هذه الأثناء نشأ وترعرع جيل جديد من الشبان اللبنانيين من أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي سيكون له شأن في النهضة العربية الفكرية وتحديث

الثقافة العربية. وقد لاتكون إصلاحات إبراهيم باشا هي وحدها التي صاغت فكر هؤلاء، إلا أنها دون شك ساهمت مع إصلاحات بشير الثاني السابقة والإصلاحات التي اضطرت الدولة العثمانية إلى اتخاذها بعد خروج القوات المصرية من بلاد الشام سنة ١٨٤٠ تحت ضغط الدول الأوروبية وتهديدها العسكري. والواقع أن روح التسامح الديني التي عرفت عن إبراهيم باشا كما عرفت عن والده، وتشجيعه للمسيحيين العرب وتحريره إياهم من القيود التي كانت تفرض عليهم من قبل الباشوات الأتراك بالإضافة إلى بثه روح الوطنية واعطائه فكرة النهوض والبعث القومي طابعا علمانيا، كل ذلك ساعد المسيحيين العرب الذين كانوا يمارسون الحرف ويحتكرون التجارة في المدن على أن يكونوا طليعة البرجوازية المستفيدة من التحديث، وقد كان البستاني واليازجي ممثلين لهذه البرجوازية الوطنية معبرين عن مصالحها.

٥ ـ وتونس أيضاً

منذ بداية علاقة الولايات الإفريقية بالدولة العثمانية، كانت هذه الولايات على شيء من الاستقلال، فقد ساعد بعدها الجغرافي وكونها في اطراف هذه الدولة على أن تكون دائماشبه مستقلة، وكان الوالي العثماني في هذه الولاية أو تلك سرعان مايتحول إلى صورة رمزية بعد تعيينه بفترة قصيرة، ليترك السلطة الحقيقية للطبقة الحاكمة المحلية. ورغم أن أكثر أفراد هذه الطبقة من أصول تركية وعثمانية مختلفة، إلا أنهم تحولوا تدريجياً إلى مواطنين محليين كما هو شأن محمد علي وأسرته في مصر. كان الوضع في تونس، وهي إحدى هذه الولايات، لايختلف عن هذه الصورة العامة كثيرا، فمنذ ارتباط هذه الولاية بالدولة العثمانية، كانت السلطة الحقيقة محلية، ومع حلول القرن السابع عشر شهدت تونس مزيدا من الاستقلال والحكم الذاتي على يد الحكام المراديين. أما القرن الثامن عشر فقد شهد تأسيس دولة تونسية شبه مستقلة أسسها حسين بن علي، وكان على رأس هذه الدولة حاكم يسمى الباي، وقد استمر هذا النظام حتى بعد سقوط الخلافة، والى ان حصلت تونس على استقلالها وأصبحت جمهورية سنة ١٩٥٧.

إلا أن ماميز الوضع في تونس هو لعب العناصر العربية التونسية دورا أساسيا في الإدارة السياسية والعسكرية للبلاد. وقد تكرس هذا الاتجاه مع حكم البايات المراديين، وخاصة أيام الباي حمودة باشا الحسيني في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وقد ظهر ذلك من خلال استخدام اللغة العربية لغة للدولة بدلا من اللغة التركية التي كان استخدامها مفروضا في الولايات الأخرى.

وعندما حمل القرن التاسع عشر معه تغيرات مهمة في علاقة أوروبا بالبلاد العربية، وكان أهم هذه التغيرات التحدي العسكري، إضافة إلى التحدي الثقافي والحضاري. عندما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ فأصبحت بذلك على حدود تونس، كان من الطبيعي أن يشعر الحكام التونسيون بالخطر يتهددهم، وأن يبادروا إلى اتخاذ خطوات وقائية كان أهمها التوجه إلى البناء الداخلي على ضوء الإفادة من التجربة الأوروبية. ومع أن مصير تونس كان قد تقرر في الواقع منذ احتلال فرنسا للجزائر فقد كان الفرنسيون يهدفون إلى إلحاق كافة الولايات الإفريقية بمستعمراتهم، إلا أن التونسيين رفضوا الدخول تحت الوصاية دون مقاومة ودون محاولة الإفلات منها.

في نفس الوقت، كانت اصداء النجاح الذي حققه محمد علي باشا في مصر تلهب خيال الحكام المحليين وتثير مشاعر المواطنين. وعندما توفر لتونس في القرن التاسع عشر بعض الحكام المستنيرين بدأت محاولات الإصلاح والتحديث في خط شبه مواز لما كان يدور في مصر. وقد بدأت أولى هذه المحاولات مع حمودة باشا الحسيني في مطلع القرن التاسع عشر، ثم تجددت مع الباي أحمد بين سنتي ١٨٣٧ - ١٨٥٥، وفي أيام هذا الأخير ظهر مصلح كبير هو خير الدين التونسي، فكان لأفكاره ومبادئه الإصلاحية والتحديثية شأن كبير، خاصة وأن خير الدين أصبح وزيرا ثم وزيرا أولا، وكان قد زار أوروبا وعاش فيها واطلع عن كثب على دخول العالم في مرحلة تاريخية جديدة، فأدرك أن تيار الحضارة تيار جارف فلابد من ركوب مركبه، والأخذ به إذا أردنا البقاء. (١)

---

(١) قارن بـ معن زيادة، خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١ وما بعدها.

عرفت تونس محاولتين أساسيتين للإصلاح الداخلي في القرن التاسع عشر قبل أن تغزوها القوات الفرنسية وتوقف عملية الإصلاح والتحديث. كانت المحاولة الأولى هي تلك التي جاءت على يد الباي أحمد مابين سنتي ١٨٣٧ ـ ١٨٥٥، والثانية هي التي جاءت على يد خير الدين الذي قام ببعض الإصلاحات خلال فترة توليه الوزارة في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي عاد بعد ذلك إلى تحقيق إصلاحات حقيقية عندما تولى الوارة الأولى بين سنتي ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ حيث أتيحت له ولبعض زملائه المجددين الفرصة لتنفيذ بعض المشاريع الإصلاحية في محاولة لتحديث البلاد. صحيح أنه كانت هناك محاولات للاصلاح والتحديث قبل هاتين المحاولتين، وهو ما أشرنا إليه عند ذكرنا للباي أحمد حمودة باشا وبعض خلفائه في مطلع القرن التاسع عشر، حيث جرت محاولة استبدال جيش المرتزقة بجيش على النمط الأوروبي، إلا أن الإصلاح الحقيقي والتحديث المثمر جاء بعد ذلك على يد الباي أحمد ويد خير الدين.

كان الباي أحمد معجباً ومتأثراً بتجربةمحمد علي، وقدبدأ عهده بإصلاح الجيش وبنائه بناءً حديثاً على نمط جيش نابليون لأنه كان معجباً بنابليون في نفس الوقت. ولأن أحمد أراد تحديث الجيش فقد كان لابد له من دعم هذا الجيش بتعليم مناسب، فأسس كلية الهندسة أو البوليتكنيك سنة ١٨٣٨، وكان قصده تخريج ضباط مهندسين. وكان المدرسون في هذه المدرسة بعضهم من العرب وأكثرهم من الأجانب، الفرنسيين على وجه الخصوص. ولم يقف أحمد في سيره على طريق محمد علي عند هذا الحد، بل حاول تصنيع البلاد واهتم بالصناعة الحربية التي يمكن أن تمد الجيش بالأسلحة والمعدات اللازمة له حتى لايضطر إلى أن يصبح رهينة للدول المصدرة للسلاح والذخائر. ويمكن القول إن سياسة أحمد باي التصنيعية قد نجحت إلى حد بعيد كما نجحت سياسة محمد علي قبله بسنوات قليلة، وقد عرفت تونس في عهدهذا الحاكم المستنير مصانع متعددة للأسلحة والذخيرة والجلود والنسيج وغيرها، وقد تطور الجيش وتأسست البحرية التونسية وأنشىء المرفأ المناسب لها تماما كما جرى في مصر. كل ذلك مع مزيد من الخطوات

الاستقلالية التي ظهرت في علاقات الباي مع الدولة العثمانية من جهة، ومع قناصل وسفراء الدول الأوروبية من جهة أخرى.

ولعل الفرق الأساسي بين التجربتين المصرية والتونسية، هو أن محمد علي اهتم بتحديث إدارة الدولة وتحديث الاقتصاد إلى جانب تحديث الجيش والتعليم، في حين أن أحمد باي اهتم بتحديث الجيش والتعليم، ولم يصرف العناية اللازمة لتحديث الاقتصاد وتطويره. أما الإدارة فقد أهملها، فكانت نتيجة ذلك أن استطاع أحد وزرائه وهو مصطفى الخزندار، وهو معروف بفساده وجشعه، بجني ثروة هائلة، بعدأن جمع حوله عصبة من الأتباع والمستفيدين عملوا على امتصاص خيرات البلاد وعرقلوا تقدمها. وقد أقصي الخزندار بعد ذلك إلا أنه كان قد أخر عملية التحديث وعرقل مسيرتها حيث ورط البلاد بديون طائلة كان المرابون الأوروبيون يأخذون عليها فوائد فاحشة. وقد اتخذت هذه الديون ذريعة لتدخل المرابين الأوروبين في اقتصاد تونس عن طريق تشكيل لجنة الديون الأجنبية سنة ١٨٦٩، وقد حدث أمر مشابه لهذا في مصر قبل دخول القوات البريطانية إليها سنة ١٨٨٢.

وكانت تجربة الإصلاح الكبرى في تونس بعد ذلك حين أصبح خير الدين التونسي وزيرا أولا وتسلم مقاليد الأمور في البلاد. وقد كانت التجربة الإصلاحية أيام الباي أحمد بمثابة الدروس المهمة التي تلقاها خير الدين، وكان أهم درس تعلمه من تلك التجربة هو أن الإصلاح والتحديث في ظل إدارة سياسية فاسدة لا يؤدي إلا إلى خيبات الأمل وقد أتيح لخير الدين، إضافة إلى وقوفه على تجربة الباي أحمد وإفادته منها، أن يزور فرنسا في مهمة دبلوماسية، وأن يقضي عدة سنوات فيها حتى أدرك كنه الحداثة كما كانت تعيشها أوروبا، في منتصف القرن التاسع عشر. وعندما عاد من مهمته في باريس سنة ١٨٥٧ أسندت إلي وزاة الملاحة إضافة إلى رئاسة المجلس الذي أسسه الباي عملاً بالدستور الجديد، إلا أن صدامه مع الطغمة الفاسدة جعله يستقيل من الوزارة، وأن يغادر إلى أوروبا ثانية ليبقى فيها سبع سنوات هذه المرة دارسا أحوال أوروبا،

واقفا على أسباب تقدمها، متأملا في أسباب تخلف بلاده وعدم نجاح تجربتهـا التحديثية.

وعلى أثر الوصاية المالية الأجنبية على تونس سنة ١٨٦٩، عاد خير الدين إلى بلاده ليرأس لجنة الديون الإيطالية ـ الفرنسية ـ الإنكليزية، وعاد في الوقت عينه لممارسة نشاطه السياسي. وبعد فترة قصيرة من الزمن استطاع خير الدين أن يصل إلى أعلى مركز سياسي في البلاد يستطيع الوصول إليه وهو منصب الوزير الأول، وعندئذ أتيحت له فرصة تطبيق برنامجه السياسي الذي عرضه في كتابه الشهير **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** الذي كان قد جمع مادته أثناء إقامته في أوروبا. وكان أكثر ما اهتم به خير الدين هو إصلاح الجهاز الاداري وتحريره من الطغمة الفاسدة، فقد أدرك خير الدين أن التحديث لايكون بدون رجال محدثين، والإصلاح لايكون بدون مصلحين، وأن فاقد الشيء لايعطيه.

وقداهتم «ابو النهضة» كما يعرف خير الدين التونسي، إضافة إلى إصـلاح الجهاز الإداري وتحديثه، بإصلاح نظام الضرائب وإزالة نظام الالتزام الذي كان يباشره القواد وجامعو الضرائب الذيـن كانوا يفرضون الضرائب التعسفية على رؤوس المواطنين، ويتقاضون نسبة مئوية من الضرائب المجموعة. وقد رأى خير الدي أن تشجيع الزراعة وتطويرها يحتاجان إلى الدعم، وإلى إلغاء الضرائب على الأراضي التي تباشر التشجير وزراعة الزيتون والنخيل، وهو ماضمنه للفلاح.

وقد اهتم التونسي بشكل خاص بتأمين الاستقرار والأمن والطمأنينة ومنع التعديات على الحقوق لأنها شروط لازمة لإطلاق مسيرة النهوض. كان خير الدين ينشد أن يحقق في بلاده ما شاهده في أوروبا من رفع المظالم والتشدد في الحفاظ على حرية المـواطنين وحقـوقهم وانتشار روح الـديموقـراطية بينهم. وهـو يفخر في مذكراته التي كتبها بعد اعتزاله السياسة بمحاولاته لإقامـة علاقـات مباشـرة مع المواطنين، ويذكر أنه وضع صندوقا خاصا بشكاوى المواطنين في إحدى الساحات العامة، واحتفظ بمفتاح الصندوق بنفسه للوقوف على شكاوي المواطنين وآرائهم دون أن يكون بينه وبينهم أي حاجز من الحواجز.

ولايجوز نسيان اهتمام خير الدين بالتعليم وإعطائه العناية الفائقة، فقد اهتم بتنظيم التعليم في جامعة الزيتونة، وحاول تطويره وتحديثه ليكون إلى جانب المدرسة الصادقية التي انشأها على النظام الحديث وعلى غرار مدارس الليسه أساساً لنهضة فكرية. وقد أردف ذلك باهتمامه بالمكتبات وتأسيس مكتبة عامة وعنايته بالصحافة والكتابة عموما وغير ذلك كثير.

إلا أن أهم إنجازات خير الدين على الإطلاق هو وضعه لكتابه، ولاسيما مقدمة الكتاب التي تعتبر بحق بمثابة مشروع نهضوي متكامل، فقد وضعت هذه المقدمة الأسس النظرية للتحديث يستحق صاحبها عليها وحدها لقب «أبو النهضة». فقد كانت المقدمة الباب الواسع للانطلاق والدخول في العصر الحديث. «فأبو النهضة التونسية لم يكن أباً لهذه النهضة بما أنجزه كسياسي إصلاحي، بل بما أنجزه ككاتب ومفكر نظّر لنقل تجارب الأمم الأخرى، لالنقل التقليد، بل لنقل الاستيعاب والتمثل الواعيين. لقد كان من تأثير أفكار خير الدين في المقدمة على معاصريه وتلامذته من المثقفين أن ينسب نشوء الحركة الوطنية التونسية إلى البذور التي بذرتها هذه المقدمة والتي أثمرت واينعت على يد بعض تلامذة خير الدين أمثال البشير صفر الأب الثاني للنهضة كما يعرف في تونس(١).

لم يتمكن خير الدين من نقل مشروعه النظري إلى حيز التطبيق، فقد كان مصير تونس قد تقرر قبل أن يتسنى لخير الدين أن يقدم على أي خطوة، بل وقبل ذلك عندما كان خير الدين طفلاً صغيراً، أو حتى قبل ذلك. فمنذ دخول فرنسا إلى الجزائر، ومنذ وضع المخططات الاستعمارية لضم المغرب العربي إلى الحظيرة الاستعمارية، وفي ظل عجز السلطات العثمانية عن الدفاع، وتأخر المشاريع الإصلاحية والتحديثة وعرقلتها، كان تطويق الاستقلال وإحباط مقاومة الضم والإلحاق يتم خطوة بعد خطوة. وعندما جاء خير الدين للحكم لم يكن قد تبقى في الجعاب إلا الأسهم القليلة، فسلك سياسة الطريق الوسط، لم يستسلم

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

لمحاولات الضم والإلحاق الاستعمارية، ولم يعتمد على الدعم غير الموثوق فيه الذي قدمته الآستانة، فحاول واطلق كل ماكان لديه من أسهم، فكان أحسنها مشروعه النظري الذي يعرضه في كتابه.

كان خير الدين مفكرا واعيا إلى جانب كونه سياسياً حاذقاً، ولعل مشكلته الكبرى أنه كان دائماالرجل المناسب في المكان غير المناسب. فبعد احتلال فرنسا لتونس وبعد لجوء خير الدين إلى الآستانة، جعله السلطان عبد الحميد صدراً أعظم على أمل إنقاذ مايمكن إنقاذه، إلا أن خير الدين هذه المرة كان أيضا قد جاء متأخراً، وكان كل شيء قد تقرر قبل ذلك. ولكن خير الدين الذي جاء متأخراً على مسرح العمل السياسي كان سباقاً في ميدان الفكر والنظر وهو ما سنقف عليه في الفصل التالي.



الفصـل السـادس

محاولات في صياغة المشروع الحديث

(١) ثقافتان في ثقافة واحدة

أراد محمد علي تحديث الجيش، وقد قاده ذلك إلى ضرورة تحديث الدولة، وعندما أخذ بتحديث الدولة وجد أن ذلك لايكون إلا بتوفير البنى أو الأجهزة أو (الكوادر) الأساسية اللازمة، والتي لاغنى عنها في عملية التحديث. وعندما طوق مشروع محمد علي من الخارج، تمهيدا لدخول الاستعمار بعد ذلك وإفراغ مصر من كل مكتسبات ومنجزات النهضة، لم يبق لمصر وللعرب إلا هذه البنى وما حملته معها من أفكار ومفاهيم ورؤى جديدة أورثتها للأجيال اللاحقة. وقد ظلت هذه البنى وامتداداتها، بعد ذلك، الأسس أو الركائز أو القواعد التي لابد منها لأي حركة فكرية عربية. فالأفكار لاتقوم في فراغ، ولاتكون إلا بأولئك الدين يستطيعون تقبلها والتفاعل معها.

ويعتبر رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذي كان أبرز أركان النواة الأولية لجهاز محمد علي، الممثل الأول للجيل الأول من هذه البنى في ميدان التربية والتعليم والصحافة والترجمة والتأليف، والمفكر الذي وضع المعالم الأولى لمركب ثقافي جديد يجمع بين الحداثة والتراث، والمعلم الذي أصَّل الأصول الحديثة لكثير من العلوم كالجغرافيا والتاريخ والتربية والتعليم والسياسة في الفكر العربي، والمعلم الذي أسهم في صياغة أفكار الأجيال اللاحقة، والرائد الأول لمجمل الفكر العربي الحديث.

لقد استطاع الاستعمار أن يجهض تجربة محمد علي، خاصة وأن محمد علي الذي أعد العدة لكل شيء أهمل أهم شيء، وهو إعداد الجماهير لحماية الدولة الحديثة، فقد بنى دولته على حساب الجماهير لا من أجلها، وقد سار ورثته على

خطاه. إلا أن إنجازاً كبيراً من إنجازات عصر محمد علي لم يتمكن الاستعمار من القضاء عليه وتصفيته لحسابه وهو تلك البنى الأساسية والأفكار التي حملتها والنظريات التي نقلتها والرؤى التي قدمتها. وإذا كان عود ثقاب واحد كافياً لتحدي الظلمة الدهماء، فإن معلما واحدا يكفي لإعداد طليعة من المتعلمين، والطليعة تستطيع تنوير جيل بكاملة.

ومع هذا فإن رفاعة الطهطاوي لم يكن عود ثقاب يتحدى الظلمة برهة ثم يحترق، كما أنه لم يكن يداً واحدةً تعمل دون أيدٍ إلى جانبها، وإن كان اليد الأولى، والمعلم الكبير، والممثل الأساسي لجيل الرواد الأوائل، بل هو رائد الرواد الذي جمع الثقافتين العربية ـ الإسلامية والغربية الحديثة في كل موحد، وإمام نهضة أدرك أن العلم هو طريقها فلم يوفر جهداً في تحصيله وتهيئته لمن بعده، فكان نقطة الضوء التي مازالت تكبر، والبذرة الصالحة في الأرض الطيبة.

كانت ثقافة الطهطاوي قبل رحيله إلى باريس سنة ١٨٢٦ كمرشد ديني لأول بعثة طلابية كبرى من بعثات محمد علي، ثقافة تقليدية من النمط السائد في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي أنها ثقافة تقتصر على المتون المتداولة والشروح عليها وبعض الأجروميات. بدأها بحفظ القرآن وبعض دروس اللغة في الكتاتيب وانهاها في الأزهر حيث كان الابتكار والأصالة قد اندثرا، وحيث سيطرت متون المتأخرين وشروحهم وما فيها من التعقيد والغموض والإسفاف في أكثر الحالات. وباستثناء تفتح ذهن الطهطاوي الشاب واتصاله بأستاذ حاول الخروج على المألوف باهتمامه بالعلم في حدود ضيقة هو الشيخ حسن العطار، فإن ثقافة رفاعة كانت محصورة جدا في بعض المتون والشروح والحواشي مما كان أهل الأزهر يشتغلون به شاغلين أنفسهم عن تراث العرب في عصور الازدهار السابقة على الحواشي والمنظومات التلفيقية والاجترارية.

وكان العلم بمعناه المعروف اليوم غائباً غياباً شبه تام عن جميع مؤسسات التعليم المتبقية في البلاد العربية، وكان الأزهر أشهرها وأعرقها. والقصة التي يرويها الجبرتي عن أن الوالي التركي أحمد باشا المعروف بكور وزير الذي جاء إلى

مصر في منتصف القرن الثامن عشر فلم يجد فيها من يحدثه في الرياضيات والحساب، أو العلوم الطبيعية أو ما سواها من العلوم حتى قال قولته «أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» خير دليل على طبيعة الثقافة التقليدية في ذلك الحين.

وإذا كانت هذه هي الثقافة التي تلقاها الطهطاوي الفتى، وقد باشر بنقلها إلى غيره حيث أجيز للتدريس في الأزهر، إلا أن ماميزه عن أقرانه هو تفتح مبكر واتصال بشيخ كان قد أعجب بما عند الفرنسيين من علم وتكنولوجيا، وقف على جوانب منها اثناء الحملة الفرنسية على مصر، وأدرك أن الإلمام بالعلوم والاشتغال بها ليس مما يتفق مع سنة القدماء فقط، بل هو ضرورة حياتية ومستقبليه أيضا. وقد شجع الشيخ العطار تلميذه الشيخ الطهطاوي وحباه بعطفه ورعايته، وعندما أتيحت الفرصة اقترحه مرافقاً للبعثة إلى باريس وشجعه على العناية بالترجمة تمهيداً لنقل علوم الإفرنج إلى العربية بقصد الانتفاع بها.

وعندما خرج الطهطاوي من القاهرة إلى باريس لم يكن مزوداً بأكثر من الثقافة التقليدية التي كانت شائعة، والتي عمل ضمن إطارها عندما أصبح مدرسا في الأزهر، إلا أنه استطاع فيما بعد أن يوسع من اطار هذه الثقافة، وأن يقف على جوانب أوسع من التراث، حتى إذا ماضم إليها الثقافة الأوروبية التي اغترف منها أثناء إقامته في باريس اغتراف الأرض العطشى للماء، خرج من كل ذلك بصيغة ثقافية جديدة تجمع بين الثقافتين التراثية العربية والغربية الحديثة، تذكرنا بما فعله العرب عندما خرجوا من جزيرتهم بعد الإسلام، وأنشأوا المركب الثقافي الذي تحدثنا عنه في فصل سابق.

في باريس انصرف الطهطاوي مع أفراد البعثة إلى تعلم الفرنسية أولاً، ثم إلى الاطلاع على معارف جديدة في الميادين المختلفة، وقد لفت نظره غزارة علم الأوروبيين من جهة وتوصلهم إلى مناهج جديدة في البحث والدراسة. ففي ميدان التاريخ مثلا لاحظ الطهطاوي الفرق الشاسع بين كتابة التاريخ كما كانت سائدة في مصر والبلاد العربية وكتابته عند الأوروبيين، فالأولى هي سرد وقائع تختلط فيه الحقائق بالخرافات، والثانية هي دراسة ومقارنة وتحليل للوقائع ونقد

للروايات والخروج بنتائج . وقد عبر الطهطاوي عن ذلك عندما قال إن من ينظر نظرة جديدة إلى وقائع التاريخ فإنه يصعد إلى «ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه بمحيط» . وقد استخدم الطهطاوي المنهج الجديد الذي اكتسبه في باريس في كتابته للتاريخ فيما بعد، فكان بذلك موصِّل هذا العلم في فكرنا الحديث.

وفي باريس تنبه الطهطاوي إلى علم الجغرافيا وإلى حقائق جغرافية وفلكية جديدة، وكان علم الجغرافيا من العلوم الحربية التي تسهم في نهضة الجيش الوطني، وقد انصرف الطهطاوي إلى هذا العلم، ووقف على حقائق أصبحت بديهية الآن إلا أنها كانت بمثابة الاكتشافات الكبرى بالنسبة له. من هذه الاكتشافات مسألة كروية الأرض و «القول بدوران الارض ونحوه»، وقد رفض الطهطاوي أول الامر قبول هذه الأفكار فوصفها بالضلالات، إلا أنه استدرك بقوله إن الأوروبيين يقيمون عليها «أدلة يعسر على الإنسان ردها»، ثم عاد بعد ذلك وأخذ بها وقدمها لمواطنيه وساهم في ترجمة ووضع كتب جغرافية متعددة، وبمنهج جديد فكان رائداً في هذا الميدان.

ومن الأمور التي اهتم بها الطهطاوي منذ بدء إقامته في باريس قواعد اللغة الفرنسية ونحوها، وقد تعمق في هذه الأمور شأنه في ذلك شأن الأزهري مع لغته العربية حيث لايكتفي بالإلمام العام بقواعد اللغة، بل يحاول الدخول في العمق حتى تنفضّ له أسرارها. ثم قرأ وجهة نظر المستشرقين الفرنسيين في اللغة العربية ونحوها وقواعدها، ووقف على منهج جديد في التعامل مع هذه اللغة. وقد أفاده ذلك في جهوده في اللغة العربية بعد ذلك، وهي جهود لاتقف عند حدود تأليف كتابه « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية». فهذا الكتاب الذي يعرض فيه الطهطاوي للنحو العربي بأسلوب سهل وواضح وأمثلة متعددة وجداول توضيحية، ليس إلا جزءاً ضئيلاً من جهود الطهطاوي اللغوية، فقد انتهج الطهطاوي نهجاً جديداً في الكتابة جاء خلواً من السجع والتكرار، وباستثناء عناوين كتبه التي احتفظت بشيء من السجع، فإن أسلوب الطهطاوي يختلف

بالكلية مع أسلوب أساتذته ومن تقدموه. يضـاف إلى ذلك، أن رفـاعة اهتم بـالدراسـات المعجمية وحـاول وضع معجم جـامـع وزوّد بعض كتبه بملحق معجمي، وأدخل في العربية مصطلحات جديدة، حتى يمكن القول إنه كان رائداً من رواد اللغة العربية الحديثة، بل هو رائد تجديدها وتحديثها. (١)

بعد تمكن رفاعة من اللغة الفرنسية انصرف إلى اغتراف المعرفة أينما تيسرت له وفي أي موضوع من موضوعاتها، وهو يعدد لناهذه الموضوعات، فبالإضافة إلى اللغة والنحو والتاريخ والجغرافيا شغل نفسه بالحساب والهندسة، كما اعتنى عناية خاصة بفن الترجمة، ويذكر انه ترجم عدة كتب وعدة مقاطع من كتب حيث يقول «ترجمت مدة إقامتي في فرنسا اثني عشر كتابا وشـذرة يأتي ذكـرها في آخـر هذا الكتاب، يعني اثني عشر مترجماً بعضهـا كتب كاملة وبعضهـا نبذات صغيـرة الحجم. (٢) ونحن نعرف أن الترجمة كانت قد غابت عن اللغة العربية لفترة طويلة من الزمان، وأن المصنفين الأزهريـين وغيرهم من المصنفـين كانـوا قد فقـدوا الاتصال بالثقافات الأخرى والتفاعل معها. وقد وجد رفاعة أن الترجمة سلاح هام لإعادة التواصل الثقافي، وأداة لابد منها لاكتساب علوم الآخرين المتطورة ومحاولة نقلها إلى العربية والإفادة منها. ومن هنا كان اهتمامه الواسع بالترجمة وأثناء إقامته في باريس أولا، ثم بعد عودته إلى الوطن عندما أسس مدرسة الألسن ومكتب الترجمة التابع لها.

إلا أن الأهم من قراءات الطهطاوي في الحساب والهندسة وفي علوم الطبيعة وفي الفنون العسكرية وفي الجغرافيا، بل وفي التاريخ أيضا، قراءاتـه الفكريـة والفلسفية ووقوفه على الحركة العقلية التي أسهمت في تشكيل فكر عصر النهضة الأوروبية، وإطلاعه على الكتب التي نظّرت لسيادة الدولة وانتهاء سلطة الملوك

---

(١) قارن ــ معن زيادة: «مدخل لدراسة مصطلحات عصر النهضة السياسية خاصة»، مجلة الفكر العربي، العددان الثاني والثالث. بيروت، ١٩٨١ .

(٢) محمود فهمي حجازي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابه تخليص الإبريز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٣٣.

المطلقة. وهو يعدد هذا فيقول «قرأت كتابا في علم المنطق الفرنساوي مع مسيو شواليه ومسيو المونري وعدة مواضيع مع كتاب لبرت رويال Port - Royal من جملتها المقولات، وكتابا آخر في المنطق يقال له كتاب قندلياق Condillac غير فيه منطق أرسطو[1] ومن المعروف أن «قندلياق» كما يسميه الطهطاوي هو مفكر فرنسي من أوائل أتباع الاتجاه الحسي والتجريبي، وقد أفاد من نزعة جون لوك التجريبية كما أفاد من مفهوم المعرفة العلمية عند نيوتن، وقد مهد قندلياق (Condillac كونديلاك) للوضعية التجريبية حيث «ساهم في نقدية التيار المناهض لديكارت وفلاسفة الميتافيزيقا في القرن السابع عشر»[2].

والطهطاوي يعرف أهمية الكاتب لأن مؤلفه «غير فيه منطق أرسطو» أي خالفه وطرح منطقاً جديداً ولاشك في أن إدراك هذا هو إدراك للتحول المنهجي والمعرفي الذي أحدثه عصر النهضة في أوروبا.

ويتابع الطهطاوي تعداده لما قرأه في باريس فيقول إنه قرأ لفولتير وراسين وروسو وهم جميعا من رواد الفكر الأوروبي الذين أسهموا في صياغة العقل الحديث، ويذكر أنه قرأ كتباً تربوية موضوعة بالفرنسية ومترجمة عن الإنكليزية، وأنه أطلع على أكثر أدبيات الفرنسيين وكتابهم المشهورين حيث يقول «وبالجملة فقد اطلعت في آداب الفرنساوية على كثيرمن مؤلفاتها الشهيرة».

ولعل أهم ما قرأه الطهطاوي في باريس الكتب السياسية المدافعة عن الحقوق المدنية للمواطنين وكتب فلسفة القانون ومنها: روح الشرائع لمونتسكيو، وهو لايخفي إعجابه بهذه الكتب وبمؤلفيها، انظره يقول «وقرأت في الحقوق الطبيعية من معلمها كتاب برلماني وترجمته وفهمته جيدا. وهذاالفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الإفرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية». ويتابع الطهطاوي عرضه لما قرأ فيقول «وقرأت أيضا مع مسيو شواليه

---

(١) تخليص الإبريز، ص ٣٣٤

(٢) المرجع السابق، حاشية المحقق، ص ٤٨٦.

جزءين من كتاب يسمى روح الشرائع مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجي، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا منتسكيو الشرق أي منتسكيو الإسلام» فإعجاب الطهطاوي بمونتسكيو واضح ليس فقط عندما يصفه بأنه «شهير بين الفرنساوية» ولكن عندما يصف كتابه بأنه «أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية».

أما وصف مونتسكيو بأنه ابن خلدون الفرنسيين، ووصف ابن خلدون بأنه مونتسكيو العرب، فهو لتقريب الصورة من أذهان القراء أولاً، ولتقديمها بقالب مقبول من قارىء اعتاد أن ينظر بحذر إلى كل ماهو آت من أوروبا المسيحية، خاصة إذا كان هذا الأمر يتعلق بشرعة عقلية جديدة توضع إلى جانب الشريعة وتقارن بها.

إلا أن هذا ليس هو كل ما أفاده الطهطاوي من إقامته في باريس، ذلك أنه بعد انقضاء السنة الأولى من إقامته التي تكاد تكون مقتصرة على التعلم من الكتب والأساتذة، فإنه بدءاً من السنة الثانية يضيف إلى الكتب والأساتذة مصادر جديدة لاتقل عنها أهمية وهي الحياة الفرنسية بكل زخمها، وبجميع ميادينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها. وقد ظهر ذلك كله في باكورة كتبه الموضوعة وهو تخليص الإبريز في تلخيص باريز الذي يلخص فيه الثقافة والحضارة الأوروبية ويقدمها في صورة زاهية تشير إلى مدى تأثره بها، كما ظهر أيضاً في أعماله ومواقفه وسيرته العلمية والعملية العامة والخاصة على حد سواء.

عاش الطهطاوي في باريس أحداث ثورة سنة ١٨٣٠، وأدرك طبيعة الأفكار التي تحملها القوى المتصارعة، ووقف على الحياة السياسية الفرنسية، ودور الشعب في الثورة وقوته، وما يمكن أن يفعله. وانحاز إلى جانب الثورة ورجالها وتعاطف مع أفكارها. فقد عرف أن الفرنسيين انقسموا إلى فريقين رئيسين أو«فرقتين أصليتين، وهما: الملكية والحرية» أي أنصار الملك ودعاة الحرية. ومع أن انصار «الملكية» أكثرهم من القسوس واتباعهم «أي رجال الدين، فهو يختار

مناصرة دعاة الحرية أو الحريين كما يسميهم «وأكثر هؤلاء من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية».

ويقص الطهطاوي علينا قصة الثورة التي عاش أحداثها(١)، وخلاصتها أن الملك استبد بالسلطة وعطل الحريات العامة وشدد الرقابة على الصحف، «مع أن ذلك ليس من حق الملك وحده» وكان عليه ألا يفعل أي شيء من ذلك إلا بقانون، إلا أنه «وضع وحده مالا ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره» أي مع المجالس التشريعية. ولم يكتف الملك بذلك بل قرب أنصاره من أعداء الحرية، ووضعهم في مناصب الدولة وخصوصا في المراتب العليا في الجيش «وهذا كله على خلاف القوانين» ويتابع رفاعة فيعرض لأحداث الثورة يوما بعد يوم، ففي اليوم الأول اضطرب الناس، وفي اليوم الثاني أضربت الصحف، وظهرت صحف الثوار «آمرة بعصيان الملك، والخروج على طاعته، ومعددة لمساوئه وقد وزعت هذه الصحف «من غير مقابل». ثم انتشرت المظاهرات وكثر الخطباء، وظهر جنود الملك، وحاصروا المطابع «وكسروا بعضها، وحبسوا من اتهموه من الطباعين، وبهدلوا كثيرا من الناس»، فتداعت صيحات المواطنين وتجمهروا في ساحة القصر الملكي «فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحمات، فعظم دور الرعية وكثرت أصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والحارات، فهجم العسكر على الرعية والتحم القتال بين الفريقين...».... الخ.

وهكذا يمضي الطهطاوي في وصف الأحداث، ويشرح لنا كيف أن المواطنين استولوا على مخازن الأسلحة، وكيف حاول الملك محاصرة المدينة بأسرها وعين أحد الضباط ممن يكرههم الشعب على رأس حملته لمحاصرة المدينة، فاشتد غضب الناس «فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي، فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح»... ولكنه أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه، ولايخفي الطهطاوي شماتته بالملك حيث يقول: «فعاد عليه مافعله

(١) تخليص الإبريز، المقالة الخامسة «في ذكر ماوقع من الفتنة في فرنسا وعزل الملك».

بنقيض مراده، وبنظير ما نواه لأضداده، فلو أنعم في إعطاء الحرية لأمـة بهذه الصفة لما وقع في مثل هذه الحيرة، وبـزل عن كرسيـه في هذه المحنـة (الثورة) الأخيرة». ويمضي رفاعة في وصف الأحداث حتى يأتي على آخرها، بما في ذلك عزل الملك ومحاكمة الوزراء وسخـرية المـواطنين من الملك والملكيـين، وأهمية المشورة، وما يمكن أن يكون للمشورة من سيادة على عقول الناس، حتى أنهم مستعدون للثورة من أجل المحافظة على حقهم فيها، وهذا كله مما «يدل دلالة قطعية على تمدن الفرنساوية». . . . الخ.

ولاشك في أن هذا كله دخل في ضمير الطهطاوي وعقله حتى بات جزءاً من كيانه يشكل النصف الثاني من ثقافته، ويقوم جنباً إلى جنب، ودون تعارض، مع ثقافته الأزهرية التي رسمنا خطوطها العريضة قبلا. ويمكن أن نخلص من هذا إلى أن الطهطاوي الذي نهل من الأزهر أولا، ثم أضاف إلى ذلك بالرجوع إلى ثقافة الآباء والأجداد التراثية قد قدر له إلى جانب ذلك أن يتعلم الفرنسية، وأن يطلع على المؤلفات التي تمثل الفكـر الغربي الحـديث، وأن يقف على المنـاهج الجديدة في العلوم المختلفة، وأن يعايش الحياة الأوروبية، وأن يشهد أحداث ثورة أطاحت بملك مستبد وحققت إرادة الشعب. وقد أضاف هذا كله إلى ثقافته الأصلية، «والتقى الشرق والغرب في عقله وقلبه على وفاق، فلـم يكن هذا الفتى الذي أوفى على الغاية من تعليمه في الأزهر واشتغل بتدريس علوم الدين واللغة فيه وفي غيره من المساجد في طهطا وملوي، ونظم الشعر وعمل واعظا وإماما في جيش محمد علي، متعصبا أو منطويا على ذاته، بل كان إلى جانب تدينه سوي النفس، رحب الأفق، يحكم العقـل قبل أن تتحكم فيـه العاطفـة، ميالا إلى التجديد أكثر منه إلى المحافظة»(١). وعندما أتيح له أن يوسع دائرة علمه، وعندما وضعت بين يديه مناهج جديدة، وقدمت له رؤى جديدة في الإنسان والحيـاة

---

(١) حسين فوزي النجار. رفاعة الطهطاوي، سلسلة أعلام العرب رقم ٥٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د. ت) ص ٤٠ ـ ٤١

والعالم، كان ذلك كله إكمالا لثقافته الأصلية أكثر منه بديلا لها، وكان ذلك متمما لامتعارضا معها

صحيح أن الطهطاوي تخلى عن بعض الأفكار الساذجة مما كان قد اكتسبه في طفولته وشبابه بعدأن تبين له على ضوء ماشهده في أوروبا من تهافت هذه الأفكار، إلا أن ذلك يظل محصورا في دائرة الأفكار الساذجة مما لايصمد أمام العلم، ولايتناول بحال من الأحوال جوهر الثقافة العربية الإسلامية. وقد حدث ذلك أكثر ماحدث في الفترة الأولى لاتصاله بالغرب، وظهر في تعديله للنسخة المخطوطة من كتاب **تخليص الإبريز**، حيث حذف عند نشر الكتاب سنة ١٨٣٤، أي بعد سبع سنوات تقريباً من وضع الكتاب، قصة تظهر ماكان عليه من إيمان بالكرامات إبان سفره إلى باريس. ويرى كتّاب مقدمة الطبعة التي أصدرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومي للكتاب. «إن رفاعة إنما حذف هذه القصّة وغيرها بعد أن لاحظ مايبدو فيه من سذاجة ورفض أن ينشره» ولأنه «الآن قد يرى في التبرك بالأضرحة إفراطا في السذاجة[١].

ومهما يكن من أمر أسباب حذف القصص والفقرات المتعلقةبكرامات الأولياء والتبرك بالأضرحة، فإن رؤيةالطهطاوي للإنسان والحياة والعالم قد اتسعت واغتنت أثناء إقامته في باريس. يدلنا على ذلك مثل بسيط وصريح وهو أن رفاعة يورد في الفصل الثالث عشر من المقالة الثالثة من مخطوطة كتاب **تخليص الإبريز**، وهو فصل يتعلق بالحديث عن «تقدم أهل باريس في العلوم والفنون»، إن الفرنسيين «لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، كالقول بدوران الأرض ونحوه، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها»، إلا أن رفاعة يحذف المثل الذي يقدمه في المخطوط وهو «كالقول بدوران الأرض ونحوه» عند طبع الكتاب، ومع ذلك يبقي حكمه على الفرنسيين بأن «لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية» كما يبقي تحفظه الذي يظهر عدم جزمه حين يؤكد على أنهم «يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها».

---

(١) مقتبس عن المرجع السابق، ص ٤٢

إلا أن اتساع رؤية الطهطاوي واغتناء علمه لايصل به إلى تحول ثقافي كامل، أو إلى قطيعة مع ثقافته الأصلية، أو إلى أزمة فكرية وعقلية، فمع إيمانه بعلم الغرب وتقدمه وضرورة الأخذ عنه والإفادة من تجربته، فإنه يدرك أن العرب كانوا آخر من تصدر قيادة المسيرة العلمية قبل أن يتصدرها الأوروبيون وهم يعترفون لنا «بأنا كنا أساتيذهم في سائر العلوم، وبقدمنا عليهم، ومن المقرر في الأذهان وفي خارج الأعيان أن الفضل للمتقدم، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالته ويهتدي بدلالته»(١). وهو يؤمن بتطور العلم والمعرفة، كما يؤمن بوحدة العلم ووحدة المعرفة، وأن البشرية واحدة، وأن قيادة المسيرة الحضارية تنتقل من شعب إلى شعب، وأن نتائج ذلك تعود على العالم بأسره بالنفع العميم، فتتقدم الشعوب وترتقي في سلم الحضارة.

فالأصل في الإنسان كما يرى الطهطاوي هو «الساذجية» كما يقول «الوجود على أصل الفطرة»، ثم طرأ على بعض الناس عدةمعارف لم يسبق بها «وتطورت هذه المعارف من طور إلى طور، وكان أحد مصدري الشرع أو العقل يحكمان بنفعها فتبقى وتتبع. والقصة طويلة، فقد كان الناس لايعرفون النار «لجهل النار بالكلية عندهم» فكانوا يأكلون «الأشياء النيئة» ثم عرفوا النار بعد ذلك بالمصادفة أولا، ثم باستحداثها بعد ذلك. وكذلك الأمر بالنسبة للأصباغ والألوان التي اكتشفها «أهالي صور ببرالشام» أي الفينقيون. وكذلك الأمر في ركوب البحار الذي كان يجهله الإنسان، وفي المحاربة التي بدأت «بالسهام أو الرماح أولاً، ثم بعد ذلك السلاح، ثم بالمدافع والأهوان. «بل أكثر من ذلك فقد كان الناس في أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك»، بعد ذلك صاروا يعبدونه إلها واحدا «وهكذا» فكلما تقادم الزمن في الصعود رأيت تأخر الناس في الصنائع البشرية والعلوم المدنية. وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن في الهبوط رأيت في الغالب ترقيهم وتقدمهم في ذلك. وبهذا الترقي وقياس درجاته، وحساب البعد عن الحالة الأصلية والقرب منها، انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب».

(١) تخليص الإبريز، الباب الأول من المقدمة

فلاشك في أن هذه النظرة إلى التطور والتقدم وإلى المسيرة الحضارية هي التي ساعدت الطهطاوي على أن يجد مكانا في عقله وفي قلبه أيضا لعلم العرب وثقافته إلى جانب ثقافته الأصلية. فالإنسان لم يبدأ مسيرته فوق كوكبنا الأرضي عالما، ولم تكن معرفته الأولية أكثر من بعض المشاعر و «الأمور الوجدانية»، ثم تدرج خطوة بعد خطوة، وتقدم مرتبة بعد أخرى، وسبقت بعض الشعوب غيرها تارة، وسبقها غيرها طورا، وإذا كانت «البلاد الإفرنجية قد بلغت مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها «وإذا كان الغربيون قد أحرزوا قصب السبق في جميع الميادين تقريبا في أيامنا هذه، فإنه علينا الآن أن نحذو حذوهم، وعلى شعوبنا أن تسعى إلى «كسب مالا تعرفه وجلب ماتجهل منه». دون تردد وقبل فوات الأوان.

وإذا كانت نظرة الطهطاوي إلى وحدة المعرفة البشرية ووحدة الحضارة الإنسانية هي التي ساعدته على أن لايجد أي حرج في أخذ الشرق عن الغرب فإن شعوره بتقدم الغرب ورفضه لاستمرار تخلف الشرق، ومعرفته بأن مارفع الغرب إلى مرتبة التقدم، وما نزل بالشرق إلى مرتبة التخلف إنما هو العلم أولا، واتساع دائرة المعرفة ثانيا، والسبق على طريق الحضارة ثالثا، هو الذي دفعه إلى الحض «على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع. إن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع» حتى لو جاء من أوروبا التي لاتدين بشرعة الإسلام فقد كان هم الطهطاوي ألا تظل أمم الشرق راكنة إلى جهلها وتخلفها، وأن تعود إلى الاغتراف من العلم وتوسيع دائرة معرفتها، وأن تتقدم على طريق الحضارة.

لقد استوى الشرق والغرب في عقل الطهطاوي وقلبه، «فاستطاع أن يوائم عقيدته وتقاليده الصالحة وعلم الغرب وما حسن من تقاليده». أضف إلى ذلك أنه «لم يغب عنهما صارت إليه بلاده من تأخر، فيرد العلة إلى الجهل وفساد العادة، ويقرنها بماصار إليه الفرنسيون من تقدم في العلوم والفنون، وفي محاسن العادات كالنظافة والصدق ووفاء الوعد ومحبة الغرباء، وكثيرامايرى من تلك

الطباع الحميدة ماهو شبيه بطباع العرب». ولما كانت الإشكالية الأساسية التي تواجه الطهطاوي هنا هي إشكالية التقدم والتخلف، وكيف يستطيع أن يخرج الشرق من تخلفه، ويصل به إلى درجة تقدم الغرب، فإن الغرب لم يفتنه «إلا بقدر ما استوى في عقله من أسباب نهضته وتقدمه، ولم يجحد للشرق سبقه في الارتقاء وإن جحد منه تخلفه وتقاعسه وهو أولى من الغرب بالمحامد»(١). من هنا كانت قدرته على الجمع بين تقدم الأول وسبق الثاني في كل موحد لاتناقض فيه.

[٢] معالم أولية لفكر عربي حديث

ولد الطهطاوي في فترة شهدت أحداثاً كبيرة في تاريخ مصر والعرب، فقبل مولده دخل نابليون إلى مصر، وفي سنة مولده خرجت القوات الفرنسية منها. وبعد ذلك دخل الإنكليز وحاولوا البقاء في مصر. ثم تولى محمد علي السلطة وأخرج مصر من النظام الإقطاعي المملوكي، وحررها من الهيمنة العثمانية، وحاول إقامة دولة عربية واسعة، إلا أنه فرض سلطة تعسفية ولم يقبل بالمشاركة في السلطة، وقد أقام دولة حديثة بعقلية الحاكم الشرقي القديم، وسافر الطهطاوي إلى باريس وعايش أحداثا ضخاما، فمن جهة كانت فرنسا تعيش فترة مابعد الثورة الفرنسية الكبرى، ومن جهة أخرى كانت على أبواب ثورة سنة ١٨٣٠، وقد مكنته قراءاته السياسية والفلسفية وإطلاعه على كتابات برلماكي ومونتسكيو وروسو وفولتير وراسين وغيرهم من استيعاب الإطار النظري لما كان يحدث في أوروبا عامة وفرنسا بشكل خاص. وكان من الطبيعي أن يتأثر الشاب المصري المتفتح الذهن، وصاحب الحس السليم، كما وصفه أحد أساتذته، بكل ماكان يدور حوله من أحداث، وأن يكون لنفسه فكر او نظرية سياسية محددة.

أدرك الطهطاوي الفرق بين النظام السياسي الإسلامي الذي نظر له بعض الفقهاء وأسموه نظاما شرعيا باعتبار أن الحاكم فيه يستمد مشروعيته من كونه قائماً على تطبيق الشريعة، والنظام السياسي الأوروبي عامة والفرنسي خاصة اللذين

---

(١) حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي، مرجع مذكور سابقا، ص ٥٤.

يستمدان مشروعيتهما من إرادة المواطنين ومشاركتهم ومن تعاقدهم على تقسيم السلطة إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية . . . . الخ . . . وباختصار بين نظامين يستندان إلى قانونين الأول شرعي والثاني عقلي، وقد وجد الطهطاوي أن الاختلاف الظاهري بين هذين النظامين إنما يتعلق بالتفاصيل أكثر من تعلقه بالمبادىء الأساسية التي يقوم عليها كل من النظامين.

فمن جهة تقوم الدولة على دعامتين: القوة الحاكمة والقوة المحكومة، والغرض من الدولة هو انتظام العمران، وهذا الانتظام العمراني «يحتاج إلى قوتين عظيمتين». أما القوة الأولى وهي القوة الحاكمة فالغرض منها أنها «الجالبة للمصالح، الدارئة للمفاسد». ووظيفة الحاكم هي واجب شرعا وعقلا، أما شرعا فللحاجة إلى من يقوم على أمر الدين والدنيا، وأما عقلا فلأن النظام العام يختل بدون الحاكم، فالحاكم ضروري لنشر العلم وتنفيذ الأحكام وقيام الصناعة والتجارةوحماية الثغور ودرء الفتن والشرور. ولولا الحكام «لتغالبت الناس وتهارجت، وطمع بعضهم في بعض واستولى الأقوياء على الضعفاء وتمكن الأشرار من الأخيار. . .» وأما القوة المحكومة فهي الأهالي أو المواطنون الذين لاتكون الدولة إلا من أجلهم، وهؤلاء لايستحقون تسميتهم بالأهالي أو ما يشبه ذلك إلا إذا حازوا على الحرية وتمتعوا «بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ووجوه كسبه وتحصيل سعادته، دنيا وأخرى.»[1]

ومن جهة أخرى تحتاج العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى نظام أو قانون أوشرعة تضمن منع الخلل في هذه العلاقة، وأول خطوات هذا النظام هو أن تتفرع القوة الحاكمة إلى ثلاثة فروع أوقوى. «فالقوة الأولى: قوة تقنين القوانين، وتنظيمها، وترجيح مايجري عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية، الثانية: قوة القضاء وفصل الحكم، الثالثة: قوة التنفيذ للأحكام بعد حكم القضاة بها،

---

(١) رفاعة الطهطاوي: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الخاتمة، الفصل الأول، ص ٥١٦.

فهذه القوى الثلاثة ترجع إلى قوة واحدة وهي القوة الملوكية المشروطة بالقوانين» .

وهذه القوى الثلاثة تعمل مشتركة بوحي من الشريعة أو القانون لضمان مصالح الأفراد وحماية حقوقهم وحرياتهم والعمل من أجل سعادتهم «دنيا وأخرى» . فالأفراد أو الأهالي أو المواطنون هم بيت القصيد الأول في الدولة . فإذا كان الأمر كذلك فإنه من الطبيعي أن يكون هؤلاء هم مصدر السلطات ، إلا أن هؤلاء قد ارتبطوا مع هذه السلطات التي تشكل القوة الحاكمة بنوع من العقل أو الاتفاق ، فوّضوا فيه القوة الحاكمة ، وأنابوها عنهم دون أن يعني ذلك تخليهم عن حقوقهم أو تنازلهم عنها ، ولضمان هذا كله يسجل هذا العقد أو الاتفاق في كتاب يسمى القانون أوالدستور «الكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة (الوثيقة Charte) ومعنا في اللاتينيةورقة ، ثم تسومح ، فاطلقت على السحل المكتوب فيه الأحكام المعيدة» . (١)

فالدولة على هذا هي قوتان أولا وقانون ينظم العلاقة بين القوتين ثانياً . وإذا كانت الفكرة العامة لمفهوم الدولة هذامستقاة من التجربة الأوروبية ، فإن الطهطاوي لايجد ذلك يتعارض مع النظرية السياسية الإسلامية ، فالنظرية السياسية الإسلامية تقوم على فكرة أن الحاكم يعمل بوحي الشريعة ليحفظ مصالح العباد «دنيا وأخرى» ، والنظرية السياسية الإسلامية تقوم على مبدأ بناء الفروع على الأصول ، أي استخراج واستنباط أحكام فرعية وجزئية بالاستناد إلى أصول ومبادىء عامة ، وهذا هو عين مايفعله الأوروبيون عندما يضعون القوانين والدساتير . فالطهطاوي الذي وقف على التجربة السياسية الأوروبية ، والذي أعجب اعجاباً شديداً بنتائج هده التجربة ، يحاول أن يتلمس الأسس والمبادىء العامة التي تستطيع أن تدخل النظرية السياسية الأوروبية في اطار النظرية السياسية الإسلامية . وقد وجد الطهطاوي الصيغة الملائمة برد فكرة التشريع العقلي ، وبالتالي فكرة الدساتير والقوانين إلى ماعرف عند العرب والمسلمين من الأصول والأحكام ، ولهذا فهو يقرر أن «من زاول علم أصول الفقه ، وفقه

---

(١) تخليص الإبريز ، الفصل الثاني من المقالة الثالثة ، «الكلام عن أهل باريس»

ماأشتمل عليه من الضوابط والقواعد جزم بأن الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم الحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية، تحسيناً وتقبيحاً يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه فروع الفقه يسمى عندهم الحقوق أو الأحكام المدنية. وما نسميه العدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية»(١)

والطهطاوي لايألو جهداً في محاولة التوفيق بين شرعة الفرنسيين الوضعية والشريعة الإسلامية، فهو تارة يلجأ إلى القول إن ماعندهم هو عين ماعندنا وإن اختلفت التسميات كما فعل أعلاه عندما قارن أصول الفقه بالقوانين الوضعية، وفروع الفقه بالحقوق المدنية، والعدل بالحرية والمساواة. وهو تارة أخرى يقول إننا لو توسعنا بما عندنا لوصلنا إلى ماوصل إليه الأوروبيون، فنحن نملك الاداة أو الأدوات إلا أننا لم نستعملها الاستعمال الكامل الذي يوصلنا إلى نتائج مماثلة لما وصل إليه غيرنا فمن «أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامي ظهر له أنها لاتخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا المعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك، ولاشك في أن قوانين المعاملات الأورباوية استنبطت منها. . . ولم تزل كتب الأحكام الشرعية إلى الآن تتلى وتطبق على الحوادث والنوازل، علماً لا عملاً كما ينبغي . . . . »(٢). وقد يلجأ الطهطاوي إلى حض القارىء على القبول بما أخذ به الأوروبيون من قوانين وضعية لما فيها من

(١) رفاعة الطهطاوي، المرشد الأمين للبنات والبنين، ضمن الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الباب الرابع، الفصل الخامس، ص٤٦٩.

(٢) مناهج الألباب . الباب الثاني، الفصل الرابع، ص ٣٦٩

فائدة مع أنها ليست إلا من قبيل التحسين والتقبيح العقليين. فدستور الفرنسيين جدير بالاقتباس رغم أنه نتاج إنساني حيث كانت مصادرة إنسانية لاشرعية ومع ذلك فهو جدير بالتأمل: «فلنذكره لك وإن كان عالب مافيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله... لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكو ظالماً أبداً، والعدل أساس العمران. (١)

وإذا كان الطهطاوي هو أول من كتب في الفرق بين أنواع الحكومات والنظم السياسية الحديثة الملكية المطلقة والملكية الدستورية والجمهورية، وحاول تعريف القارىء العربي بهذه الحكومات. وإذا كان قد رفض النظام الملكي المطلق أو الاستبدادي فإنه يرى أن الملكية المقيدة بالقانون هي أقرب ماتكون إلى النظرية الإسلامية في الحكم، وهو يرد على بعض المفكرين الغربيين الذين يظنون أن نظام الحكم الإسلامي أقرب إلى السلطة الملكية المطلقة، حيث يقول إن «الإفرنج يعدون الحكومات الإسلامية من قبيل مطلقات التصرف، والحال أنها مقيدة أكثر من قوانينهم «وهو يعني أنها مقيدة بالشريعة ومقننة بأحكامها. من هنا كان تفضيله للسلطة المقيدة بالقوانين «تطبيقا لمبدأ سيادة القانون، فإن هذا في رأيه تطبق حديث لمبدأ أساسي في الحكم الإسلامي وهو خضوع الحاكم للأحكام الشرعية، وبهذا يرد الطهطاوي على الرأي القائل بأن الحكم الإسلامي لايعرف تقييد سلطة الحاكم، ويؤكد في نفس الوقت أن الدساتير الحديثة التي تقيد سلطة الحكومة لاتتعارض مع روح الإسلام». (٢)

والطهطاوي الذي يريد الجمع بين حسنات النظم السياسية الأوروبية

---

(١) تخليص الإبريز، المقالة الثالثة ، الفصل الثالث.

(٢) محمود فهمي حجازي ، أصل الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، مرجع مذكور سابقاً، ص ٤٥

والنظرية الإسلامية في الحكم والسياسة، والذي يرى أن خير تعبير عن تقارب النظريتين الأوروبية والإسلامية في تقييد الحاكم بالقوانين والأحكام، يسعى إلى غرس فكرته هذه بتقديم ما شاهده في باريس من احداث سنة ١٨٣٠، فشرح التعديل الذي فرضته الأحداث على لقب رئيس الدولة، فقد كان الملوك قبل الثورة يتخذون لقب «ملك فرنسا بفضل الله» ثم صاروا يتخذون لقب «ملك الفرنسيين»، ويعلق الطهطاوي على الفرق بين اللقبين شارحا أن التعديل في اللقب يؤدي إلى تعديل في النظرة القانونية أو الدستورية. فاللقب الأول يعني أن سلطة الملك من الله، واللقب الثاني يعني أن سلطته من إرادة الأمة، وهذا بدوره يعني أن تقيد إرادته بالقوانين التي تنظم العلاقة بين القوتين الحاكم والمحكوم.

ولأن الطهطاوي يريد أن يقدم الأمثلة المحسوسة لمواطنيه فإنه يترجم الوثيقة الدستورية «أو الشرطة» كما يسميها، «ثم يقدم التعديلات التي طرأت على هذه الوثيقة. وهو يبدأ هذا كله بقوله «ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية، ونستوفي غالب أحكامهم ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر». وبعد أن يترجم رفاعة الوثيقة الدستورية يعلق عليها قائلا: «فإذا تأملت رأيت أغلب مافي هذه الشرطة نفيساً»، ثم يتناول مواد الوثيقة واحدة بعد الأخرى. فالأولى «لها تسلط عظيم على إقامة العدل. . . . وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية «. . . . . والثانية» لو كانت مرتبة في بلاد الإسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس. . . «والثالثة بها» كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة. . . . وهكذا.

ولايقف دورالطهطاوي عند هذا الحد من الدعوة إلى تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بل يمضي قدما طارحا موضوع فصل السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهو يبدأ هذا الموقف في كتابه الأول تخليص الإبريز الذي نشره في مطلع حياته العملية سنة ١٨٣٤، ويطوره بعد ذلك خاصة في كتابه مناهج الألباب الذي نشره بعد أكثر من ٣٥ سنة من نشر كتابه الأول أي سنة ١٨٧٠.

ويتبلور دور الطهطاوي في محاولة تقديم نظرية جديدة في الحكم والسياسة تجمع بين المبادىء الأصولية والفكر الحديث في موقفه من قضية الحرية والحقوق المدنية للمواطنين. والجديد في موقفه إضافة إلى أنه «أول مؤلف عربي حديث حاول تأصيل فكرة الحريات والحقوق العامة في الدولة الحديثة»(١)) وأنه يربط بين التمدن والحرية فيجعل التمدن سبباً من أسباب الحرية، ويجعل الحرية شرطاً من شروط التمدن والتقدم. في الفصل الخامس من الباب الرابع من المرشد الأمين وهو كتاب أصدره رفاعة قبل وفاته بسنة واحدة، يتناول المؤلف موضوع الوطن وتمدنه، ويبدأ بالحديث عن معنى التمدن، ثم يعدد فوائد التمدن وهي كثيرة ومنها: أن «ينمحي الاستعباد والاسترقاق بغير حق» ، وبعد ذلك يدخل المؤلف في موضوع علاقة الحرية بالتمدن، وهو يرى أن تلك العلاقة بدأت بحصول «العلماء وأصحاب المعارف» على حريتهم في «تدوين الكتب»، فأعان ذلك «على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا» ثم توسعت دائرة هذه الحرية شيئاً فشيئاً، و«سيما في بلاد أوروبا بقانون حرية إبداء الآراء» وتوسعت معها دائرة التمدن. فالحرية بجميع أشكالها «أعظم معين على التمدن» والتمدن لابد منه لفهم الحرية وإدراك معناها والتمسك بها. ولاشك في أن هذا الربط بين الحرية والتمدن هو موقف متقدم جداً يشير إلى وعي عميق بمعنى التمدن والتقدم وبمفهوم الحرية والعلاقة الجدلية بينهما.

بعد ذلك ينتقل رفاعة إلى تعريف الحرية ومعناها وحدودها وأقسامها، وهو يرى أن الحرية تكون في الأمم المتمدنة، وهي مصدر حقوق المواطنين، «فحقوق جميع أهالي المملكة المتمدنة ترجع إلى الحرية «وهذه الحرية تنظمها وتحفظها القوانين الشرعية والوضعية، وهي تنقسم إلى خمسة أقسام رئيسة: «حرية طبيعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية». ولاشك في أن هذا كله جديد على الفكر العربي الذي لم يعرف لمصطلح الحرية معنى إلا في حدود مقابلة الحر للعبد من جهة، وحرية الإنسان بإرادة الله من جهة أخرى. أما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨

الحرية بمعناها الحديث فهي جديدة تماما، والطهطاوي هو أول من طـرحها في الفكر العربي وأول من كتب في تعريفها ومعناها. أما الحرية الدينية فقد عرفها العرب، إلا أن الطهطاوي طرحها من منطلق فكري وحضاري جديدين

إضافة إلى ماتقدم فإن الطهطاوي يربط بين الحرية والسعادة، وهو يرى أنها «الوسيلة العظمى «في إسعاد المواطنين وخصوصا إذا قامت على قوانـين حسنة عدلية « فإنها عندئـذ تكون «واسـطة عظمى في راحـة الأهالي وإسعـادهم في بلادهم» وتكون «سببا في حبهم لأوطانهم» أيضا. والحرية بهذا الوجه يجب ألا يخشى منها أصحاب الحكم، حيث «لايخشى منها على الدولة»، بل هي دعامة أساسية من دعائم الدولة.

ولما كانت الحرية ملازمة للإنسانية حيث تكون «في قلب الإنسان من أصل الفطرة» كان من شروط ممارسة إنسانيته أن يمارس حريته. ولمـا كانت الحـرية مسؤولية، كان من أهم وجوه هذه المسؤولية التزام الحر نحو وطنه «فإن هذا من واجباته لوطنه»، وعلى الخصوص في حال تهديد الوطن الذي يعني بالتالي تهديد حرية المواطن نفسه. فالتزام الحر نحو وطنه ليس «في الحقيقة إلا لحماية الحرية». ولما كان الإنسان الحر يعرف معنى حريته وأهميتها، والأمـة الحرة تعـرف ذلك أيضا، فإن «من محاسن حرية الأمة أن تفرح أيضا بحرية غيرها من الأمم» وتتأذى من استعباد أمم الممالك (= الدول) الذين لاحرية عندهم».

والحرية ملازمة للتسوية «وكلاهما ملازم للعدل»، وهذا يعني بالتعبير الحديث أن الحرية والديموقراطية توأمان، وهو أمر بديهي في أيامنا هذه. ولكن المهم فيه أن الطهطاوي أدركه منذ أكثر من قرن من الزمان، وجعله ركنا أساسياً في نظريته السياسية.

والطهطاوي الذي تبنى فكرة الدولة الدستورية، ووجد لهـا السندمن شقي ثقافته، والذي امتلك رؤية عميقة للدولة الحديثة، وعرف أنها إنما تقوم بإرادة الأمة ومن أجل مصلحتها، والذي أدرك العلاقة الأساسية بين الحرية والتمدن،

فجعل التمدن موقوفا على الحرية، وجعل الحرية شرطاً لازماً لقيام الدولة الحديثة، يتابع رسم معالم هذه الدولة فيتحدث عن الاقتصاد والعمل والإنتاج مؤكدا أن دول العالم تتفاوت في التقدم والرفاهية بمقدار العمل والإنتاج فيها وحسن استخدام الموارد الاقتصادية. فالإمكانات الطبيعية والموارد الأولية متوفرة لأكثر الشعوب ولو بدرجات متفاوتة، إلا أن ما يفرق بين المجتمعات والدول في درجة الرقي والتقدم إنما هو العمل وبالتالي النظام الاقتصادي الذي ينظم هذا العمل.

يبدأ الطهطاوي حديثه عن العمل في مناهج الألباب(١)، فيرى أنه على ثلاثة ضروب رئيسة: الزراعة، والصناعة، والتجارة. وبعد حديثه عن كل ضرب على حدة، ينتقل لمناقشة قضية العلاقة بين الإنتاج والثروة، أو بين العمل ورأس المال. وهو يرى أن الفصل الأول للعمل «ودليل ذلك أن الأمة المتقدمةفي ممارسة الأعمال والحركات الكدية . . . المستملكة للأدوات الكاملة والآلات. . . . قد ارتفعت إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة، الفاترة الحركة، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرةالفاقة والاحتياج، فإذا قابلت بين النتيجة التالية: «فمن هذا يظهر أن أساس الغنى مبني على كثرة الأشغال والأعمال».

وإذا كانت المجتمعات البدائية تتميز بضعف الإنتاج وفقره، وقلة العمل، فإن التمدن والعمل صنوان، والتمدن يحمل «الإنسان على الشغل» بسبب تولد الحاجات الجديدة، وذلك يؤدي إلى الرفاهية والسعادة، فالسعادة متوقفة على العمل والإنتاج، بل «إن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة. ومع أن كد العمل مصدر السعادة الأصلي فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته بقوة العمل ومضاعفة المهمة حسب الطاقة».

وبالإضافة إلى حديث رفاعة عن العمل وأسبقيته على رأس المال، وربطه بين مستوى الأمة الحضاري والعمل وأشكاله، فإنه يعرف العلاقة بين العمل والإنتاج

(١) مناهج الألباب، الباب الأول، الفصل الثاني، ص ٣٠٧ وما بعدها

من جهة والنظام الاقتصادي من جهة أخرى. وهو يدرك أن الدولة الحديثة قامت على أنقاض نظام اقتصادي قديم هو النظام الإقطاعي، سواء في أوروبا أم في مصر، وأن الدولة الحديثة تقتضي نظاماً أو نظماً اقتصادية مختلفة عما كان سائداً في المجتمعات قبل الحديثة. فـ «في الأزمان السابقة قبل تقدم الجمعية في البلاد الأوروبية. كان أكثر حكوماتها ملتزمين وأمراء كبارا مستقلين بتملك الدوائر البلدية والأراضي الزراعية. مثملا كان جارياً بالديار المصرية في عهد المماليك» تم دارت الأيام وتمكن الأوروبيون من الخروج «من ربقة التبعية، وصاروا على تداول الأيام يزدادون في القوة بقدر ضعف الملتزمين. . . . فتواجدت عند الجميع الحرية وصارت ممالك أوروبا بالتمدن حقيقة. . . » وتغيرت النظم الاقتصادية. وفي سعي أوروبا إلى التقدم لم تجد ما يمنعها من الإفادة في تنظيم المنافع العمومية من النظم الإسلامية. إذ «لاشك في أن قوانين المعاملات الأوروبية «استنبطت منها. . . » فكم هو حري بورثة هذه النظم أن يفيدوا منها، ويطوروها بما يتلاءم مع حاجاتهم المتجددة بتجدد الأحوال.

والطهطاوي بعد هذا يناقش الاستغلال الذي يوقعه «أرباب الأملاك» على الفلاحين والعمال أو «أرباب الأعمال» كما يسميهم. ويتعرض إضافة إلى ذلك إلى نظرية فائض القيمة مما يشير إلى أنه كان على اتصال بالتيارات الفكرية التي ظهرت في أوروبا في العقود التالية لزيارته لها، وأنه كان على تعاطف مع التيارات الراديكالية التي مهدت لظهور الاشتراكية العلمية. وهو يمهد لموقفه هذا بفضح الاستغلال على أنواعه، انظره يقول: «إن المالك في العادة يتمتع بالمتحصل من العمل، ولا يدفع في نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذي لا يكافىء العمل، فما يصل إلى العمال في نظير عملهم في المزارع، أو إلى أصحاب الآلات في نظير اصطناعهم لها، هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك.

وبعد أن يدين رفاعة «أرباب الأملاك» على استغلالهم البشع يعرض لنظرية فائض القيمة مستشهدا بما يراه حوله في المجتمع فـ «المالك يستوفي لنفسه أكثر محصول الأرض، فإنه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها. . لا

يعطي لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قدراً يسيراً، ولا ينظر إلى كون بعض هؤلاء العمال هو الذي حسن الزراعة بشغله، واخترع لها طرائق منتجة. . » إلخ.

وبعد أن يتوسع رفاعة في هذا الموضوع ينتقل إلى موضوع يرتبط به وهو قضية العرض والطلب في العمل وفي نتاج العمل. فازدياد عدد العمال مثلا يزيد عادة في إمكان استغلال «أرباب الأملاك» أو الملاكين للعمال «فيترتب على هذا أن كل من يريد من الأهالي أن يتعيش من الخدمة، التي هي العمل، يصير مضطرا لأن يخدم بالقدر الذي يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضاهم، ولو كان هذا القدر يسيرا لا يساوي العمل، لاسيما إذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فإنهم يتناقصون في الأجرة» وينتهي الأمر إلى احتكار واسع ليس في الزراعة فحسب، بل وفي الصناعة أيضا. فـ «كما أن أرباب الأملاك يحتكرون جميع الأعمال الزراعية من طائفة الفلاحة، كذلك يحتكرون ثمرات جميع الصنائع، لأن الصنائع كلها تسعى وتنهض في الأشغال». ولا شك في أن هذا يؤدي إلى الخلل بالتوازنات القائمة وإلى تناقض اجتماعي «وهذا لا يثمر محبة الأجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد عنبا) فإن هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض، وهو ممنوع شرعاً».

ومن الواضح هنا أن الطهطاوي الذي يرى أن العمل والإنتاج الاقتصادي هما مؤشران معبران عن مستوى المجتمع الحضاري، فتقدم العمل والانتاج يعني تقدم المجتمع، ويحمل على الاستغلال والمستغلين لأن الاستغلال يؤدي إلى التباعد الاجتماعي والطبقي، ويوصل المجتمع إلى أزمات وتناقضات، وهو يحمل باللائمة على «أرباب الأملاك». أي أصحاب رؤوس الأموال لأن طمعهم وجشعهم واستغلالهم هي السبب في ذلك. وعبارته «من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً» تؤكد طبيعة مشاعره وحقيقة موقفه.

والطهطاوي الذي يصل إلى كل هذه المواقف المتقدمة مما يمكن وصفه بأنه من مكتسبات ثقافته الغربية، لا يعدم أن يجد الدعم الكامل لهذه المواقف في ثقافته التراثية، فهو يورد الحديث المشهور عن النبي عليه الصلاة والسلام «الزرع

للزارع» ويؤكد «أن المعنى فيه: أن الزرع لمن بذره، والثمرة له، وعليه أجرة مثل أرض، لأن العامل يأخذ أجرة قليلة على عمله...» ويخلص من هذا إلى أن حديث الزرع للزارع» لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل «المكافأة المستحقة، ناهيك عما في إيذاء المستغلين للعمال والفلاحين من خروج على القواعد الشرعية لأن هذا الإيذاء، «هو ممنوع شرعاً» كما يؤكد صاحب مناهج الألباب.

والطهطاوي الذي يهتم بأمور السياسة والاقتصاد لا يهمل الجانب الاجتماعي، فهو يرى أن السياسة والاقتصاد تصبان في مصلحة التطور الاجتماعي، وهو يعبر عنه بمصطلح التمدن. وقد رأينا آنفا كيف يربط رفاعة بين تطور العمل والإنتاج مس حهة والتمدن من جهة أخرى ،وكيف ربط قبل ذلك بين الحربة والتمدن، وهو لا يخفي أن لنهوض الدولة السياسي والاجتماعي غرضاً واحداً، ألا وهو التمدن والتقدم، تقدم الفرد والمجتمع وازدهارها ورفاهيتها وسعادتها.

إلا أن للتقدم أو التمدن وجهين أو كما يقول رفاعة «إن للتمدن أصلين» معنويا وماديا أما التمدن المادي فهو معروف «وهو التقدم في المنافع العمومية، كالزراعة والتجارة والصناعة، ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد، ومداره على ممارسة العمل وصناعة اليد، وهو لازم لتقدم العمران». أما التمدن المعنوي فهو «التمدن في الأخلاق والعوائد والآداب.. وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة»(١). والأصلان المادي والمعنوي للتمدن متمم أحدهما للآخر، ولا يكفي أن تكون الأمة متقدمة في أصل دون الأصل الآخر.» وإرادة التقدم للوطن، لا تنشأ إلا عن حبه من ذوي الفطن»، وهي واجبة شرعاً، «ففي الحديث: حب الوطن من الإيمان» وفي قول لعمر بن الخطاب: «عمر الله البلاد بحب الأوطان».. وهكذا.

والطهطاوي يعرف أن التمدن لايكون بتغيير المظاهر الخارجية من ملبس

(١) مناهج الألباب، المقدمة، ص ٢٥٠ وما بعدها

ومسكن وما شابهها، كما يعرف أن التمدن نسبي ، وأن الأمم والدول تتناوب في قيادة المسيرة الحضارية . ففي حديثه عن مصر وتاريخها يقول: «إنها كانت بمكانة من التقدم في قديم الزمان»، وهو يعلق على ذلك قائلا «فكل مملكة تأخذ حظها الأوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان، بحمية أهلها ومغالاتهم في حب الأوطان». وهو يرى أن إرادة التمدن أشبه بالحرارة تدب في الجسد، وتعيد إليه الحياة بعد غيبوبة الرقاد. وهو يحض وطنه ويحث مواطنيه مشجعا فيقول «إذا ظهرت الحمية الوطنية في أبناء الديارالمصرية،وولعت بمدافع التمدنية يحصل لهذاالوطن من التمدن الحقيقي ، المادي والمعنوي ، كمال الأمنية». [1]

ورفاعة يرى أن التقدم والتمدن لا يكونان في فئة في المجتمع دون فئة ، ولا يكونان في الرجال دون الإناث ، فنهوض المجتمع هو نهوض كلي بكل فئاته ، وفي جميع ميادين الحياة فيه ، وهو أولا وقبل كل شيء بنصفه : «الرجل والمرأة» مدافع قوى عن تعليم المرأة ومشاركتها للرجل ومسؤوليتها الاجتماعية . ولعل بداية موقفه هذا تعود إلى ما كان شاهده في باريس من مشاركة المرأة للرجال في العمل والإنتاج دون أن يعني ذلك بالضرورة خروجها عن الحشمة وتخليها عن عفتها وأخلاقها. وقد سجل الطهطاوي في تلخيص الإبريز ملاحظاته على نساء باريس ، فجاءت مشجعة على المشاركة والاختلاط ، لأن العبرة في أخلاق المرأة لا تعود إلى الخروج والمشاركة في الحياة الاجتماعية ؛ وإنما تعود إلى التربية أولاً وأخيراً .

ولأن الطهطاوي يؤمن بهذه الحقيقة فقد وضع كتابه المرشد الأمين في تربية البنات والبنين ، وهو وثيقة هامة في مساواة المرأة بالرجل ، والدفاع عنها ، وفي ضرورة تصحيح الصورة السائدة في الأذهان عن الفساد ، وفي ضرورة تعليمها وتأهيلها لمشاركة الرجل ، وفي حقها في العمل ، بل وفي حقها في الحب ، ليس لأن «من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه»[2] فقط ، بل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩

(٢) المرشد الأمين ، الباب السابع ، الفصل الثالث

لأن الزواج القائم على الحب هو الزواج الصحيح ، لأن الحب فن وليس شهوة. والطهطاوي يذهب إلى أبعد من ذلك فيربط الحب كسلوك وقيمة «بالنمط الاجتماعي والاقتصادي والفكري الذي يسود في مجتمع» معين. [1] ولاشك في أن هذه مواقف متقدمة تصدر عن شيخ أزهري، كان أول من نادى بتحرير المرأة، فسبق قاسم أمين بثلاثين عاماً على الأقل.

كانت قضية المرأة، ومازالت، تشكل مشكلة اجتماعية تحتاج إلى معالجة ضمن إطار رؤية تقدمية تستطيع أن تساعد في وضع الحلول الملائمة للشلل الذي يعانيه نصف المجتمع العربي، وقد بدأ رفاعة هذه المهمة ووضع المشكلة في إطارها الصحيح ، عندما جعل تعليم المرأة ومشاركتها للرجل وحقها في العمل قضية حضارية وعنواناً أساسياً. من عناوين التقدم والتمدن.

رأينا خلال عرضنا لمعالم فكر الطهطاوي السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تأسيسه لهذا الفكر على وعي عميق بالتمدن والتقدم. إلا أن هذا الوعي يتجلى أكثر ما يتجلى في موقفه من العلم، أو بتعبير آخر في موقع العلم في فكره. لقد لاحظ الطهطاوي عند إقامته في باريس كل ما طرأ من تجديد على مفهوم العلم، ووقف على ميادين علمية جديدة لم تخطر له على بال قبلا، فاهتم بها وتابع تطوراتها. وفي باريس أدرك الشيخ المصري أن العلم من الاتساع بحيث إنه لا يدرك بجملته، وأن اتساع العلم اقتضى تعديلا في التعاطي معه أوجب اختصاص العلماء في علم واحد، أو في ميدان علمي واحد دون غيره، خاصة وأن العلم في اتساع مستمر: فالعلوم «تتقدم كل يوم فهي دائمة الزيادة، فلا تمضي سنة إلا ويكتشفون شيئا جديدا. .[2]إلخ . وكل العلوم تستحق أن تدرس لأن «كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة» إلا أن «الإحاطة بجميعها أمر محال» وهذا يعني أن الطهطاوي عرف أن تأصيل العلوم يعني التخصص، فلا

---

(١) محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لرفاعة ، المقدمة، ص ٢١٨.

(٢) تلخيص الإبريز، المقالة الثالثة، الفصل الثالث عشر، ص ١٦١

تقدم في علم من العلوم إلا عبر التخصص والمتخصصين، وهو ما حاول تطبيقه فيما بعد عندما أتيح له أن يتحمل المسؤولية التربوية الأولى في وطنه.

وكما أن للتمدن والتقدم وجهين أو أصلين، المادي والمعنوي، فكذلك للعلم المرتبط بالتمدن والتقدم ارتباطا عضويا وجهان علمي وأدبي، أو بتعبير آخر شقان: شق العلوم الحقيقية وشق العلوم الأدبية. و«التقدم الحضاري لا يتم إلا بهما معاً، فالدولة المتقدمة تختلف عن الدول المتخلفة في الجانبين معاً. فالتقدم العلمي يكون في العلوم الحقيقية والعلوم الأدبية جنباً إلى جنب. والتخلف يكون فيهما معا»[(١)]. وفي هذا يقول الطهطاوي: «إن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضها ببعض، لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، وأن كلا منهما متوقف على الآخر «ثم يضيف قائلا: «العلوم الحقيقية والأدبية قليلة التقدم عند الأمم القليلة الحضارة» والعكس صحيح وهو أن هذه العلوم مزدهرة عند الأمم المتقدمة والمتمدنة.[(٢)]

والطهطاوي يؤمن بالعلم إيمانا لا يحول دون السعي إليه حائل، وهو يعود إلى الحديث النبوي «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها»، والحديث النبوي الشهير «اطلبوا العلم ولو في الصين». وفي العلم يجد الطهطاوي ضالته في إحياء النهضة وبعث التجديد والتحديث، وهو ماكان قد اهتدى إليه أستاذه الشيخ حسن العطار قبله، إلا أن الأستاذ لم يستطع أن يلعب الدور الذي لعبه التلميذ، واكتفى بمحاولة إحياء الثقافة العربية أيام عصورها الزاهرة، والحض على الوصل بين الماضي العلمي المجيد والحاضر المفتقر إلى العلم والمعرفة، ووقف عند حدود بذر البذور التي تعهدها التلميذ من بعده «فربت على يديه وأثمرت حركة التجديد التي استقام عليها الفكر المصري (خاصة والعربي عامة) من بعد، وامتدت لتشمل كل جوانب الحياة.. على يد الأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وطلعت حرب، فما من حركة من

(١) محمود فهمي حجازي · أصول الفكر العربي الحديث، ص ١١٦.
(٢) المرشد الأمين، الباب الثالث، الفصل الثامن، ص ٤٢١ وما بعدها.

حركات هؤلاء المصلحين على احتلاف ما بينها من اتجاهات إلا وهي صدى، أعمق ما يكون الصدى، لجانب من الجوانب العديدة في فكر الطهطاوي ودعوته للارتقاء والتمدن»(١).

وهذا لا يعني أن الأفغاني تأثر مباشرة بأفكار الطهطاوي، إلا أن الأفغاني أفاد من التربة التي مهدها الطهطاوي، فقد وصل إلى مصر بعد أن كان الطهطاوي قد أنفق عدة عقود في العمل الدؤوب في كافة ميادين العلم والتربية وإعداد الأجيال، وما كان للأفغاني أن يحظى بما حظي به من نجاح نسبي في مصر لو «لم يمهد له الطهطاوي، فقد أثمرت جهوده حقا حين وجدت دعوة الأفغاني أكرم تربة لها في مصر، وحين أثمرت فيها ما لم تثمره في غيرها. وقد رأينا قبلا كيف أن الطهطاوي سبق قاسم أمين في ريادة تحرير المرأة. والواقع أن قاسم أمين لم يأت بما يزيد عما أتى به الطهطاوي، إلا أن قاسم أمين ظهر في جيل متأخر. وكان الرأي العام فيه قد بدأ بالتجاوب مع أفكار ودعوات من قبيل دعوة تحرير المرأة.

وما قلناه عن دور الطهطاوي في ريادة تحرير المرأة يمكن أن يقال عن دوره في التمهيد للحركة القومية والدستورية في مصر والبلاد العربية». وقد رأينا أن الطهطاوي هو أول من تناول هذه الموضوعات: إلا أن قادة فكر من أمثال أحمد لطفي السيد وطلعت حرب وغيرهما تابعوا نفس الطريق الذي كان قد بدأه رفاعة. ومثل هذا يمكن أن يقال عن حركة التجديد الإسلامي وتطوير التعليم في الأزهر التي أثمرت على يد الشيخ محمد عبده، فما قدمه رفاعة في ميدان التجديد الديني كان بمثابة البراعم التي تفتحت على يد محمد عبده فيما بعد. وبهذا كان رفاعة الطهطاوي رائد بعث وإمام نهضة استوت وامتدت على الزمن إلى كافة جوانب الحياة والفكر في مصر». (٢) والبلاد العربية.

[٣] تجربتا الحكم الإسلامية والأوروبية في مشروع مركب

إذا كان الطهطاوي قد حاول صياغة مشروع نهضوي حديث، فإن خير الدين

---

(١) حسين فوزي النجار · رفاعة الطهطاوي، مرجع مذكور سابقا، ص ١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨ وما بعدها

التونسي قد حاول مشاركته في هذه الصياغة بمنهج لا يختلف كثيرا عن منهج الأول. وباستثناء اختلافات لابد منها بين ظروف الرجلين، فإن أوجه الشبه بينهما كثيرة جدا.

عاش خير الدين في تونس في القرن الماضي في ظل حكم أكثر من حاكم واحد حاول الإصلاح والتجديد، وكان أهم هؤلاء الباي أحمد الذي قرّب خير الدين وأسند إليه مناصب عالية في الدولة. إلا أن خير الدين آثر الإستقالة سنة ١٨٦٢ بسبب رفضه سياسة الاستدانة من المرابين الأوروبيين، وبسبب رفضه الموافقة على السياسة الإدارية الفاسدة التي كان يمارسها وزير نافذ في الدولة، وعلى أثر الاستقالة غادر خير الدين إلى أوروبا حيث عاش لمدة سبع سنوات في فرنسا، ويبدو أنه قام أثناء تلك الفترة بزيارة عدة دول أوروبية أخرى مما أتاح له فرصة الوقوف على الحضارة الأوروبية وإدراك مدى التخلف الذي كانت تعيش فيه تونس والبلاد العربية والإسلامية عموماً. صحيح أن خير الدين لم يخضع لبرنامج دراسي تثقيفي منظم كما كان الأمر مع رفاعة، إلا أنه أفاد إفادة بالغة من وجوده في الخارج فاطلع على الحضارة الجديدة، ووقف على الحركة العلمية، وأدرك العلاقة الوطيدة بين العلم والتقدم والحضارة. وقد تيسر لخير الدين أن يعود إلى أوروبا بعد ذلك في مهمات سياسية فكان على اتصال مباشر بالتطورات العامة على الساحة الأوروبية.

في هذه الأثناء تكونت لدى خير الدين فكرة وضع موسوعة أشبه ما تكون بكتاب العبر المعروف باسم «تاريخ ابن خلدون» وعندما أتيحت له الفرصة فيما بعد، وضع الكتاب وقدم له بمقدمة طويلة تضمنت معالم المشروع النهضوي الذي حاول خير الدين التقدم به. وإذا كان خير الدين يفضل أن يطلق على محاولته تلك اسم «إصلاحات ضرورية للدول الإسلامية» وهو العنوان الذي اختاره للترجمة الفرنسية لمقدمة كتابه، (١) إلا ان المقدمة تضمنت ما يمكن تسميته

---

(١) خير الدين التونسي ، الترجمة الفرنسية لكتاب Reformes Necessaires aux etas Musulmans أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك باريس، ١٨٦٨.

بمحاولة جادة لصياغة مشروع نهضوي حديث شبيه بمشروع الطهطاوي المبثوث في كتبه المتفرقة.

أطلق خير الدين على كتابه اسم **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، وقد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٨٦٧، وهو يتألف من مقدمة طويلة، ثم دراسة مقارنة لعشرين دولة أوروبية، بما فيها الدولة العثمانية، كل دولة في باب خاص بها يتحدث عن أوضاعها العسكرية والاقتصادية والدستورية والسياسية والثقافية وغيرها، وكأن خير الدين أراد أن يقدم صورة متكاملة عن أوضاع أوروبا، مع مقدمة أشبه ما تكون بمقدمة ابن خلدون، تستخلص الدروس وتضع المعالم العامة لنظرية جديدة تفسر ما آل إليه أمر العالم في ظل الحضارة الغربية الحديثة.

يدعو خير الدين إلى اقتباس التجربة الأوروبية بطريقة تعيد إلى الأذهان ما كتبه رفاعة في **تخليص الإبريز ومناهج الألباب**، ويهتم اهتماما خاصا بمحاولة إقناع معاصريه من المثقفين والقراء في القرن التاسع عشر بضرورة الإصلاح والتغيير، وضرورة الإفادة من تجربة، أوروبا، واستعارة مصادر قوتها ولاسيما العلم والمعرفة، خاصة وأن معاصريه كانوا في غالبيتهم الساحقة من المحافظين الذين كانوا يجدون في التغيير خطراً على الأوضاع القائمة بما فيها مصالحهم الخاصة. كان خير الدين يؤمن إيماناً قاطعاً بأن تحديث المجتمع وتجديده لايمكن أن يتعارضا مع الأصول الشرعية، وهو من قبيل المصالح المرسلة والمستجدة، فالظروف تتغير وتتبدل وتأتينا بالجديد المفيد. وهذا يقتضي إضافات شرعية وفقهية لا بد من تعاون أهل السياسة ورجال الدين في تقنينها، فلايمكن رفضها بحجة أنها شرع جديد، فليس كل جديد متعارضاً مع الشريعة لمجرد أنه جديد، فإذا تأملنا في أهميتها وحاجة المجتمع إليها وجدنا أن أصول الشريعة تقتضيها على وجه الإجمال، وإن بدت تفاصيلها مختلفة عما هو مألوف، وخيرالدين يلخص لنا هذا كله في العبارة التالية: «ثمة مصالح تمس الحاجة إليها، بل تتنزل منزلة الضرورة، يحصل بها استقامة أمورهم وانتظام شؤونهم لايشهد لها من الشرع أصل خاص،

كما لا يشهد بردها، بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالاً وتلاحظها بعين الاعتبار. فالجري على مقتضيات مصالح الأمة، والعمل بها حتى تحسن أحوالهم، ويحرزوا قصب السبق في مضمار التقدم «لايمكن أن يكون متعارضاً مع الشريعة، وكل ما يحتاج إليه اتفاق نخبة» من حملة الشريعة ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة، متبصرين في الأحوال الداخلية والخارجية، ومناشيء الضرر والنفع، يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة، بجلب مصالحها ودرء مفاسدها.»(١).

وإذا كانت مسألة «المصالح» هي أكثر ما يركز عليه خيرالدين في دفاعه عن الإصلاح والتجديد، فإن منهجه في الاقتباس عن الغرب لا يختلف كثيراً عن منهج رفاعة، فهو يقدم الأدلة النقلية إلى جانب الأدلة العقلية، محاولاً أن يستوعب الجديد القادم من الغرب في إطار الأصول العامة للفكر الإسلامي، وهو ينقب دائماً في الموروث الفكري باحثاً عما يدعم به دعوته إلى التجديد.

في مطلع كتابه وتحت عنوان «السبب الداعي للتأليف» يوضح خير الدين أن هدفه هو التحريض على تمدين الأمة وتوسيع دوائر العلوم والعرفان على نمط «المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان، وليس بعده بيان». إلا أنه يرى أن للكتاب غرضاً آخر وهو تبيان أن أكثر ما استحدثه الأوروبيون هو موافق لشرعنا، وأن العبرة ليست فيما انتقش في عقول العوام «من أن جميع ماعليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر، حتى أنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئا منها، وهذا على اطلاقه خطأ محض». بل إن خيرالدين يرى أن أكثر ما استحدثه الأوروبيون هو امتداد لما كانت عليه شعوبنا، ولو أننا تابعنا مسيرتنا الحضارية لوصلنا إلى ما وصلوا إليه، بل إنه يرى أن العالم وحدة متماسكة، وأن أي إنجاز إنساني وحضاري هو في مصلحة الجنس البشري وجميعه وهو حق له وفي هذا يقول : «لم نتوقف أن نتصور الدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة. . ما

---

(١) قارن بمقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ضمن كتاب معن زيادة. خير الدين التونسي وكتابه، ص ١٩٥.

ينجز بها (أحد الشعوب) من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بني جنسه».

فإذا كان الأمر كذلك، وكانت الحضارة إرثاً بشرياً، وكان آباؤنا يتصدرون قيادتها زمناً، فكأنها أخذت منا، كان علينا أن نقبل عليها، وأن نقتدي بغيرنا ممن اقتدى بنا بأخذ ما هو حسن: «فإن الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقا للأدلة، لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا، فلاوجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله». ولا عبرة في اختلاف الأديان فإن «كل متمسك بديانة، وإن كان يرى غيره ضالا في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية، كما تفعله الأمة الإفرنجية، فانهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعماله. حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم ما هو مشاهد.» ويختم خير الدين فكرته هذه بقوله «والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها»

ولأن خير الدين كان يواجه معارضة من قبل بعض رجال الدين المحافظين أكثر مما واجهه رفاعة، حيث اصطدمت جهوده «بمقاومة من قبل المعارضين لها مبدئيا، ومن قبل أولئك الذين رأوا فيها خطرا على احتكارهم للجهاز الشرعي وعلى نفوذهم السياسي والاجتماعي»(١)، فإنه يجد نفسه مضطراً إلى دعم سعيه إلى الأخذ عن الغرب بكل الموروث الفكري، بما فيه بعض ما حفظ لنا في الكتب من أحداث تاريخية تؤكد اقتباس العرب والمسلمين عن غيرهم من الشعوب. فهو يعيد علينا قصة سلمان الفارسي واقتراحه على الرسول صلى الله عليه وسلم حفر خندق لمنع الاعداء من الوصول إلى قواته، كما يذكرنا بما أخذه العرب عن اليونان، ويستشهد بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم. «من قاتل فليقاتل كما يقاتل» ويوضح أن معنى الحديث الاستعانة بما عند الغير من علم ومعرفة وخبرة وآلات، كما يستعين بما قاله الفقهاء من «أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر».

---

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، دار النهار، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٩.

وهو ينكر على الذين يعارضون الاقتداء بالتجربة الأوروبية بحجة مخالفتها للشريعة تنافسهم على اقتناء البضائع الأجنبية والأوروبية من الملابس وأثاث المساكن خاصة، مع أن ذلك أكثر مخالفة للشريعة من مجاراة الإفرنج «فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها» لأن التهافت على السلع الغربية يعطل الصناعة المحلية من جهة، ويؤدي إلى الارتهان للغير من جهة أخرى، وهذا مانع للاستقلال موهن للقوة دال على تأخر الأمة في العلم والمعرفة والصنائع. في حين أن الإفادة من علم الغرب ومعرفته، وتقدمه العمراني، والحذو حذوه ضمن تجربة خاصة هو الذي يحفظ استقلالنا وهو الذي يصون وحدتنا، وهو الذي يعطينا القوة لضمان هذه الوحدة وذلك الاستقلال، وهل يظن هؤلاء المنكرون أن ذلك ممكن «دون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا، وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتي العدل والحرية، اللتين هما أصلان في شريعتنا، ولا يخفى منهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك».

والتنظيمات التي يشير إليها خير الدين هنا هي عبارة عن الإصلاح بشكل عام، وهي بشكل محدد الخطوات الإصلاحية أو البرنامج الإصلاحي الحديث، وبشكل أكثر تحديدا القوانين المنظمة للحياة السياسية والاجتماعية، والتي تستوعب التجربة السياسية الغربية «المؤسسة على العدل والحرية» كما يقول مرة، «والمؤسسة على العدل السياسي» كما يقول مرة أخرى. وهي تنظيمات أو برنامج سياسي لا يختلف كثيراً عن برنامج رفاعة الذي أراد تحديد صلاحيات الحاكم وتقييدها بالقوانين.

يمهد خير الدين لحديثه عن «القوانين الضابطة» بالإشارة إلى استبداد الحكام بالتصرف المطلق في بعض الدول الإسلامية في أيامه، مؤكدا «أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان» وهو قول يستعيره خير الدين من ابن خلدون. وهو يستشهد على قوله هذا بأحداث التاريخ؛ فالدول الأوروبية كادت تضمحل عندما كان ملوكها مستبدون بالتصرف المطلق، وهي الآن مزدهرة بسبب تأسيس

تنظيماتها على العدل والحرية والمشورة، والدول الإسلامية كانت حسنة السيرة ترفل بالازدهار والسعادة عندما كان ولاة الأمر فيها يتقيدون بقوانين الشريعة في الأمور الدينية والدنيوية، وهي الآن تعاني مما كانت تعاني منه أوروبا قبل دخولها في دوحة العدل والحرية.

بعد هذا التمهيد ينتقل المفكر التونسي إلى الحديث عن وجوب المشورة، ويتوسع في معنى المشورة حتى تخاله وهو يتحدث عنها يتحدث عن الديموقراطية كما نفهمها اليوم. والواقع أن خير الدين كان يريد أن يقدم فكرة جديدة ومفهوما حديثا هو الديموقراطية من خلال مصطلح عربي معروف، محاولا بذلك تقريب المفهوم من أذهان مواطنيه. وهو لا يقف عند هذا الحد بل يحاول أن يؤكد سبق العرب والمسلمين إلى هذا المفهوم حيث جعلوه أصلا من أصول الدين. ويفصح خير الدين عن فكرته في أن المشورة هي الديموقراطية بكل أبعادها، من حرية قول وعمل وتمثيل، وإن اختلفت التسميات واختلفت الوسائل المؤدية إلى كل منها عندما يقول: «فقد نصب الأوروباويون المجالس وحرروا المطابع. فالمغيرون للمنكر في الأمة الإسلامية تتقيهم الملوك كما تتقي ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع. ومقصود الفريقين واحد، وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك». (١).

ويسوق خير الدين الأقوال ويشير إلى بعض الأفعال ليؤكد أصالة الديموقراطية عند العرب والمسلمين، ولا ينسى على وجه الخصوص قصة الخليفة عمر بن الخطاب عندما وقف في الناس خطيبا وطلب إليهم تقويم اعوجاجه إن كان فيه اعوجاج، فنهض أعرابي قائلا: «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا»، وقصة أبي مسلم الخولاني الذي قال لمعاوية الذي حبس عطاء الناس «إنه ليس من كدك، ولا من كد أبيك، ولا من كد أمك» فقال معاوية بعد أن سكن غضبه

---

(١) خير الدين التونسي ، مقدمة أقوم المسالك، ص ١٥٨.

«صدق أبو مسلم، إنه ليس من كدي ولا من كد أبي». ويخلص التونسي بعد سوقه عددا من الأمثلة إلى القول «إن خلفاء وملوك الإسلام يحبون الرد عليهم، ولو كانوا على المنابر» وذلك تأكيدا لعملهم بالتشاور وتبادل الرأي وقبول المعارضة.

وإذا كان التونسي يسوق هذه الأمثلة وغيرها من التاريخ الإسلامي، وإذا كان يتوسع في مفهوم المشورة ويجعلها مساوية للديموقراطية كما يجعل مجالس المشورة مساوية للمجالس المنتخبة فما ذلك إلا لأنه يريد الوصول إلى ضرورة تقييد السلطة بالقوانين، إذ لا بد للحكام «من وازع يقفون عنده، إماشرع سماوي وإما سياسة معقولة». وهو هنا يرجع إلى ابن خلدون الذي رأى أن الملك يقتضي التغلب والقهر وهما من آثار القوة الغضبية في الإنسان التي كثيرا ما تفضي إلى مجانبة الحق، ولهذا «وجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها، كما كان للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا تخلت الدولة عن مثل هذه السياسة لم يستقم أمرها، ولا يتم استيلاؤها. فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، كانت سياسة عقلية، وإذا كان فرضها من الله تعالى بشارع يقررها، كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا والآخرة.»(١).

ولما كان أهل الحكم على ثلاثة أنواع: حاكم عالم وعادل، وحاكم عالم وظالم، وحاكم جاهل وظالم، ولما كان وجود النوع الأول في الأقل القليل، «ولاسيما في هذا الزمان الذي قل فيه العرفان وكثر الطغيان، «كان من الضروري تقييد تصرفات الحكام بالقوانين والأنظمة حتى لو كانوا في عداد النوع الأول، وذلك لأن عواقب الاستبداد معروفة، ولأن «العمل بالرأي الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف». ولهذا فإن خير الدين يعقد فصلا خاصة بـ «عواقب الاستبداد والعمل بالرأي الواحد» يعطي فيه مثالا مطولا يقتبسه من

(١) قارن بـ مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة /د.ت/، الكتاب الأول، الباب الثالث، الفصل الخامس والعشرون، ص ١٩٠.

أحد المؤرخين الفرنسيين، وهو مثال نابليون الذي كان فريد عصره في أمور الدولة وقود الجيوش، ومع ذلك فقد ارتكب الغلطات الفاحشات، وهذا كله يؤكد «أنه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلاً وأوسعهم علماً. . .»(١).

ومهما يكن من أمر فان خير الدين الذي يرى أن الإستبداد والإنفراد بالسلطة لا يعودان إلا بالعواقب الوخيمة على صاحبهما وعلى الشعب على حد سواء، ويرى أنه لا يجوز بحال من الأحوال التخلي عن القوانين المنظمة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم بحجة أن الحاكم «له من الكمالات مالا يحتاج معه إلى المشاركة» أو إلى القوانين. وهو يستشهد هنا بقول أرسطو: «إن من الغلط الفادح أن تعوض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته». أما إذا كان الحاكم من نوع العالم الظالم، أو الجاهل الظالم، فإن القوانين هى التي تضمن خير المواطنين ومصلحتهم، وهنا يسوق خير الدين كلاما ل «ستيورات مل الإنكليزي: أن رفعة شأن الأمة الإنكليزية، بلغت الغاية في مدة الملك جورج الثالث، الذي كان مجنونا»، وهو يعلق على ذلك بأن مشاركة المسؤولين من الوزراء وتقييدهم بالقوانين المرعية هو الذي ضمن سلامة مسيرة المجتمع حتى في حالة جنون الملك.

ومع أن خير الدين قد عرف أنظمة الحكم الثلاثة التي تحدث عنها الطهطاوي وهى: الملكية المطلقة، والملكية المقيدة، والجمهورية، وهو يسميها «الملكية الإستبدادية، والدولة التي بيد الأعيان، والدولة الجمهورية» وفي بعض الأحيان يذكر المرادف الأجنبي من أجل مزيد من التوضيح فيقول: «إن الدولة إما أن تكون اوتوكراتيك أي استبدادية، وإما ان تكون أريستوكراتيك أي زمامها بيد الأعيان، أو ديموكراتيك أي امرها بيد العامة (الشعب)» ونقول مع أن خير

(١) خير الدين التونسي، مقدمة أقوم المسالك، ص ١٦٧ وما بعدها.

الدين قد عرف هذه الضروب الثلاثة من أنظمة الحكم فإنه يبدو أكثر ميلا إلى الملكية المقيدة ، أو «الدولة التي بيد الأعيان » كما يسميها ، وهـو ما يبـدو أن الطهطاوي قد فضله أيضا لأسباب تتعلق بطبيعة المرحلة التي كان يعيش فيها الرجلان نظرا للصلات التي كانت تربطهما بأهل الحكم ، ولقربها من التجربة الإسلامية في الحكم أكثر من الجمهورية التي جاءت نتيجـة تطورات سيـاسية واجتماعية واقتصادية في أوروبا ، والتي كانت لا تزال غريبة على أهل الشرق عموما ، ومنهم العرب.

إلا ان خير الدين التونسي لا يقف عند حدود المطالبة بالدولة الـدستوريـة وتقييد سلطة الحكام ، فتلك خطوة واحدة لا بد لها من خطوة أخرى ملازمة لها ، وهي حرية المواطنين حتى تتيسر مشاركتهم في أمور الدولة . وقد رأينا قبلا أن خير الدين الذي توسع في مفهوم المشورة وجعلها موازية للتجربة الديمقراطية ، يعطي أهمية كبرى لمشاركة أبناء الشعب ومعارضتهم للظلم وتقويمهم للاعوجاج ، وكان في هذا كله يستند إلى إيمان راسخ بأن أسباب العمران تتأسس «على دعامتي الحرية والعدل ».

وإذا كان مصطلح الحرية يقترن دائما بالعدل ويقترب منه ، وهو ما نجده عند الطهطاوي قبل التونسي ، فإن المهم هنا هو الاعتقاد بأن الحرية بمعناها السياسي ليست غريبة عن التجربة الإسلامية في الحكم ، إضافة إلى التوسع في استخدام مصطلح الحرية واعطائه أبعادا جديدة تقربه من مفهومنا الحديث له. فالتونسي ، كالطهطاوي ، يرى أن الحرية ملازمة للعدل ، وأنها على هذا الأساس أصل من أصول الشريعة . ومن هنا فانه يدخل مباشرة في الحديث عنها معرفا بها معددا أقسامها.

والحرية عنده تنقسم إلى قسمين رئيسين · الحرية الشخصية والحرية السياسية ، ويرد منها قسم ثالث هو حرية الرأي أو التعبير ، ويسميه خير الدين بحرية

المطبعة . أما الحرية الشخصية فهي « إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه ، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم ، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضيمه في ذاته ولا في سائر حقوقه ، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس . وبالجملة فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية» .

وأما الحرية السياسية فهي مشاركة المواطنين في سياسة الدولة وابداء الرأي فيما هو الأصلح لها « على نحو ما أشير إليه . بقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب : «من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه ، يعني انحرافا في سياسته للأمة وسيرته معها» . ولكن لما كانت الديموقراطية المباشرة كممارسة للحرية السياسية بالمعنى الذي أشار إليه الخليفة العربي غير ممكنة في هذه الأيام فقد استبدلت الديمقراطية المباشرة بديمقراطية تمثيلية تجسدها المجالس النيابية المنتخبة . فالفرق بين الحرية السياسية عند العرب والحرية السياسية كما عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر هو فرق يعود إلى اختلاف الأزمنة ، وإلى الحاجة إلى تقنين هذه الحرية وتنظيمها منعا للهرج وضمانا للضبط ، ذلك أنه «لما كان إعطاء الحرية بهذا المعنى (الديموقراطية المباشرة التي عبر عنها عمر بن الخطاب) لسائر الأهالي مظنّة لتشتيت الآراء وحصول الهرج عدل عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأوروبيين بمجلس نواب الأمة « وتسمى عندنا بأهل الحل والعقد[1]» .

فخير الدين الذي برز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي اطلع على الحياة السياسية في أوروبا ، وعايش التطورات السياسية التي رافقت الحرية ، والذي اطلع على أفكار مونتسكيو وروسو وغيرهما كما فعل الطهطاوي قبله ، والذي حمل لواء استعارة التجربة الأوروبية والاستفادة منها ، كان يريد إقناع

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٤

معاصريه وحملهم على الموافقة علي رأيه ولو بالتوسع قليلا في فهم التجربة الإسلامية . وإذا كان موقفه هذا يظهره وكأنه لا يفهم التجربة الأوروبية فهماً كاملاً وخصوصا عندما لا يعطي للانتخابات أهميتها الحقيقية فيساوي بين المجالس النيابية المنتخبة ومجالس أهل الحل والعقد معتبراً أن تغيير المنكر « فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين »، وبالتالي فإن مجموع الشعب معفى من القيام بدوره السياسي بسبب وجود من تعين للقيام بهذا الدور.

إلا أن هذه الصورة تتعدل عندما يدافع التونسي عن حرية الرأي وحرية التعبير تحت اسم « حرية المطبعة» . وهو يشرح هذا الضرب من ضروب الحرية قائلا : «هو ألا يمنع أحد منهم (الأهالي أو المواطنين) أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة ، أو يعرض ذلك على الدولة أو المجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها(٢) » أي على سياسة الدولة

فالتونسي عندما يتحدث عن «حرية المطبعة» يقترب كثيراً من فهم التجربة الديموقراطية ، مما يؤكد بأن توسعه في فهم التجربة الإسلامية في الحكم ، هو بقصد تقريب الصورة وتحريض مواطنيه على القبول بها . ولعله قد أراد متعمداً أن يظل ضمن حدود الأفكار المقبولة من معاصريه خشية أن يخسر تأييدهم ودعمهم للتجديد والتحديث والتقدم ، يؤيد ذلك أنه كان يجهد نفسه في البحث عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال والمواقف الإسلامية التي تدعم موقفه في التوفيق بين التجربتين الأوروبية والإسلامية في السياسة والحكم ، وفي تقريب التجربة الأوروبية لأذهان قرائه ومعاصريه كما لا حظنا.

ولا يغيب عن ذهن خير الدين أن الدول والمجتمعات تختلف في درجات حصولها على الحرية وتمتعها بها ، وفي تمكن الشعوب من معارضة سلطة الدولة ونفوذها . فهو يقول : «وفي هذا المقدار افترقت الممالك الأوروبية فمنهم من ناله

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

مع الأول فتمت له الحرية المطلقة ، ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التي لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها اعطاؤه من الحقوق » . والواقع أن درجات الحرية تتوقف على مدى اتحاد الشعب ومدى انتظام العلاقة بينه وبين السلطة الحاكمة ، فكلما كانت العلاقة سليمة زادت امكانية حصول الشعب على حريته حتى يمكنه الحصول على «تمام الحرية » . وخير الدين يعبر في موقفه هذا عما شاهده في كثير من الدول ، فهو ابن أمين للعصر الذي عاش فيه ، يعرف أن النظام الجمهوري يتيح حرية أوسع لمواطنيه « حيث إن جميع أبناء الأمة بواسطة وكلائهم يتداخلون في سائر تصرفات بلادهم بالاحتساب على سيرة الدولة»(١) إلا أن أكثر الأنظمة التي كانت سائدة في أوروبا كانت أنظمة ملكية ، أضف إلى ذلك أن هذه الأنظمة كانت أقرب إلى واقع الحال في الدول الشرقية عموماً، ومن هنا فقد كان النظام الذي يبدو أنه يستأثر باهتمامه ويحظى بتأييده هو الملكية الدستورية كما أشرنا.

إلا أن تفضيل التونسي للملكية الدستورية لا يجعله يقلل من أهمية الحرية ودورها والقبول بالقليل منها، فهي تبقى في نظره أساس ازدهار المجتمع «وقوام السعادة الدنيوية المربية للهمة الإنسانية » في كل المجتمعات . أما « الأمة الإسلامية » فيشهد لها التاريخ ويشهد لها المنصفون . إنها بحكم » ما بقي لها من تمدنها الأصلي ، وبعاداتها التي لم تزل مأثورة لها عن أسلافها. . . إذا أذكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل في أمور السياسة ، وذلك أن الحرية والهمة الإنسانيين، اللتين هما منشأ كل غريب غريزتان في أهل الإسلام مستمدتان مما تكسبه شريعتهم » . وهذا هو بيت القصيد ، إذ أن غرض خير

---

(١) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الباب الثالث، «في الكلام على انكلترة» الفصل السادس، في الحرية العامة، ص ٢١٠، والمقصود هنا طبعة الكتاب الأولى الكاملة بتونس سنة ١٨٦٧

الدين من الحديث عن الحرية ليس هو وصفها وتقديم تمجيد لها ، بل غرضه التأكيد بأنها جزء من الحياة في المجتمعات الإسلامية ، وبيان أن هذه المجتمعات كانت وما زالت مستعدة للأخذ بها وممارستها على أوسع وجه ممكن. فهو كرجل سياسة وفكر في آن واحد يريد أن ينقل إلى مواطنيه ، وبالأسلوب المناسب والصيغة اللازمة ، قناعته باتفاق القانونين الشرعي والوضعي في جوهر الأمور ، وان اختلفا في الظروف والمظاهر ، وهو يرى أن موضوع الحرية هو من أهم الموضوعات الجوهرية التي يتفق فيها القانونان.

فالتونسي كان راسخ الاعتقاد بأن المصالحة بين التجربتين الإسلامية والأوروبية ممكنة بل هي قائمة ، وأنه لا تعارض بين الشريعة الإسلامية وما تستنبطه عقول البشر من أجل إقامة حياتهم الدنيوية. فالشريعة لم تكن يوماً مجافية للعقل معارضة له ، ولا يمكن أن تكون كذلك . وإذا كان لا بد لانتظام أمور البشر من وازع يزعهم ومباديء توجههم ، فإن ذلك يكون عبر أحد مصدرين : « إما شرع سماوي وإما سياسة معقولة » . وهذه النتيجة التي يصل إليها خير الدين هي أبعد ما يمكن ان تصل إليه حدود المصالحة بين التجربتين ، وهي الدعامة القوية والقاعدة الأساسية التي يمكن أن يقوم عليها تأصيل الجمع بين الأصالة والمعاصرة ، ذلك الجمع الذي يجعل الحرية والديموقراطية والحياة الدستورية أصولاً إسلامية بمقدار ما هي منجزات غربية.

[٤] حضارة العلم وحتمية التطور

يرى خير الدين التونسي أن ثمة خللاً أصاب مسيرة الشعوب الإسلامية فتعطل دورها العمراني والحضاري ، وعندما يتساءل عن السبب باحثاً ومنقباً يجده في الظلم والاستبداد اللذين سادا المجتمعات الإسلامية بعد عصور الازدهار ، ومن هنا فإنه يقرر أن الظلم والاستبداد مقضيان لخراب العمران. وقد رأينا أن

خير الدين يستشهد بابن خلدون أكثر من مرة لتأكيد هذه الحقيقية، وهو يعود ليؤكدها بصيغ مختلفة كأن يقول إن العدل والحرية هما سببان أساسيان من أسباب التقدم والازدهار، وإن العمران لا يكون بدون الديموقراطية الشورية «وإن الحرية هي منشأ نطاق العرفان والتمدن».

وعندما يبحث خير الدين عن طريق النهوض، وعن امكان العودة إلى المسيرة العمرانية والحضارية، وعن تصحيح المسيرة، يجد أن ذلك لايكون إلا بتوفر الحرية والديموقراطية من جهة، وبوجود سلطة صالحة تعمل وفق القوانين المنظمة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم من جهة أخرى. وهو يشرح هذا ويبينه لمواطنيه ويشرح حجج المعارضين مفنداً، ويرد عليهم ويفرد الصفحات الطوال لعرض وجهة نظره هذه على الوجه الذي أشرنا إليه.

إلا أن خير الدين يرى أن هذا كله قد لا يفي بالغرض إذا لم يقترن بفهم واعٍ لمعنى التقدم والعمران، ولدور العلم والمعرفة في هذا التقدم وذلك العمران. فهو يعرف أن العلم وما يرتبط به من نتائج وما يترتب عليه من تطورات هو عماد التقدم وأساس التمدن والعمران في العصور الحديثة فلقد أتاحت الفترة التي قضاها التونسي في أوروبا له أن يضع يده على المفصل الرئيس الذي يميز المرحلة الحضارية الجديدة التي بدأت في أوروبا الغربية مع مطلع عصر النهضة. في أوروبا عرف التونسي مدى التقدم العلمي الذي أحرزه الغربيون، وفي أوروبا وقف على أحدث النتائج المترتبة على التطور العلمي ليس في ميدان الاختراع والصناعة فقط بل بانعكاس ذلك على كافة أوجه الحياة الإنسانية وفي كافة الميادين أيضاً.

والتونسي يعرف أن البشرية قد دخلت في مرحلة حديثة بدأت باتصال الأوروبيين بالشرق إذ «اطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين»، وأخذوا عن حضارات الشعوب المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة»، ولا سيما الحضارة العربية الإسلامية التي كانت صلة الوصل بين أوروبا وكل ما سبقها من

حضارات ، فبهذا «كان ابتداء التمدن عندهم ، ولا سيما في القرن الثالث عشر ، ثم تهذب حتى وصل إلى ما هو مشاهد اليوم . وانتهت إذ داك رئاسة العلوم والآداب والفلسفة»[١] إلى أوروبا والأوروبيين . وقد لاقى دلك كله ظروفاً وشروطاً ملائمة أدخلت البشرية في مرحلة جديدة من تاريخها.

ولأن التونسي يعرف العلاقة الوثيقة بين العلم والطور الجديد من أطوار التمدن ، فإنه يفرد ما يقرب من نصف مقدمته للحديث عن «المعارف والاختراعات» في أوروبا ، بدءاً من القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر، محاولاً أن يبين كيفية تشكل العقل الحديث ، وانعكاس ذلك على حياة الإنسان وسعادته ورفاهيته وتقدمه وقوته وعلى كل ميادين نشاطه ومجالاتها. ولا يترك صاحب أقوم المسالك عالماً أو مفكراً أو كاتباً أو فناناً أو رجل دين أو رجل سياسة ممن أسهم في التطور العلمي والفكري والديني والسياسي والفني والأدبي وغيره إلا ويذكره ويشير إلى ما أسهم فيه . فهو يشير أولا إلى حركة الإنسانيين من الشعراء والفنانين ، كما يشير إلى أركان الحركة العقلية ، وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الاختراعات والمكتشفات التي ساهمت في تطور الحركة العلمية والدفع بها إلى الأمام ، ومنها الطباعة وما ترتب عليها من توسع دائرة العلوم والمعارف حيث يقول : «ثم في القرن الخامس عشر ، وهو الوقت الذي لا ينسى لغرابة حوادثه ، اخترع غوتنبرغ (Gutenberg) من أهل ميانس (Meinz) بالمانيا طبع الكتب الذي حصل به تنمية مواد العلوم ، وسرعة انتشارها في أقطار الأرض ، ما يغني فيه العيان عن البيان».

ولا ينسى المؤلف أن يشير إلى ما عرف باسم الثورة الكوبرينيكية ، وإلى التطورات العلمية على يد غاليليو ، وإلى إسهامات كوبلر في علم الفلك ، وانعكاس ذلك على التفكير عموما ومناهج البحث في العلوم خصوصا ،

---

(١) خير الدين ، المقدمة ، «التمدن الأورباوي» ص٢٠٧ وما بعدها.

وإسهامات فرنسيس بيكون وغيره في هذا المجال . وهو يعرف أن غرب أوروبا هو مركز هذه الحركة العلمية الجديدة الواسعة . وقد عبر عن ذلك كله بأسلوب سهل نسبياً ، رغم ما كان يواجهه من صعوبات في نقل الأحداث والأسماء والمفاهيم إلى اللغة العربية . ففي ذكره لأحداث القرن الخامس عشر يقول : «وأما أهل شمال أوروبا فلم يشتهروا إلى ذلك الوقت بشيء من أعمال الفكر ، غير أن منهم من لا تنكر منّته على العرفان ، مثل كبرنيكوس (Copernicus) من أهل بولونيا ، المولود سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وألف ، وهو الذي حرر القول بأن الشمس في مركز العالم ، وأن الكواكب تدور حولها» . ويتابع التونسي حديثه عن الحركة العلمية وانجازاتها في ميدان الأبحاث الفلكية المتعلقة بالثورة الكوبرنيكية فيقول : «ومن حرر الدليل على تلك الدعوى ، بما يقرب من المشاهدة ، غاليليو (Galileo) الطلياني ، وأعانه على ذلك ما أخترعه مسيوس (Metius) من آلة البلور التي تكبر الأشياء فكانت مرآته تكبر الشيء مائة وستين مرة . . ثم تهذيب تلك الآلة حتى صارت تكبره من ألفين إلى ثلاثة آلاف وأكثر . . وبواسطة تلك الآلة اطلع غاليلو المذكور على كواكب لم تكن معهوده . . . » وهو يعرف أن ذلك انعكس على الفكر عموماً وعلى الأبحاث في المنهج خصوصاً ، وعلى الحركة الأدبية والفنية . وكان من نتائج ذلك مثلاً «أن أهل إيطاليا اغتنموا في ذلك الوقت شهرة بالآداب والصناعات المستظرفة المسماة عندهم بوزار (Beaux arts) وهي صناعة الدهن والنقش (= الرسم والنحت) وهندسة البناء والموسيقا ، وحصلوا على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة» . ويتابع التونسي تعداده للأحداث العلمية ولا ينسى « كوبلر الذي صرف المهجة الى علم الفلك ، حتى قيل له صاحب الأحكام » ، وهو يعني بذلك علم الفلك وما فيه من القوانين الفلكية والنظرة الجديدة إلى الكون ، وقد ساعد هذا كله على ظهور « فرنسيس بيكون (Bacon) ذي الفكر الوقاد والجد والاجتهاد وقد صحت تسمية تآليفه بآلة العلوم الجديدة» .

وهكذا يتابع المؤلف تسجيله لأحداث القرن السادس عشر ثم السابع عشر ويتحدث عن باسكال وديكارت وراسين وموليير ولافونتين وليبنتش Leilnitz واسهاماتهم الفكرية الواسعة ، ولا ينسى أن يؤكد ان ذلك كله حلقات في سلسلة واحدة ، وأن ما جاء به القرن السابع عشر كان ممهدا للقرن الثامن عشر حيث ظهر مفكرون كانت لهم اليد الطولى في قطف ثمار عصر النهضة ، والخروج بجهود القرون السابقة إلى نتائج جديدة . ومن أشهر هؤلاء عند التوسي «مونتسكيوالذي صرف الهمة إلى كتب السياسة ، وأبانت تصانيفه عن غاية معرفته بها ، وكفى شاهداً على ذلك ما كتبه في السبب الذي كبرت به الدول الرومانية وتعاظمت ، والذي سقطت به وانقرضت ، وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة ، وكتابه الآخر المسمى بحكمة القوانين (=روح القوانين) الذي بيّن فيه الحقوق الإنسانية ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام . . ثم قسم حال الدول إلى ثلاثة أقسام : الأول الدولة الوراثية‌إ مطلقة التصرف بلا قيد ، الثاني الدولة الوراثية كذلك المقيدة بالقوانين ، الثالث الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين أيضاً . . » وهو يشرح هذا كله ويهتم بشكل خاص بالنمط الأخير ، أي الجمهورية ، فيشرح أحوالها . . وهذا كله يدل على معرفة خير الدين الدقيقة بالتطورات الفكرية . ويظهر أنه قرأ الكثير من الكتب أو على الأقل قرأ عن هذه الكتب وعرف مضامينها.

وإذا كان التونسي قد اهتم بمونتسكيو فلأنه كان أحد مصادر فكره السياسي إلى جانب فولتير وجان جاك روسو وهو يسميهما « ولتير» و « جانجاك روصو » ، ويقول عنهما إنهما «الكاتبان المجيدان اللذان أنشآ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف » . ولا ينسى آدم سميث وهيوم وبنجامين فرانكلن وعشرات غيرهم من المفكرين والمخترعين أمثال « جيمس واط ، وهذا الأخير هو الذي اخترع الكيفية العجيبة في الانتفاع بالآلة البخارية » ويتحدث عن نتائج اختراع الآلة البخارية على الصناعة والتجارة واقتصاد أوروبا عموماً » وكل ذلك

بمعونة الآلات المذكورة . وقد كبرت بلدانها الصغيرة (أي بلدان أوروبا بسبب دخول الاقتصاد في آفاق جديدة . ويدلل على ذلك كله بإعطاء الأمثلة وذكر الإحصاءات وتسجيل البيانات ، مقدماً بذلك تقريراً مفصلاً عن أحوال أوروبا وعن الأحداث والتطورات التي صاغت العقل الحديث.

ويربط التونسي بين التطورات الفكرية وظهور المكتشفات والمخترعات ، كما يربط بين التطور العلمي وتقدم التكنولوجيا ، فيقدم الأمثلة الكثيرة ولا يكتفي بتسجيل الأحداث الكبيرة ، بل يدخل في التفاصيل فيتحدث عن تاريخ الصناعة وعن أول فبريكه (= مصنع) للقطن في إنكلترا وفرنسا ، وعن صناعة الحديد والصلب وصناعة الحرير ، وعن اكتشاف طرق حديثة لتعليم الصم والبكم ، ويهتم اهتماماً خاصاً بالآلة البخارية : بداياتها وتطوراتها ودخولها إلى الأساطيل التجارية والحربية . كما يهتم باكتشاف البالون المرتفع في الهواء وهو المنطاد ، وباكتشاف الآلات التي «تعمل بدون واسطة اليد ، وهذه الآلات أورثت تبدلاً كبيراً في أمر » الصناعة . كما يذكر تعميم الإضاءة بالغاز ، وظهور القطارات الحديدية ، واختراع التلغراف ، ثم التصوير الفوتوغرافي . ويردف ذلك كله بحديث مطول عن نظم التعليم في أوروبا وفي فرنسا على وجه الخصوص ، وعن أقسام التعليم ومناهجه ، وعن المعاهد العلمية المتخصصة والجامعات أو «المكاتب العالية» و «الاكدميات » وهي جمع «اكدمية » أو الأكاديمية Academie كما نقول اليوم.

ويشير التونسي إلى كتاب رفاعة عن رحلته الباريسية ويحيل القارىء إليه لمعرفة المزيد عن علوم أوروبا وعلاقة العلوم بالتمدن والعمران ، فقد كشف رفاعة في هذا الكتاب «الغطاء عن تدبير الأمة الفرنساوية التي رفعت راية التمدن ، وأجاد في ذلك وأفاد».

ولا ينسى أن يتحدث بشيء من التفصيل ، عن خزائن الكتب الموجودة في أوروبا وعلاقة هذه المكتبات بتسهيل العلم والمعرفة وتوسيع دائرتها ، وفي هذا

يقول : «ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان ، الذي هو أساس التمدن والتهذيب لنوع الإنسان ، كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون ، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق ، كما يتضح ذلك بالتفصيل الآتي » . حيث يقدم إحصاءات تفصيلية عن أعداد المجلدات الموجودة في المكتبات الأوروبية المختلفة ، ويقسم أعداد الكتب على أعداد المواطنين ليرى نسبة الكتب والأفراد في كل دولة على حدة على الوجه التالي «يوجد في النمسه مليونان وأربعمائة وثمانية وثمانون مجلدا ، وبالنسبة للأهالي يكون لكل نفس ستة مجلدات وتسعة اعشار المجلد » .

ويرد خير الدين التفاوت في أعداد كتب المكتبات في الدول الاوروبية إلى درجة الحرية المتوفرة في هذه الدولة أو تلك فـ «بهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد المعارف يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك » . ولا شك في أن هذا المعيار الذي يصفه خير الدين يدل دلالة قاطعة على مدى تأصل فكرة العلاقة بين الحرية وانتشار المعرفة من جهة ، والعلاقة بين العلم والعمران من جهة أخرى عنده . وهو لا يخفي إعجابه الشديد بضخامة المكتبات وحسن إدارتها وتعدد أقسامها ، كما لا يخفي رغبته الشديدة في أن تتمكن الدول العربية الإسلامية من اقتفاء أثر أوروبا في هذا الميدان كما في غيره .

ويشير التونسي إلى اهتمام الأوروبيين بالمخترعين والعلماء وإعطائهم الميداليات والأوسمة وتسجيل الإختراعات بإسمهم وتقديم المكافآت المادية والمعنوية كالتنويه بجهودهم والثناء عليهم في الصحف والمؤلفات ، ومنع سرقة حقوقهم ، ويؤكد أن ذلك كله «من أسباب تقدمهم » . ويعّرج على حقوق التأليف ويعدد موجباتها ونتائجها ، ويشير إلى أن من مظاهر عناية الأوروبيين بالمؤلفين والكتاب والمفكرين ، تشييد النصب التذكارية لهم ، وإقامة التماثيل ، وإطلاق أسمائهم على الشوارع والساحات ونحو ذلك ليكون ذلك مشجعاً لغيرهم .

ولأن أهل أوروبا يهتمون بالعلم والمعرفة والاختراعات والاكتشافات فقد اجتنوا الكثير من اهتمامهم هذا بالعلم وعنايتهم به ، فراجت تجارتهم ، وكثرت طرق مواصلاتهم ، وتطورت صناعاتهم وكثرت رؤوس أموالهم ، وبالجملة ازدهر اقتصادهم ، وتعددت أسباب سعادتهم . ولكن كما أن الحياة الدستورية والعدالة والحرية لا بد لها من العلم والمعرفة لتحقيق التقدم وضمان الازدهار ، فإن العلم لا يقوم بدون الحرية والعدالة وتقييد سلطة الحكام بالقوانين ، وكذلك العمران فإنه لا يتحقق إلا بها ، وفي هذا يقول التونسي : «وقد رأينا بالمشاهدة أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران » والتي حظيت بمستويات عالية من العلم والمعرفة «هى التي تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون (= Constitu-tion) المرادف للتنظيمات السياسية ، فاجتنى أهلها ثمارها بصرف الهمم إلى مصالح دنياهم المشار إلى بعضها(١).

وإذا كان هذا حال أوروبا اليوم ، فإن العرب كان لهم قصب السبق في كل أسباب التقدم والتمدن من العلم والمعرفة إلى العناية بالعلماء إلى الحرية والعدالة إلى تقييد الولاة والحكام بالشرائع والقوانين إلى غير ذلك ، وخير الدين يؤكد على هذه الأمور لأنه يريد أن يقول إن النهوض ممكن للعرب ، فإذا كانوا قد نهضوا في الماضي فما الذي يمنع من أن ينهضوا اليوم ، كل ما يحتاجونه هو الشروط التي ذكرها والتي أسهب في الحديث عنها ، ولم يمل من تكرارها ليجعلها راسخة في العقول.

ولأن خير الدين يريد أن يؤكدا على إمكانية النهوض في المستقبل فإنه يفصل الحديث عن الماضي مستنهضا الهمم ، وهو يشير ألى المركب الثقافي الذي استحدثه العرب على الوجه الذي أشرنا إليه في الفصل الرابع من هذا الكتاب . فهو يبين أن العرب بدأوا بدينهم الجديد ملتزمين بالأصول محترمين للعدل والحرية

---

(١) التونسي المقدمة «مطلب اهم ما اجتناه الأوروباويون من روحة الحرية » ص٢٤٦

لا يملكون إلا اللغة والشعر والأدب حيث «لم يكن للعرب في أول الأمر ، إلا تلك الآداب ، ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات ، واختلطوا بالأمم التي سبقتهم في الحضارة، اتسع لهم نطاق المعارف » فعرفوا فلسفة اليونـان وعلومهم واهتموا بالفلك ، حيث شرح العرب كتاب أقليدس ، وهذبوا زيج بطليموس ، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج « وساهموا وأضافوا واخترعوا » إلى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية للعلوم الرياضية « وغيرها » فقد اشتهر العرب أيضا بمعرفة الطب ، الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان». ويعدد خير الدين مآثرهم في هذا ، ثم ينتقل إلى علم التاريخ ، وإلى « صناعة الأرشتكتور » وهو يشرحها على أنها هندسة البناء ، ويتحدث عن تأثرهم بغيرهم من الفنون والآداب والتجارة ، وعن تأثيرهم في غيرهم في كافة ميادين الحضـارة ، ويلخص أعمالهم مبـادراً بالقول «فهاك برنامج إجمالي للتمدن الذي نشره العرب » في العالم الوسيط ، ثم يعرض لمآثرهم ويستشهد بكبار الكتاب الأوروبيين الذين أشادوا بفضل العرب وتقدمهم وأنهم أمة «رفعت على منار الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض ، أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون الوسطى»(١)».

ويعد التفصيل في دور العرب وفي إفادتهم من مكتسبات غيرهم في صنع ثقافة جديدة وعمران جديد ومدنية زاهرة ينتهي إلى فصل قصير تحت عنوان «مطلب أسباب أخذ الأمة في التراجع» يذكر فيه انقسام الدولة العربية إلى ثلاث دول : العباسية ببغداد والمشرق ، والفاطمية في مصر وافريقية ، والأموية في الأندلس ، مؤكدا أن هذا الانقسام إضافة إلى الحروب الداخلية والتخلي عن الأصول التي لايزدهر العمران بدونها من العدل والحرية وإنحسار نطاق العلم والمعرفة وعدم تقيد الحكام والولاة بالأصول والقوانين ، وعدم التزامهم بمصلحة المواطنين . . . كل ذلك كان من أسباب التراجع التي ما زلنا نشهدها حتى اليوم .

---

(١) يمكن العودة إلى ما كتبناه في دراستنا عن خير الدين : خير الدين التونسي وكتابه ، مرجع مذكور سابقا ، ص ٨٦ وما بعدها .

كان خير الدين يعي طبيعة المهمة التي تصدى لها ، فهو حين يحاول أن يقدم لمعاصريه فكرا يفلسف زمنه ، لا يفعل ذلك دون هدف كان يؤرقه ، وهذا الهدف يتلخص في الخروج من التخلف والدخول في التقدم ، لهذا فهو يبذل قصارى جهده لحث مواطنيه على الانخراط والمشاركة في محاولة تحقيق الهدف ، وهو يشجعهم بتأكيد أن ما تحقق في الماضي يمكن أن يتحقق في المستقبل . وبالإصرار على أن ما يجري في أوروبا هو عين ما كان عندنا ، وأن الاختلافات الظاهرية تعود إلى اختلاف الزمان والمكان ليس إلا .

وضع التونسي في مقدمته خلاصة موقفه وجملة الأفكار والآراء التي تشكل مجمل رؤيته للماضي والحاضر والمستقبل، أما الكتاب فهو عبارة عن سجل إجمالي لما يمكن أن نسميه : أدق تقرير قدمه مفكر مسلم حول تقدم المدنية الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، انطلاقا من إيمانه بضرورة الأخذ بها . ويظهر هذا الإيمان في النداء الذي لا ينفك يكرره ، والذي يتلخص في حتمية التطور وتبدل الأزمنة وضرورة الأخذ عن أوروبا ومراعاة أحوال الوقت . وهنا يظهر خير الدين على حقيقته كأحد أبرز ممثلي المدرسة الفكرية المستنيرة والداعية بأحكام الضرورة التاريخية .(١).

وإذا كان موقف خير الدين القائل بأن المطابقة بين الشريعة وعلوم الغرب أمر ممكن، «وإن الشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران. . » يمكن أن يعتبر دليلاً كافياً على انتساب خير الدين إلى المدرسة المستنيرة هذه، إلا أن تأسيسه أفكاره على إدراك عميق لعصره، واستشراف للمستقبل من خلال رؤية علمية دقيقة بالإضافة إلى إدراكه لصيرورة تواريخ الشعوب والأمم، تجعله يتميز من بين أقرانه في المدرسة الفكرية المستنيرة بوعي عميق للتاريخ وأحكامه وحتميته. ومما يؤكد هذا قول خير الدين في طيات كتابه مايلي: «سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه، أن التمدن الأورباوي

---

(١) المرجع السابق ، ص١٧٣ وما بعدها.

تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذ حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق». وإذا كان خير الدين ينسب هذا الكلام إلى بعض أعيان أوروبا، فإن ذلك لا يقلل من إدراك خيرالدين لمغزاه العميق، والواقع أن هذه العبارة تمثل قناعة المفكر التونسي التي يمكن تلمسها في كل صفحة من صفحات المقدمة والكتاب.

ويرى خير الدين أن التمدن الأورباوي هو أبعد ما توصلت إليه الأمم والإنسانية جمعاء فلا بد إذا من الإفادة من نتائج هذه المدنية والأخذ بها، وهذه الحقيقة الثابتة والمرّة ينبغي النظر إليها بمعزل عن أغراض السياسة الأوروبية المؤقتة. فدسائس السياسة الأوروبية ليست بخافية عليه، وقد أفرد لجامعي الضرائب والذين كانوا يبالغون في الضرائب ويجمعونها صفحات من مقدمة كتابه، كما أفرد فقرة للحديث عن معارضة بعض الحكومات الأوروبية لتنفيذ العمل بالتنظيمات بتحريض رعاياها على عدم الخضوع للقوانين المستحدثة والترويج بأن المسلمين قاصرون على تقبل مضامين التنظيمات الجديدة. فبالرغم من ذلك وبالرغم من التعارض بين مصالح الشرق ومصالح الغرب فإن التمدن الأوروبي قد أصبح قوة تدفق سيلها في الأرض، ومن المحتم على الأمم الأخذ بها... وكلما أسرعنا في ذلك، كانت النتائج أضمن والقواعد أعم وأشمل.

إلا أن التمدن الأوروبي يحمل في جنباته الخطر، وخاصة على الدول والممالك المجاورة له من جهة، والدول والممالك الصغيرة من جهة أخرى. وخير الدين يعرف ذلك تماماً كما يعرف قوة الدول الأوروبية واحدة واحدة ويعرف قوتها مجتمعة، ولهذا يفرد باباً للحديث عن كل دولة، ويفرد فصلاً في كل باب للحديث عن قوة هذه الدولة العسكرية البرية والبحرية. كما يضع في الختام باباً ضمنه الحديث عن قوة أوروبا المالية والعسكرية مجتمعة... ولكن رغم ذلك كله ثمة أمل للشعوب والأمم المستضعفة التي لا تتجاهل نتائج التمدن الأوروبي وخطره. فالخطر الأوروبي يزداد عند الجهل به وتجاهله، ويخف عند إدراكه الخطر، والعمل

بوحيها إنما ينبع من الاعتقاد بأن إعلان الإصلاح وتأسيس القوانين المستجدة التي تصلح البنية الإدارية والسياسية والعسكرية وغيرها سيجعل إمكانية التدخل الأوروبي أضعف ونتائجه أقل وأخف.

لم يكن خير الدين وحيدا في إدراكه للخطر الأوروبي، إلا أنه تميز بإدراكه للصيرورة التاريخية وبالنتائج الضرورية التي حتمتها مدنية الغرب وقوته وعلمه. من هنا كان خير الدين متميزا بفهمه واستيعابه لدروس التاريخ حول انحطاط الدول ونهوضها. وعلى النقيض من الاتجاه السلفي الذي يؤكد على الذات بالعودة إلى الماضي، فإن الاتجاه الداعي إلى الإفادة من تمدن الغرب، وخير الدين أحد أبرز ممثلي هذا الاتجاه، يرى أن تأكيد الذات إنما يتم عبر تجددها ومراعاتها للتنظيمات الدنيوية والسعي باتجاهها. فالأخذ بالتمدن الأوروبي خير ضمان لاتقاء خطره، هذا الخطر كان هاجس خير الدين الأول الذي كان يعايشه ويكابده طيلة حياته السياسية

[٥] تنويعات على نغم واحد:

وضع كل من الطهطاوي والتونسي معالم مشروع نهضوي، وقد جاءت منطلقات مشروعيهما متقاربة. أما الأول فهو بحق الرائد الأول الذي ارتبطت باسمه بداية الفكر العربي الحديث، فقد استطاع أن يضع يده مباشرة على مفصل المشكلة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن يدركها إدراكاً واعياً رابطاً بينها وبين المشكلة التربوية والعلمية والمعرفية والحضارية عموماً. وقد تميز الطهطاوي بأنه المعلم الذي وجد أن الحل التربوي هو طريق الحل السياسي، وبالتالي طريق الحل النهضوي الشامل، فهو من جهة طريق الخروج من التخلف، وهو من جهة أخرى طريق الدخول في الحداثة. أما الثاني فقد أمسك بالمشكلة أيضا مع تركيز أكثر على الإصلاح السياسي كحل ومخرج لما كانت تعانيه المجتمعات الإسلامية عامة والعربية خاصة. ولعل سبب الاختلاف في التشديد على الحل التربوي أو الحل السياسي بين الرجلين يعود إلى طبيعة دور كل منهما في المجتمع. فقد كان الطهطاوي مربيا بالدرجة الأولى، وكان التونسي سياسيا قبل كل شيء.

واعتبرها مشكلة خطيرة تشير إلى الابتعاد عن الأصالة، وتؤكد واقع التبعية المتمثل بتقديس الجديد القادم من الغرب، وتتفيه، أو تحقير العادات والتقاليد الإسلامية والشرقية. وهو يرى أن هذا التقليد هو ضرب من الخيانة للأصول من جهة، وباب لخيانة أخرى هي التبعية والشعور بالنقص، وهو باب للانحلال بكل أشكاله، ولا سيما الانحلال الخلقي والسياسي، وهو يحاول عن طريق التحريض السياسي، الثورة على واقع الذل هذا، والعودة إلى أصالة الآباء والأجداد، وتأكيد قدرة عقول الشعوب الإسلامية، ولاسيما العقل العربي على الإبداع والابتكار كما تؤكد أحداث الماضي.

كان الأفغاني يؤمن بـ «أن مجموعة من الأمراض السياسية قد أصابت العرب والشعوب الإسلامية، ومن هذه الأمراض التخلف والجهل والوهم والجبن السياسي، والحل كامن في العودة إلى الإيمان، وبعث الهمم الإسلامية للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». فالمشكلة سياسية أولاً وأيديولوجية ثانياً، ذلك أن مناوأة الغرب للشعوب الإسلامية ولقوميات العالم الإسلامي هي مناوأة سياسيّة ولكنها في نفس الوقت ذات أبعاد فكرية وأيديولوجية، «ولذلك تصدى الأفغاني للتيارات الفكرية المناهضة للعقائد الدينية بعامة، وللعقيدة الإسلامية على وجه الخصوص. وكان تصديه هذا تصدياً أيديولوجياً أولاً وآخراً، وبذلك بدأ الأفغاني بمعالجة البنية الأيديولوجية الإسلامية من ناحيتين: الأولى مدى تميزها عبر خصائصها الإيجابية، والثانية مدى تضمنها للحلول الفكرية للمشكلات التي طرحها الفكر غير الديني»(١).

صحيح أن الأفغاني تميز بفكر ثوري، وبالقدرة على تعبئة الجماهير وتحريضها وبشخصية قوية أثرت في المفكرين المصلحين وأخافت السياسيين التقليدين، إلا أن دوره ظل محصورا في الإطار السياسي قبل غيره ولم يتعدّه إلى ما هو أبعد منه، أي في حدود ضيقة لا تضعه في مستوى الطهطاوي والتونسي صاحبيّ المشروع

---

(١) قارن بـ جميل منيمنة: المشكلة السياسية في الفكر الإسلامي الحديث، اطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، مخطوط، ١٩٨٥

النهضوي المتكامل. ومع هذا فإننا نقول إن الضغط المتزايد من الغرب على الشرق هو الذي جعل الأفغاني يهتم بالسياسة قبل غيرها، وهو الذي دفعه إلى العمل على إصلاح الدين لما في ذلك من قوة مواجهة سياسية ونضالية.

أما محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) فلم يخرج عن الإطار العام لفكر جمال الدين الأفغاني، إلا أنه أغناه ووسعه وقدمه في صورة متكاملة، مع تركيز على الإصلاح الديني أكثر من العمل السياسي، واختلاف في وسائل العمل ولا سيما بعد فشل الثورة العرابية التي كانت محط آمال الأفغاني وعبده على حد سواء.

يهتم محمد عبده أكثر ما يهتم بإصلاح الدين، وهو ما كان الأفغاني قد أخذ به، إلا أن محمد عبده، المصري والعربي يربط هذا الإصلاح بإطاره المجتمعي المحدد، وهو الإطار العربي عامة والمصري على وجه الخصوص. ففي حين كان الإطار المجتمعي عند الأفغاني غير محدد ومهتزا، فإننا نجده واضح الصورة والمعالم عند محمد عبده الذي كان بمثابة تلميذ للأفغاني. وبالإضافة إلى الإطار المجتمعي المحدد فإن للإصلاح الديني عند محمد عبده إطارا اجتماعيا أكثر تحديدا، وهو غالبية الشعب المصري من الفلاحين بوجه خاص، وهي الفئة الاجتماعية الواسعة التي خرج منها محمد عبده وظل ملتزما بمصلحتها الاجتماعية في كل نشاطاته ومنها مجاله الأوسع وهو الإصلاح الديني. ولعل هذا الالتزام هو الذي وضع محمد عبده في موقف معاد لمحمد علي الذي اهتم بالدولة على حساب المواطن المصري عموماً والفلاح المصري بوجه خاص.

ولد محمد عبده وعاش في فترة بدأ فيها الاستعمار بتوجيه الضربات المتتالية لبرنامج الاستقلال والبناء والنهوض الذي وضعه محمد علي وقد عايش محمد عبده هذه الأحداث التي انتهت بدخول الإنكليز إلى مصر والبدء العملي بتصفية تركة محمد علي، وافراغ مصر من كل مكتسبات عصره بعد أن كان الاستعمار قد أريك كل المسيرة التحديثية قبل ذلك بعدة عقود. لهذا كان من المنطقي والطبيعي ان تحتل المسألة السياسية مكانا أساسيا في فكر محمد عبده ونشاطه، ومن هنا بداية التوافق بين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني الذي كان سياسيا أولاً وأخيراً، وقد

قال: «أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة.. ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس» (١).

ولكن، ومع أن محاولة الإصلاح عند محمد عبده كانت شاملة وبرغم التزامه بالوطن وجماهيره فإن مثاليته من جهة، ومحاولته جمع المتناقصات من جهة أخرى، هما ما أوصله إلى إحباطات متعددة قادته إلى أن يقول في السياسة ما قال، فقد جاءت رؤيته العامة وجاء موقفه الفكري أقل تماسكا وقوة من موقف الطهطاوي والتونسي، وقد يكون لرؤية محمد عبده ولموقفه ما يبررهما، إلا أننا لا نبحث هنا في الأسباب بقدر بحثنا في النتائج، يبقى أنه من الضروري أن ننبه هنا إلى أن هذا لا يقلل من قيمة إسهامات محمد عبده وجهوده ودوره، فقد كان بحق أحد كبار رجال الإصلاح في القرن الماضي، وقد تصدى لمهمة من أصعب المهمات هي مهمة الإصلاح الديني.

وآخر من نذكره من رواد الإصلاح في القرن الماضي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢)، الذي اهتم بموضوع أساسي كان خير الدين التوسي قد اهتم به اهتماماً ملحوظاً، وكان رفاعة الطهطاوي قد لامسه ولكن دون توسع، وهو موضوع الاستبداد. فقد رأى الكواكبي أن العلة الأولى في تخلف المسلمين عموما والعرب خصوصا تكمن في الاستبداد الذي استشرى تدريجيا بعد عصور الازدهار العربي التي تميزت بالعدل والإنصاف والمشاركة والشورى. ويمكن القول، إن الكواكبي قدم من خلال تحديده لطبيعة الاستبداد نظرية متكاملة شملت السياسة والاجتماع والتربية وكافة مجالات الحياة في المجتمع، فالاستبداد السياسي يترادف عنده مع ضروب أخرى من الاستبداد، ومنها الاستبداد الديني والاقتصادي والثقافي. والاستبداد عنده يعني التخلف والقصور، لأن الاستبداد لا يسمح بقيام المؤسسات السياسية بمهامها الأساسية، وإذا سمح بقيامها ببعض مهامها، فإنما يسمح به بشكل غير صحيح وغير متكامل، من هنا كان الاستبداد

(١) عباس محمود العقاد: عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ محمد عبده، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة أعلام العرب، مكتبة مصر، [د.ت] ص١٥٨

صنو التخلف. وسواء أكان الاستبداد فرديا أم جماعيا فإنه ينعكس بشكل سلبي على شتى شؤون الحياة العامة، بينما تنعم المجتمعات الحرة بالعدل والتساوي والازدهار في ظل حكم يهدف إلى القيام والنهوض بالأمة فردا وجماعة في شتى الحقول، وهمّه في ذلك بقاء الأمة لا ديمومة النظام.(١)

ولأن الكواكبي يرى أن في الاستبداد علة الفتور والتخلف وكل الشرور التي وصل إليها المجتمع العربي، فإنه يفيض في معالجته، ويفرد له أحد كتابيه الأساسيين طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد(٢) وفيه يعرض لتعريف الاستبداد أولا، متسائلاً عن ماهية الاستبداد، مؤكدا أنه المشكلة السياسية الأولى، لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ارتباط كافة مجالات الحياة العامة بعضها مع بعض وعلاقة الاستبداد بها، وهو يحدد هذه المجالات الرئيسة على أنها: الدين، والعلم، والمجد، والمال، والأخلاق، والتربية والترقي، وهو يقصد بالترقي التقدم والنهوض ومواكبة المسيرة الحضارية. ولا يقف الكواكبي عند حد وصف المشكلة وفق منهج علمي بل يحاول تقديم الحلول لهذه المشكلة محددا الطرق التي يمكن بواسطتها التخلص من الاستبداد على أنواعه المختلفة، مشيرا إلى أنه لا يكفي أن نتخلص من الاستبداد، وأنه لابد لنا من البديل الذي تشارك الأمة في صنعه.

والكواكبي الذي يهدف إلى الفحص عن البنية التنظيمية للمجتمع العربي تمهيدا لإصلاحها يطرح جملة تساؤلات هامة تدل على شمولية نظرته مثل: ماهي الحكومة؟ ماهي الأمة أي الشعب؟ ماهي الحقوق العامة؟ كيف توضع القوانين؟ وكيف يمكن الترقي في العلوم والمعارف؟ وكيف يتم السعي في العمران؟ وغيرها كثير، إلا أن حياة الكواكبي القصيرة التي انتهت بالاغتيال على يد السلطات العثمانية لم تمكنه من التوسع في عرض رؤيته المتكاملة وعرض مشروعه المتقدم،

---

(١) قارن بـ حيل منيمنة، المشكلة السياسية، مرجع مذكور سابقا، ص٢٨٩ ومابعدها.

(٢) عبدالرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥

ولهذا نقول إن الكواكبي لم يكن مفكراً قومياً بمعنى الكلمة، وإنه أقرب ما يكون إلى الحلقة الوسطى، يجمع بين مرحلتين، المرحلة التي بدأها الطهطاوي والتونسي، والتي تمثل البنية الأساسية للفكر العربي الحديث، والتي أضاف إليها الشدياق والأفغاني ومحمد عبده وغيرهم، ومرحلة ظهور الفكر القومي ودخول الفكر العربي الحديث في طور جديد من أطواره.

فالواقع أن مرحلة بداية الفكر العربي الحديث والتي ظهرت في الربعين الثاني والثالث من القرن الماضي، وامتدت إلى الربع الأخير منه تداخلت مع مرحلة ثانية وهي مرحلة الفكر القومي التي اكتسبت معالمها المميزة في النصف الأول من القرن العشرين، وإن كانت بداياتها الأولى تعود إلى الربع الأخير من القرن الماضي. والأهم من هذا أن المرحلة الأولى والتي من خلال رائديها الأولين الطهطاوي والتونسي، كانت بمثابة الأساس الذي قامت عليه المرحلة الثانية، مرحلة الفكر القومي. فلم يكن للفكر القومي أن يظهر لولا تلك الأسس.. على كل حال فإن المرحلة الثانية من مراحل الفكر العربي الحديث تحمل الكثير من خصائص المرحلة الأولى، وإن كانت قد تجاوزتها في مضيها على طريق التحديث، واقترابها من معالم العصر، إلا أن هذا بحث مستقل.



خـاتـمة

دخلت البشرية منذ مطلع عصر النهضة الأوروبية في مرحلة حضارية جديدة، بدأ ذلـك بتوفـر شروط مـلائمة لتـراكم انجازات ومكتسبـات المرحلة الحضـارية السابقة، فحدثت قفزة نوعية في مسيرة البشرية الحضارية، بدأت بـالنهضة أو عصـر الأنوار الأوروبي، وتسـارعت خـطواتهـا بعـد ذلـك عـلى طـريق العلم والتكنولوجيا.

في القرن الثامن عشر تم احتكاك العرب مع أوروبا الناهضة والقوية من خلال احتكاك الدولة العثمانية معها، ومع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وقع الاحتكاك المباشر بين العرب وأوروبا الجديدة، فكان ذلك بمثابة صدمة حضارية كبرى أصيب بها العرب، إلا أنهم سرعان ما أدركوا أنه لابد لهم من الاقتباس عن أوروبا ـ في الميدان العسكري على الأقل ـ حتى يحوزوا قوة مماثلة للقوة الاوروبية.

كانت بداية علاقة العرب مع التحديث عسكرية بالدرجـة الأولى، إلا أن تحديث الجيش لم يكن ليتم دون تحديث جميع مؤسسات الدولة ومـرافق الحياة فيها. وقد شهد القرن التاسع عشر عدة محاولات عربية لتحديث الجيش قادت إلى تحديث تناول أكثر وجوه الحياة الاجتماعية، وكان من أكبر تلك المحاولات وأبعدها أثرا محاولة محمد علي في مصر. والواقع أن التجربة المصرية في ميدان التحديث هي التي أوحت بمحاولات تحديثية أخـرى كانت أقـل منها حـظا في النجاح والبقاء.

في هذه الفترة ظهر رواد تحديث كان لهم الدور الكبير في تأصيل الفكر العربي الحديث، كان أهمهم وأشهرهم دون منازع رفاعة رافع الطهطاوي وخيرالدين التونسي، ويمكن القول إن الرجلين قد صاغا مشروعا نهضويا متكاملا، وإن من

أجله مشاريع النهوض، ودون العناية به وهو الأداة التي لا يتحقق المشروع إلا بها وعبرها؟ هذا ما يؤكده نجاح العرب في تجربتهم الأولى وسقوطهم في تجاربهم الحديثة.

وهل يمكن نجاح المشروع التحديثي إذا لم يكن مشروعا قومياً ووحدوياً؟ لقد وضع مشروع محمد علي التحديثي على طريق الفشل والسقوط عندما حصر هذا المشروع في اطار مصر وحدها. وكل المشاريع التحديثية العربية القطرية هي مشاريع محدودة الأفق والنتائج لأنها مشاريع لا تملك القوة اللازمة لاختراق الحلقة المفرغة.

وهل يمكن نجاح المشروع النهضوي إذا لم يكن مشروعاً نضالياً، يقتبس عن الغرب ويواجه الغرب في آن واحد؟ وهل يمكن افراغ المشروع التحديثي من أبعاده السياسية؟ وهل يمكن التحديث في ظل القمع والإرهاب؟ ألم تبيّن تجربة محمد علي أنها عندما طوقت من الخارج لم تعد تملك مقومات الصمود، لأنها لم تجد القوى الداخلية الشعبية الواسعة التي تشعر أن التحديث هو من أجلها أولا وأخيرا؟ ألم يوضح التونسي بما لا يقبل الخلاف أن الاستبداد من أسباب تخلف العرب، وأن النهوض لا يكون إلا مع الحرية؟ ألم يقنعنا الكواكبي أن التخلف ملازم للاستبداد وأن الازدهار والتقدم ملازمان للحرية؟

وهل ؟ وهل ؟

الأسئلة كثيرة والدروس مهمة وخطيرة، لا نحتاج لأن نفصل فيها فقط، بل نحتاج لأن نحفظها عن ظهر قلب، عسى أن يكون ذلك معيناً لنا في معركة التحديث، معركة البقاء، معركة الحياة.



المراجع العربية :

لا تتضمن هذه القائمة إلا الكتب التي أفدنا منها مباشرة وأخذنا منها اقتباسات محددة، وإلا فمراجع البحث كثيرة يضيق عنها المكان هنا.

ـ ابن باجة ، تدبير المتوحد، تحقيق معن زيادة، دار الكندي، بيروت، ١٩٨٥ .

ـ أبو زيد، أحمد، «الحضارة بين علماء الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا»، مجلة عالم الفكر، مجلد ١٥، عدد٣

ـ «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي»، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣ .

ـ برينتون ، رين ، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مراجعة صدقي حطاب، عالم المعرفة، رقم ٨٢، اكتوبر تشرين الاول، ١٩٨٤

ـ منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبدالرحمن مراد، دار الفن الحديث، دمشق، د.ت

ـ التونسي ، خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الترجمة الفرنسية، باريس، ١٨٦٨ .

ـ الجابري ، محمد عابد، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٤ .

ـ نقد العقل العربي، دار الطليعة، بيروت

ـ الجبرتي ، عبدالرحمن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ت.

ـ الجميلي، رشيد محمد حسين، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٢ .

ـ الحبابي ، محمد عزيز، من المنغلق إلى المنفتح ، ترجمة عن الفرنسية محمد برادة، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣

ـ حجازي، محمود فهمي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع

الحلبي، القاهرة د.ت
ـ لوتسكي ، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ط ٨ و٩، دار الفارابي بيروت، ١٩٨٥
ـ محمود ، زكي نجيب ، نحو فلسفة علمية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
ـ هموم المثقفين ، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١ .
ـ مراد ، يوسف ، مبادىء علم النفس العام، ط ٣، دار المعارف، مصر، ١٩٥٧
ـ مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، د.ت.
ـ منيمنة ، جميل ، المشكلة السياسية في الفكر الإسلامي الحديث، أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، مخطوط.
ـ النجار ، حسين فوزي، رفاعة الطهطاوي، سلسلة أعلام العرب، رقم ٥٤، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.
ـ النشار ، علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة.
ـ اليازجي ، حليم ، الأيديولوجيا الإصلاحية ومظاهرها في الفكر العربي الحديث، سلسلة بحوث في الفكر القومي العربي، بإشراف معن زيادة، معهد الإنماء العربي، بيروت، المجلد الثاني، الجزء الثاني



المراجـــع الاجنبيـــة:

Burckhardt, Tıtus, **Moorish Culture in Spain,** Translated by Alisa Jaffa, Mcgraw-Hill, New-York, 1972.

Gıbb, H. A. R. , **Mohammedanism, An Historical** Survay, Oxford, Uni. Press, New-York, 1962.

Grunebaum, G. V. , **Luidentite culturelle de L Islam,** Paris, Gallimard, 1973.

Khaddurı, Majid, **The Islamic Conception of Justice,** The Johns Hopkins, Unı. Press, Baltimore and London, 1984.

Lewis, Bernard, **The Middle East and The West London,** 1964.

Russel, Bertrand, **History of Western Philosophy,** London, 1965.

Skınner, B. F. , **Beyond Freedom and Dignity,** Bantam/vintage, New-York, 1972.

Tylor, E. B. , **Primitive Culture 187I,** Vol. I. P. I.

Weber, Max, **The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism,** New-York, Charles Scribner s Sons, 1958.



صدر عن هذه السلسلة

العنوان		
١ ـ الحضـــارة	تأليف	د/ حسين مؤنس
٢ ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف	د/ إحسان عباس
٣ ـ التفكير العلمي	تأليف	د/ فؤاد زكريا
٤ ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف	د/ أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف	زهير الكرمي
٦ ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف	د/ عزت حجازي
٧ ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف	د/ محمد عزيز شكري
٨ ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة	د/ زهير السمهوري
		د/ شاكر مصطفى
	مراجعة	د/ فؤاد زكريا
٩ ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف	د/ نايف خرما
١٠ ـ جحـا العربي	تأليف	د/ محمد رجب النجار
١١ ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة	د/ حسين مؤنس
		د/ إحسان العمد
	مراجعة	د/ فؤاد زكريا
١٢ ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	ترجمة	د/ حسين مؤنس
		د/ إحسان العمد
	مراجعة	د/ فؤاد زكريا
١٣ ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف	د/ أنور عبد العليم
١٤ ـ جمالية الفن العربي	تأليف	د/ عفيف بهنسي
١٥ ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف	د/ عبد المحسن صالح
١٦ ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف	د/ محمود عبد الفضيل
١٧ ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد	رؤوف وصفي
	مراجعة	زهير الكرمي

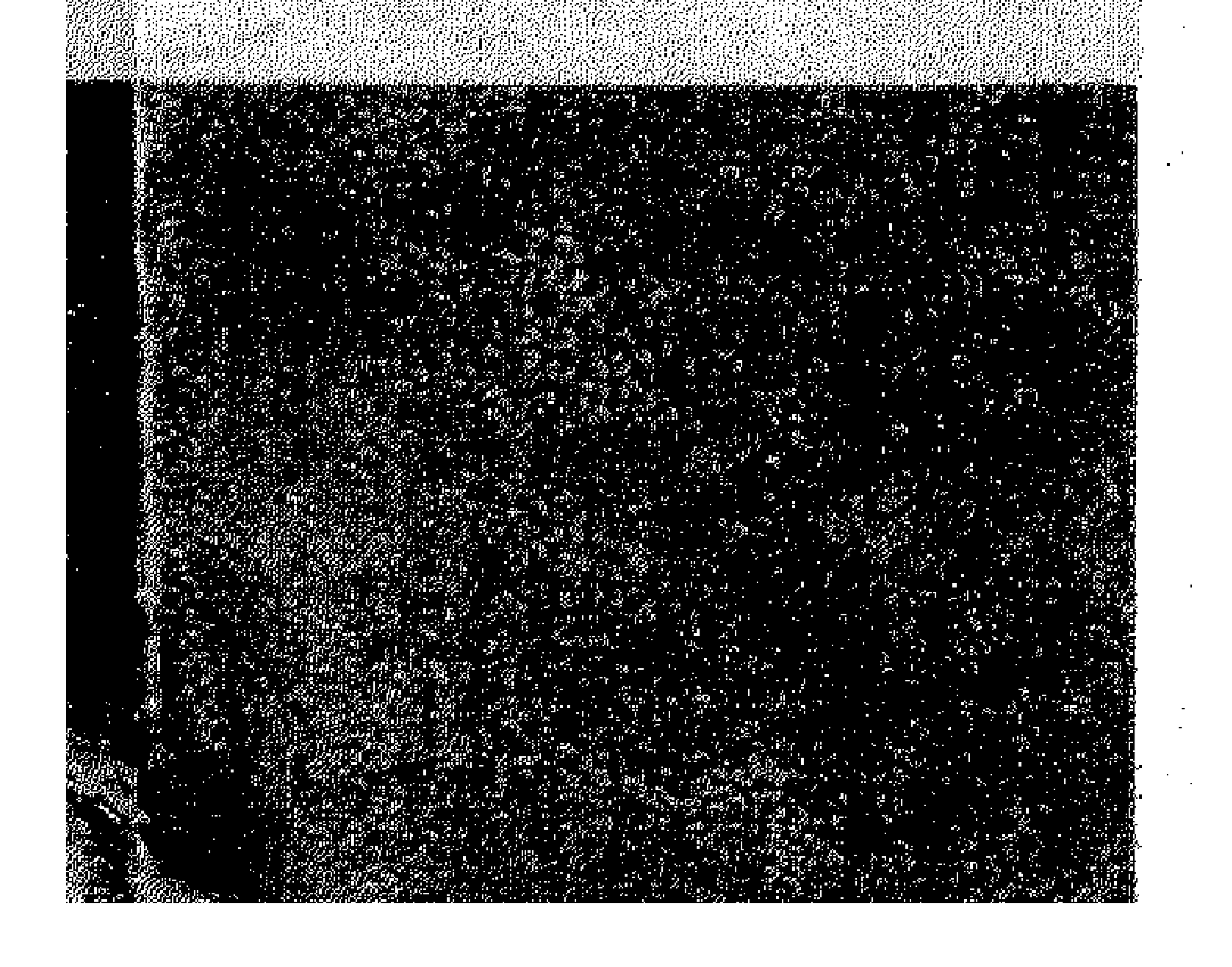
١٨ ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود
	مراجعة : د/ شوقي السكري
	د/ علي الراعي
١٩ ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : سعد أردش
٢٠ ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة : حسن سعيد الكرمي
	مراجعة : صدقي حطاب
٢١ ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد علي الفرا
٢٢ ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد
	د/ محمد سعيد صاريبي
٢٣ ـ الرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٢٤ ـ الإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
٢٥ ـ المسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي
٢٦ ـ مصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٢٧ ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار إبراهيم
٢٨ ـ أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي	ترجمة : شوقي جلال
٢٩ ـ العرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره
٣٠ ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني
٣١ ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني
٣٢ ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف
	مراجعة : د/ رجا الدريني
٣٣ ـ الإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
٣٤ ـ قضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
٣٥ ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري
٣٦ ـ الحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
٣٧ ـ المساجد	تأليف : د/ حسين مؤنس

٨٦ ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف . د/ عبد الستار إبراهيم
٨٧ ـ في تراثنا العربي الاسلامي	تأليف د/ توفيق الطويل
٨٨ ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة د/ عزت شعلان
	مراجعة د/ عبد الرزاق العدواني
	د/ سمير رضوان
٨٩ ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف د/ محمد عماره
٩٠ ـ العرب والعالم (القسم الأول)	تأليف كافين رايلي
	ترجمة . د/ عبدالوهاب المسيري
	د/ هدى حجازي
	مراجعة د/ فؤاد زكريا
٩١ ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف · د/ عبدالعزيز الجلال
٩٢ ـ عقول المستقبل	ترجمة . د/ لطفي فطيم
٩٣ ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف · د/ أحمد مدحت اسلام
٩٤ ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف · د/ مصطفى المصمودي
٩٥ ـ تغيير العالم	تأليف . د/ أنور عبدالملك
٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية	تأليف · د/ ريجينا الشريف
	ترجمة أحمد عبدالله عبدالعزيز
٩٧ ـ العرب والعالم (القسم الثاني)	تأليف كافين رايلي
	ترجمة د/ عبد الوهاب المسيري
	د/ هدى حجازي
	مراجعة د/ فؤاد زكريا
٩٨ ـ قصة الانثروبولوجيا	تأليف د حسين فهيم
٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع	تأليف · د محمد عماد الدين اسماعيل
١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف د محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف د شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف د رشاد الشامي

١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف . د محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف · جاك لوب ترجمة أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الإجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ إبراهيم عبدالله علوم
١٠٦ ـ « المتلاعبون بالعقول »	تأليف هربرت أ. شيللر ترجمة : عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف · د محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) الجزء الثاني	ترجمة د. علي حسين حجاج مراجعة : د عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف د شاكر عبدالحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة د محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف د أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف د سعيد إسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د. فاطمة عبدالقادر المما

البلد	سعر النسخة
* الكويـــت	٥٠٠ فلس
* السعودية	١٠ ريالات
* العراق	دينار واحد
* الأردن	٧٥٠ فلس
* سوريا	١٥ لـيــرة
* لبنان	١٥ ليرة
* ليبيا	دينار واحد
* المغرب	١٥ درهم
* تونس	١/٤ ١ دينار
* الجزائر	٢٠ دينار
* مصر	١ جنيه
* السودان	١ جنيه
* عمان	١ ريال
* اليمن الجنوبية	٨٠٠ فلس
* اليمن الشمالية	١٠ ريالات
* البحرين	دينار واحد
* قطر	١٠ ريالات
* الامارات العربية	١٠ دراهم

طبع من هذا الكتاب خمسون ألف نسخة



مطابع الرســالة ـ الكويت